

سلسلة



الطريق إلى الجمهورية البرلمانية

شرائع البحر الأبيض المتوسط القديم

فتحي إمبابي

الطريق إلى الجمهورية البرلمانية

شرائع البحر الأبيض المتوسط القديم

فتحي امبابي

للشغف وحده
أدين لهذا الكتاب... ولكل ما كتبت...
وكلما كشف العالم عن فساده... وانحطاطه...
كان وحده قوة دافعة لا تنضب وطوق نجاة..

فتحي امبابي

مقدمة :

يتناول كتاب شرائع البحر الأبيض المتوسط القديم مبادئ الشرائع الدينية والقانون المدني التي سنتها الحضارات التي تكونت ونمت وازدهرت على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، منذ مطلع التاريخ، وحتى القرن الرابع الميلادي، والتي تلاقحت وتفاعلت واختلطت وتمازجت وتأثرت ببعضها البعض، بالسلب والإيجاب.

هذا البحث في جزء منه قراءة في التّماتلات والتباينات والتناقضات الكامنة في المفاهيم الثقافية والأخلاقية لتلك الشرائع والقوانين، والتي انعكست على مظاهر الصراع الذي جرى في القرون التي سبقت وتلت ميلاد السيد المسيح على المسرح الإستراتيجي للمتوسط، والذي توج بسيطرة روما على شعوب العالم القديم، ومن المدهش أنها لا تزال تعمل عملها في تأجيج الصراعات الدموية والثقافية والأثنية والعرقية حتى اللحظة الراهنة.

أمة العبيد:

وهو في جزء ثانٍ محاولة استشرافية للإجابة عن سؤال: لماذا خرجت الجماعة المصرية⁽¹⁾، من التاريخ، ولماذا سقطت لعشرات القرون في غياهب الاستلاب الجمعي. وفي هذا الصدد يجري تناول "الدستور الذي سنه الرومان لمصر" - في القرن الأول الميلادي، والذي أودعها عالم الظلمة، وحنط شعبها بعد أن حوله إلى أمة من العبيد.

الدستور

وهو في جزء ثالث مساهمة في تأسيس لوعي قانوني وتشريعي يساهم في كتابة دستور مصرى للمستقبل.

أثناء كتابتي لكتاب (جوهر الدساير) تبين أن مفاهيم مثل الشريعة والقانون هي أمور غائبة في القدم، تتعلق بهويات الجماعات والشعوب، وأن البحث في شرائع الشرق الأدنى القديم يكشف عن أسرار ولحظات تاريخية أغلق عليها التاريخ بوابته وألقى بها في كهف المحظور والغامض، كما يؤسس لوعي قانوني وتشريعي، ويكشف عن مكامن القوة والضعف، ومنها:

- ثمة فارق شاسع بين شرائع جنوب المتوسط وشرقه والتي اعتبرت قوانين سماوية وهبتها الآلهة للإنسان، وبين القانون الوضعي المدني الذي استنتته الحضارتان اليونانية والرومانية.

(1) الجماعة المصرية: سوف أقصد دائماً (بالجماعة المصرية، أو المصريين، أو مصر - تحديداً بجماعة الفلاحين المصريين والتجار والكهنة ورجال الدين والجنود والضباط من أبناء الفلاحين).

- أن الدستور الذي سنته روما لمصر، قد أسس الشروط السياسية، والوقائع الموضوعية والاجتماعية والثقافية التي حكمت بها مصر- طوال ألفي عام والذي حولها إلى أمة من عبيد، يستوي في ذلك الإمبراطوريات الوثنية أو المسيحية أو الخلافة الإسلامية.

- لعبت الكنيسة المصرية دوراً بطولياً في القرون الأولى التي تلت قدوم السيد المسيح والتبشير بدعوته، في إسقاط الإمبراطورية الرومانية. والتي توجت بإصدار إمبراطور روما قسطنطين الأول⁽²⁾، عام 313 مرسوم ميلانو الذي أعلن فيه إلغاء العقوبات المفروضة على من يعتنق المسيحية منهيًا فترة اضطهاد المسيحيين. كما قام بإعادة أملاك الكنيسة المصادرة. ثم جعل من المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية التي شرعت في التفسخ والانحيار.

الطريق إلى الجمهورية البرلمانية

الآن نحن في الزمن الحاضر، حيث ينبغي أن ينصب جل اهتمامنا وطاقاتنا على النظر في كيفية التقدم نحو المستقبل، فما الأهمية التي تدعو مفكرين وباحثين إلى الحفر والتنقيب في الماضي، والبحث في حفريات اللاوعي للجماعة الإنسانية؟ ما هو سر ذلك الولع الذي يدفع البعض إلى الإبحار بين دياجر التاريخ صاحب الحقب المزدهرة حيناً، وتلك المظلمة والمعتمة بانحيازات التعصب والأيديولوجيات والمذاهب الدينية المتطاحنة، فما البال لو أن تاريخ الشعوب

(2) قسطنطين الأول: (27 فبراير 272 - 22 مايو 337 م)، غايس فلافيوس فاليريوس أوريليوس كونستانتينوس (Gaius Flavius Valerius Aurelius Constantinus) هو إمبراطور روماني يعرف أيضاً باسم قسطنطين العظيم.

المقهورة كتبته سيوف الغزاة والمنتصرين وأقلام العبيد عندما يتماهون مع معتقدات وثقافة السادة الفاتحين.

إنها إشكاليات الحاضر، ومأزق الصراع بين مكونات الشخصية الجمعية التي تعمل ضد بعضها البعض، بالقدر الذي يصبح معه الغوص في تاريخ الشخصية المصرية ضرورة لاكتشاف الغامض والملتبس، والتعرف على أغاز يصعب حلها، وطلاسم يصعب فهمها.

الدولة الحديثة

أظهرت الوقائع التاريخية خلال المائتي عام الأخيرة، أن النظام الملكي أو الرئاسي والذي يعد من حيث تكريسه للحكم الفردي الاستبدادي امتدادا لنظام الولاة الذي أسسه الرومان في مصر- منذ عام 30 ق.م، وبغض النظر عن تبني الجالس على سدة الحكم أمال الجماعة الشعبية المصرية وطموحاتها، وإقراره العدالة والحرية من عدمه، أو التبعية للقوى الإمبراطورية والإمبريالية العالمية، فقد انتهى الأمر دائما إلى كوارث ونكبات مهلكة دفع المصريون ثمنا باهظا لها.

الديمقراطية هي (حكم الشعب): هذه عبارة أو مصطلح لا يتوقف عند حدود اللغة الزائفة التي استخدمها الطغاة في العصر- الحديث، ولكنها أمر متعلق بالثقافة العامة لدى الجماعة ولدى النخب، والذي يبدأ من حدود إيمانها عن يقين مستقر على مستوي الوعي والوجدان بحرية الفرد وكرامته.

كتابة دستور الثورة

كي تكون هناك جمهورية برلمانية يجب أن يكون هناك إيمان شعبي بالحرية الفردية والكرامة الإنسانية، ولكن ثقافة العبيد ظلت طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، من قبل العامة والبسطاء والنخب تجاه السلطة الحاكمة هي المظهر الرئيسي- لتأليه الحاكم؛ ملكا كان أو رئيسا، فقط في 25 يناير 2011 خرج ملايين المصريين من أجل الدفاع عن حريتهم الفردية، وعن كرامتهم الإنسانية، إنها أول ثورة في تاريخ الجماعة المصرية تتبنى بوعي وإيمان وطموح مفهومي الحرية الفردية والكرامة الإنسانية، وهو ما انعكس بصورة طبيعية عن اتساع الاهتمام العام، والرغبة في المشاركة المجتمعية الواسعة للمرة الأولى في التاريخ الحديث في كتابة دستور للثورة. ذلك أن الحرية الفردية تتطلب اجتماع الجماعة على توقيع عقد اجتماعي فيما بينها وقانون أعلى سام (دستور) يشرع حرية الأفراد ويحمي العلاقة بينهم وبين السلطة والمجتمع.

تجربة كتابة دستور

عبرت تجربة كتابة الدستور في سنوات الثورة عن تخبط واضطراب عميقين (وهو أمر طبيعي ومتوقع)، فبينما كانت الآمال الرحبة والطموحات الشريفة لكتابة دستور يشرع الحريات والحقوق والمساواة وعدم التمييز بأنواعه، ويؤسس لنظم تحمي العدالة الاجتماعية لأفراد الشعب، وينظم سلطات الحكم، ويحمي الفصل بين السلطات، والمواطن من عسف الدولة، ويواجه الدولة الاستبدادية الفاسدة، ويمنع

ظهورها، ويكرس في القلب منها ودون لبس أو غموض تحديد من هو صاحب السيادة الحقيقي؟ من هو صاحب السلطان الأكبر؛ الملك أو الرئيس أم المواطن، أم نخبة ما اقتصادية أو عقائدية، مذهبية أو طائفية أم دينية.

كانت الإمكانيات الفكرية والخبرات السياسية بالخصوص لدى النخب فقيرة، وهو أمر أيضا طبيعي ومتوقع، ذلك أن قيمة مفهوم الدستور بصورة خاصة وأهمية القانون بشكل عام هو أمر حديث تماما على الوعي السياسي والثقافة الشعبية، وعقل النخبة السياسية والثقافية المصرية، الغارق في المفاهيم والعقائد الشمولية (يسارا أو يمينا)، وشتان بين الرغبات والأحلام، وبين الوعي بالحقائق التي تخص الجماعة المصرية ذات التاريخ القديم والعريق...

الدولة المملوكية وواقع العبودية

تحكي الخواتيم أن (الدولة المملوكية) حكمت الفلاحين المصريين لست قرون متواصلة (1250 م - 1798م)، فمن هو هذا الشعب الذي حكمته (تحت غطاء من الدين) سلطة من العبيد، جلبهم النحاسون من أواسط آسيا وشرق أوروبا، حتى نزلت في أواخر القرن الثامن عشر الحملة الفرنسية وادي النيل، فشقت الكفن الذي حنطت داخله الوعي المصري، وكان لاكتشاف حجر شامبليون وفك طلاسم اللغة الهيروغليفية أثر بالغا في ذلك.

ثم قام الألباني مؤسس نهضة مصر- الحديثة محمد علي باشا باكتشاف الإمكانيات الهائلة والمضمرة لهذا

الشعب، ليقوم ابنه بعد نصف قرن الوالي محمد سعيد باشا الذي أصبح مصرياً قلباً وقالبا بإعادة الحياة في الجسد المصري عندما نفخ فيه الروح عام 1858، بإعلانه اللائحة السعدية التي أعادت للفلاح ما استلبه الرومان منذ عشرات القرون ومن بعدهم كافة الإمبراطوريات، وهو حق امتلاك الفلاحين للأرض، وحق أبنائهم في الترقى في الجيش لصفوف الضباط.

بعد عشرين عاماً قامت أول ثورة شعبية للفلاحين في العصر الحديث تعبر عن وعي ورغبة في امتلاك مقدرات حياتهم السياسية واليومية، وتطالب بدستور ومجلس نيابي ودولة مدنية معاصرة، انتهت بالتدخل الإنجليزي عام 1882 واحتلال الإمبراطورية البريطانية لمصر - ثلاثة أرباع قرن بحجة عدم لياقة المصريين لإنشاء وإدارة دولة حديثة. وهي نفس النظرة التي سبق للرومان أن حملوها لمصر، فأسكنوها الموت قرابة ألفي عام، ومنذ الاحتلال البريطاني لمصر - كان للحرية معنى وحيد وهو الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

هل هذا الكتاب بحث في الهوية؟

نعم هو كذلك، فهو بحث في طبيعة وهوية الجماعة الشعبية المصرية. وعلاقتها التاريخية بمكوناتها الذاتي الحضاري والثقافي، وبالحضارات التي نشأت حولها، وتفاعلت معها، نعم هي قضية متعلقة بالهويات المضمرة الكامنة في اللاوعي الجمعي.

لكن كثيراً من المفكرين وخاصة الغربيين ومن لف لفهم على المستويين المحلي والإقليمي، والذين يروجون لعصر - العولمة بهدف غامض وهو التأسيس

لسيادة الثقافة الأمريكية، يضعون علامات استفهام على هذا المصطلح، مدعين أن الهوية مفهوم لمكون ينحى للثبات، ويتكون في عملية الصراع التاريخي في مواجهة الآخر. وهو ما يخلق العنف والإرهاب.

لهذا من المهم التأكيد أن النظر في تاريخ الشعوب ليس بالضرورة بحثاً عن هوية منغلقة، تقاوم التطور وتعانده، أو تأخذ منحي رفض الآخر في إطار الصراع العالمي الدائر، وإنما هو محاولة تتوق لفهم الشخصية لجماعة إنسانية، بوصفها مكوناً تاريخياً عضوياً، يتغير ويتطور يقوى ويضعف في مسار نهر التاريخ المتجدد. وصولاً لما هي عليه الآن. ليكون البحث في التاريخ قراءة إنسانية تسعى للانعتاق من أغلاله، وفك القيود التي تخنق التطور وتكبح الشخصية الجماعية من القدرة على الإبحار في المستقبل.

الشغف

وأخيراً من الممتع القول بأن البحث في أركيولوجيا (الطبقات) الثقافية للشعوب ليس مجرد استعادة لقراءة التاريخ، وإنما هو عملية إبداع وتخيل قد تحمل قدراً من الخطأ، لكنه يدفعها قدر هائل من شغف يصبو للتعرف على الضرر المادي والمعنوي، والتهشيم الكامن في طبقات اللاوعي الجمعي للشخصية المصرية، والتي دفنت في تاريخ القهر والاستبداد، والشغف هنا هو الصراع الذي يقود السفينة وهي تبحر في بحار الظلمات، في مهب الرياح والعواصف، وضد المعتاد والانتهازي والزائف.

* * * *

الباب الأول

شرائع البحر المتوسط القديم

في المنطقة الواقعة على ضفاف نهر النيل والفرات نشأت الشرائع الأولى التي اصطفاها البشر. القاطنون على ضفاف النهرين (من خلال خبرتهم الحياتية)؛ طريقاً وأسلوباً لحياتهم، فكلاهما النيل والفرات يعدان في الميثولوجيا القديمة أنهاراً مقدسة تنبع من الجنة، و من أسفل سدرة المنتهى أى العرش الإلهي، وإسباغ القداسة عليهما أمر منطقي؛ فقد وهب البشر أسرار الحياة، وعلى ضفافهما تشكلت الحضارات البشرية الأولى وأقدمها وأعظمها تاريخياً، ليس بسبب الآثار المادية والعلمية التي خلفها وراءهما والتي اعتبر بعضها من المعجزات البشرية، ولكن لأن حضارات الشرق الأدنى القديم شكلت أنساق المفاهيم الإنسانية الأولى، التي تعرف البشر. من خلالها على كينونتهم كإنسان ولد من قلب الطبيعة، ويخطو خطواته الأولى ليتعرف على ذاته وعلى المجتمع الذي يولد ويعيش ويموت فيه إلى حيث لا يدري، وعلى الكون الواسع الذي لم يدرك مداه بعد.

قد لا يعلم الكثيرون أن "روما" قامت بتدمير تلك الحضارات واحدة بعد أخرى، وأذلتها وحطت من

القيم العظيمة التي أرستها، وكأنها تدك العالم القديم تمهيداً لظهور المسيحية، لكن، لهذا شأن آخر.

مصطلح الشرائع

نعلم من خلال علم الأنثروبولوجي أن إنسان المجتمعات القديمة تعلم وهو يغادر العالم البدائي لجامعي الطعام والذي تميز بالوحشية والبربرية، أن يؤسس عالمه الإنساني وينظم حياته الاجتماعية وفق عادات وأعراف وقوانين وأنساق حددت معالم العلاقة بين الأفراد وبعضهم البعض، وبين الفرد والجماعة البشرية التي ينتمي إليها؛ ولكونها على هذا القدر من الخطورة لكي لا يتم نقضها، جري إسباغ صفة الإلزام والاستقرار عليها، وأحييت بهالة سامية من القداسة، فجعل من الآلهة مصدر لهذه السنن والأعراف، ومن الكهنة والملوك حراس عليها وقائمون على تفسيرها والموكلون بتنفيذها، وتوقيع العقاب على من يخالفها، هذا الذي أطلق عليه مصطلح "الشرائع".

وحتى هذه اللحظة لا تزال أنساق القيم والشرائع التي تشكلت فيما قبل التاريخ على ضفاف النهرين المقدسين، وساحل البحر الأبيض المتوسط تعمل في حياتنا اليومية من خلال تراكم المعرفة طوال الزمن الحضاري، وتلاقح الحضارات وتداخلها، وما تكونه من تراكم معرفي عبر التاريخ، وليس من الضروري أن يكون الأمر خيراً في مجمله، أو شراً في بعضه، فقد عرف تاريخ البحر المتوسط صراعات وحروباً دامية جرت على المسرح الإستراتيجي للعالم القديم، فانهارت دول وتشكلت إمبراطوريات عبر عمليات غزو وفتح واسعة ومتواصلة، تركت وراءها عالماً من السادة النبلاء وأماماً

من العبيد، وشرائع وديانات ينصهر داخلها الجميع فيشكلون وحدة تعيش في سلام، أو جماعات أممية يخوضون بحماسة وتعصب ينطلق من إيمان يقيني بملكية الحقيقة المطلقة لخوض حروب مذهبية، يتم فيها استئصال جماعات بشرية تنتمي لعقائد أو أعراق مختلفة، أو حتى تدمير الجماعة البشرية لذاتها تدميرا ممنهجاً بصورة يصعب تصورها، رغم كونها تدور أمام أعيننا دونما توقف وحتى الزمن الحاضر.

على أن المعرفة بمدى التطور الذي بلغته شعوب الشرق الأدنى لمفهوم (الشريعة / القانون)، والصراع الذي بدأ في الزمن المعاصر منذ القرن الثامن عشر. بين الشرائع الدينية والمدنية، والذي يمكن اعتباره المادة الخام لصناعة الاستبداد، هو أمر أدعى إلى التعرف على سمات وطبيعة الشرائع والقوانين التي ولدت على ضفاف أنهار الشرق الأدنى وشواطئ البحر المتوسط وعواصمه البحرية أثينا وروما والإسكندرية، والتي سادت في حقبة ما قبل وبعد ميلاد السيد المسيح.



الفصل الأول

المصريون القدماء

الحياة من قلب العماء...

النظام من قلب الفوضى...

تمتد الحضارة المصرية القديمة إلى عصور ما قبل التاريخ، وعندما جرى فك شفراتها وجد العالم نفسه أمام مجتمع لا يتخبط في الظلام أو الفوضى، لسنا أمام قبائل همجية، أو بدو رحل يقاسون بيئات صحراوية أو جليدية، تنتج بالضرورة وعياً أسير ندرة ضروريات الحياة البدائية، أو إنسان غابات عاجزاً عن النظر فيما وراء الأدغال الكثيفة وأغصانها المتشابكة، أو يرتعد خوفاً وهو يعبر مراعى السافانا المدمجة بالوحوش والضواري المفترسة، حيث ظل وعى الجماعة البشرية مدمجاً في الطبيعية، أسير الخطر، والانشغال الدائم في البحث عن الطعام.

العالم المادى

وهبت الطبيعة المصرى القديم أرضاً تميل بلا مشقة واستواء ناعم يعجز البشر عن صناعتها، وكأن مساحاً إلهياً مهدها من الجنوب إلى الشمال، فوهبته نهراً خالياً من المساقط والشلالات، يفيض كل عام في زمن معلوم، ويأتى محملاً بالماء سر الحياة، والغرين أصل الخصوبة، إنه معمل شكلته الطبيعة، لبيئة

زراعية نهريّة رحيبة مسورة بصحراء قاحلة، عزلته لزمن طويل من كافة الأطراف عن البيئات الأخرى، لكنها أيضاً شديدة الخصوصية، تقدم له وفرة من الشروط الضرورية للحياة والإنتاج؛ ينمو داخلها ويترعّع عبر آلاف السنين إنسان مراعي السفانا مكتسبا وعيا جديداً، لتصبح المعرفة الناجمة عن العمل المنتج، أحد أهم قوانين حياته الرئيسة. ومع كل صباح يشرق، ثمة شمس تسبح باتجاه واحد في مركبها السماوي، تتعامد رحلتها اليومية على نهر عملاق، تغمر مياهه صفحة ناعمة لمسطح ممتد لأراض خصبة هذبت ميولها بدقة بالغة.

العمل الشاق طريق التعلم

على الشفرة الحادة للضرورة منحت الطبيعة المصرية القديم نفسها، وكان عليه شق طريقه لاستجلاء أسرارها لمنفعته، ومنفعة أسرته وقريته، من خلال قيمة العمل البشري الشاق الدءوب، الذي يبدأ منذ الفجر وقبل طلوع الشمس، وينتهي مع غروبها، ينظم أوقات عمله ونشاطه اليومي، مع كل موقع بلغته الشمس في السماء؛ السحر، الفجر، الضحى، الظهر، العصر، الغروب، الغسق، الليل. ورغما عن ذلك كان شرط الضرورة رحيماً يقع داخل واقع الإمكانية، وليس المستحيل.

فضيلة التعاون والمشاركة

وعندما يحين وقت الحصاد تعم البهجة والفرح، ويعكف كل رجل على تقدير المجهود الذي بذله، وما إذا كان قد انعكس بالسعادة أو التعاسة على حياته، فيبني داراً من هو في حاجة لدار، ويتزوج من هو في سن

الزواج، أو يضيف مقعداً علوياً لأجل زواج ابن جديد، ويلعب المراهقون حيث وجب اللعب. ومع نهاية فصل الشتاء وانتظار موسم فيضان جديد، يكون الفلاح المصرى قد توطنت لديه فضيلة أساسية بعد فضيلة العمل الدؤوب، أصبحت السمة الرئيسة لتشكيل المجتمع المصرى طوال تاريخه، وهى فضيلة التعاون والمشاركة، اللذين ينطبقان على مجمل حياته العملية، فيتشارك مجتمع الفلاحين أدوات العمل؛ فؤوس، محارِيث، المساقى وقنوات الري، ويتبادلون قوة العمل الرئيسة من ثيران وبقر وحمير وجمال، بما في ذلك قوة العمل البشرى نفسه، حيث يقرض كل منهم الآخر قوة عمله وقوة عمل زوجته وأسرته، لقاء استعدادتها في يوم قريب، حيث تنجز أعمال الري والحصاد وضرب الطوب اللبن، والبناء وبناء السدود من خلال تبادل أيام العمل في حقول بعضهم البعض.

وعلى مدار آلاف الأعوام ومن خلال منظومتى العمل المشترك الشاق المؤسس على تعاون، تتطلبه مقومات السيطرة على النهر وفيضاناته، والطابع المركزى لنظام الري، انكب المصريون بين ربوع الوادى على جنى ثمار اكتشافهم للثورة الزراعية، فقدمت الطبيعة للإنسان المصرى عالماً مفتوحاً، ونظرة لانهائية، وسط وفرة هائلة لعنصرى الحياة، الضوء والمياه، لا يكبح نمو الوعى البشرى سوى نجوم لامعة وسماء صافية، طبيعية منتظمة غير فوضوية، حفلت على مدار العام بإشارات وعلامات زمانية ومكانية تكرارية تنتج مع كل دقة من دقائق الزمن المهيبه دلالات مبهره.

النظام والديمومة

كان مصدر حياتهم يدور حول طبيعة تتميز بالانتظام والديمومة، بين ربوعها تلمس المصري القديم وعيه بالعالم، ففي ميقات معلوم فيضان سنوي، يتوارد في مواقيت منتظمة من كل عام، و فصول أربعة، مع كل فصل تتلون الطبيعة بنمط معين من المناخ والنباتات، و تبعث من الأرض نباتات متنوعة، فتزدهر مع فصل الربيع وتنمو مع فصل الصيف وتموت في الخريف، ليأتي الشتاء بمواعيد جديدة، هكذا تعلمه الطبيعة كيف تتلاءم أنواع معينة من الزراعات مع كل فصل، لكنه لا يقف ساكناً أمام ما يقدم له، إذ إنه يشرع في هندسة نظم من الري تتيح له إنتاج الوفرة من المحاصيل.

ومع اكتشاف الثورة الزراعية التي تضافرت مع إبداع منظومة هندسة الري التي تمتد على مساحات شاسعة لمئات الكيلومترات، وتضم آلاف القرى والكفور ينشأ نسق من العمل الاجتماعي ذي مردود اقتصادي واجتماعي كلي، يتعاون فيه مئات الآلاف من الفلاحين على السيطرة على ثورة النهر، وفيضاناته وطبيعة تشكلت من تربة غرينية خصبة، وفي زمن معلوم تضع أسماك القرموط بيوضها في علامة زمنية إشارية لبدء فيضان جديد، يأتي محملاً بالحياة والخير، ومعه نجحوا نجاحاً باهراً في ضبط مناسيب الأراضي وقلبوها تحت شمس تطهرها، وكانوا كل عام يقيمون السدود على امتداد الوادي من شماله إلى جنوبه، بدقة بالغة لتخزين مياه الفيضان، وتجهيزها للبذر والزراعة، كانوا مزارعين عن جدارة.

ومع كل تجربة حياتية، ثمة درس عملي يستند إلى عمل فردي وجماعي واجتماعي شاق، تتجلى فيه مفازات معرفية تتصل بحقائق كونية وحياتية، ظلت مبهمة في انتظار من سيغادر كهف الضرورة الذي عاشه جامع الطعام وأكل الجيفة، الذي ظل يعيش ظلمة الوعي مئات الآلاف من السنين. وحدهم المصريون لم تبخل الطبيعة، فأعطتهم الشمس والنهر، فزرعوا الأرض وحصدوا الزرع، ولم يكتفوا بل شيّدوا الأهرامات والمسلات والمعابد الشاهقة، في إشارات دلالية عادت الطريق إلى معرفة العالم المادى والروحي وأسرارهما.

شمس هينة وطقس لطيف

أنعمت الطبيعة الأم على طفلها المفضل بشمس هينة، وطقس لطيف خال من الأعاصير المدمرة، وحبته القدرة على أن يتعلم كيف يولد الإنسان الأول من رحمها المادى، وعلمته كيف يقطع من كبوحات الضرورة القاتلة التي سجن داخلها سلفه جامع الطعام، ووهبته عيشاً في حياة جادة، توفر له الزمان والمكان، وأخذت بيده، تدعوه إلى النظر إلى العالم، كي يطلق مخيلته للتعرف على شفرات الطبيعة و الكون، والعكوف على البحث والاستقصاء عن أسرارهما، فاتجه إلى اكتشاف أسرار الكون المادى، وبلغ من علوم الفلك والكيمياء شأنًا كبيراً، وفرّق بين الوقت و الزمن، وحدّد السنة الشمسية والفصول الأربعة، والسنة بالاثني عشر شهراً، والأسبوع بسبعة أيام، وقسم اليوم إلى ساعاته الأربع والعشرين، ثم ضبط السنة الشمسية بدقة بالغة.

ومع كل منجز مادي يحققه، وعمارة خلاقة
يشيدها، وفن رائع يرسمه، وتمثال مهيب عملاق
ينحته، كانت تنمو داخل وعيه أسئلة الوجود الكبرى؛
أصل العالم، منشأ الوجود، كيف وجد البشر؟ وما
المغزى من وجود الإنسان؟ فنشأ في مخيلته ما رسمه
على جدران المعابد عن قصص الخلق الأولى.

ما الحياة؟ وما الموت؟ وما الفارق بين الجسد
الميت الذي كان ينبض بالحياة، فيفسد ويتحلل أمام
عينيه إلى تراب ليفنى، ها هو يقرب من فك طلاسم
الحياة والموت، أو هو يضيف عليها من رموز، مثل أن
يكون الفارق بين جسد يحيا، وجسد وافته المنية هي
(الروح)، فأين تذهب الروح؟ وإذا كان ثمة مكان تأوي
إليه، فهل من حساب عما جنته في الحياة؟

ما المصير إذن؟ كيف يهذب الإنسان سلوكه إذا كان
ينتظره يوم الدينونة، في تعبير موضوعي عن ميلاد
الضمير الإنساني ونشأة منظومتي القيم والأخلاق،
حول الخير والشر، وفضيلتي العدالة والحرية.

عنخ : مفتاح الحياة

لم يحصل المصري القديم
على المعرفة بالعالم كوشي
هبط عليه من السماء، أو
أسئلة طرحها فلاسفة
كالإغريق، لكنها الطبيعة الأم
هي التي وقعت عقداً مع
وليدها، تهبه عالماً مفتوحاً
جاداً، من خلال منظومة
اجتماعية مبنية على قيم العمل



الفردى والجماعى القائم على ضرورات التعاون بين الأفراد، بفعل نظام الرى المركزى، بينما يتولى هو اكتشاف أسرار الزمن والسماء والنجوم والموت والبعث والميلاد، فى طريقه إلى تبني منظور شامل إلى الكون، وتشكيل أنساق رؤيويه للحياة والإنسان والوجود. وكانت أولى علاماته المجردة (عنخ) مفتاح الحياة.. نهراً وشمساً متعامدين، ماء وضوءاً فى وفرة، وديمومة دائرية فى بقاء سرمدى.

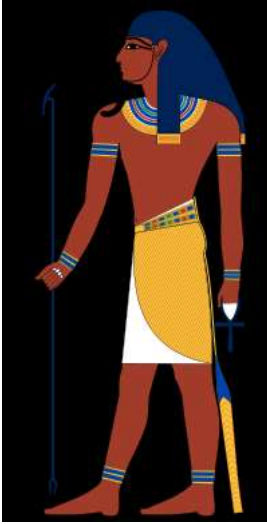
الديمومة

تلك الرؤى العميقة للكون والمجتمع والأخلاق لم تأت من فراغ، وإنما قامت على تأكيدها تكرارية منضبطة عبر آلاف السنين، نهر وشمس؛ ليل ونهار، فيضان وجفاف، عمل وبطالة، ذكر وأنثى، بذر وحصاد، موت وميلاد. ثنائيات كلية وجهت نظر المصريين بالضرورة، وفى زمن مبكر للغاية لمفهوم (الديمومة)، التى تولت ترسيخ تلك الرؤى حتى أصبحت تقبع فى أعماق الشخصية المصرية. ولفرط جمال الحياة وتوازن انسجام أنساقها، أكمل المصريون الموت الأبدى بفكرة البعث بعد الموت، فى أول ثورة اجتماعية من أجل المساواة بين البشر. العاديين والملوك الآلهة.

**الأصول المادية للمفهوم المصرى للكون
الماء - الضوء - النسق**

الوجود الأول في الميثولوجيا المصرية تحقق من خلال ثنائية الضوء والماء الذي أحاط بهما العماء السرمدي، وهي رؤية ثابتة تنطوي على شمول وعمق، وهي أيضاً رؤية تتسم بالدقة من الوجهة العلمية بصورة تتجاوز حيرة الفلسفة الإغريقية حول أصل للوجود الذي تراوح بين أن يكون (هواء أو ماء أو تراباً أو ناراً، أو ذرات) فيما بعد.

تحكى قصة الوجود الأول المصرية أن الكون موطن الضياء كان يحفه ظلام المحيط الأزلي السرمدي، ثم بزغ الضوء للمرة الأولى على هيئة زهرة تخرج من المياه وتنبثق براعمها؛ حيث أوجد الإله (أتوم) نفسه من ذاته.



في البدء كان أتوم وحيداً⁽³⁾
انبثق من قلب المياه الأزلية⁽⁴⁾
من اللانهاية، من العدم واللا مكان
والظلام
أنا من يكتب الكتاب المقدس

أحطت بكل شيء علماً لكوني
الواحد الأحد الجليل
والروح الكامنة وأقوى الآلهة

3 (رندل كلارك RUNDLE CLARKE الرمز والأسطورة في مصر- القديمة MYTH AND SYMBOL IN ANCIENT EGYPT ترجمة: أحمد صليحة - الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999 صفحة 4.

4 (المصدر السابق صفحة 52 / 51 .

أسطورة الخلق

تأسست قصة الخلق المصرية القديمة على تصور نسقى يجمع بين الحياة والنظام الكونى والأخلاق معاً، فى البداية أوجد الإله الأول نفسه من ذاته، وعندما شرع فى الخلق كان أول من خلقهما ذكر وأنثى، الابن الأول هو (شو) الذي كان (الحياة) ذاتها، بينما الابنة الثانية هى (ماعت) التى كانت (النسق أو النظام)، أى أن مفهوم الحياة وبشكل قاطع لم يكن يتسم بالفوضوية أو العشوائية، فقد وجد وتأسس منذ لحظة الوجود الأولى فى تكوين جدلى بين الحياة والنسق الكونى.

الفعل والمفهوم

تقول أسطورة الخلق⁽⁵⁾، وعندما أراد أتوم أن يخلق العالم قال للجة الماء الأزلية:

5 (المصدر السابق صفحة 47).

إننى فى حالة سكون أصابنى سأم شديد . . . والبشر خاملون⁶
لودت الحياة يسعد قلبى ويتهيج فؤادى . . .



لتتجمع أطرافى حتى تشكّلها
حينما كنت وحيدا نفذت كل

ما شئت

قبل أن يكون لى شريك فى المكان
بينما كنت لا أزال ساكنا فى الماء
تدبرت فؤادى وحددت فى رأسى هيئة كل مخلوق
وعينت النسق الذي سأخلق عليه الكائنات
وما سيأتى إلى الوجود من أبنائهم وأبناء أبنائهم
وطرب لذلك شو وتفنوت (ماعت)
وهما فى قلب المياه الأزلية حيث كانا
اتحدا مع جسدى حتى يولدا منى
يقول أتوم الأب الذي احتضن طفليه ليمنع عنهما السوء:
هذه هى إبنتى الأثى الحية (ماعت)
التي ستظل مع أخيها شو
الحياة اسمه والنظام اسمها

منظومة الوعي بالوجود

يشكل الفعل والنسق منظومة الوعي بالوجود لدى
المصرى القديم، هكذا كتبت أسطورة الخلق، كما
أشير سابقاً؛ حيث يبرز الإله أتوم (التام أو الكامل) من

(6) خاملون: أى لم يولدوا بعد. . المصدر السابق.

الظلمة اللانهائية كزهرة ضوء، وكان أول من خلقهما إلهان تجليا في فعل مادي ومفهوم عقلي.

الفعل هو الحياة، الذي يتمثل في الإله (شو الهواء)، الذي أوجده الإله أتوم على هيئة ذكر.

أما المفهوم فهو (النسق الكلي)، الذي خلقه على هيئة أنثى، تتمثل في الآلهة (ماعت) تحتضن الكون وهو يتخلق في رحمها.

من كليهما "الفعل والمفهوم" أي الحياة والنسق خلق الكون المادي أولاً؛ تلك أول مهمة لأبناء أتوم (خلق العالم المادي)، فكان أن ضاجع شو إله الحياة، أخته ماعت إلهة النظام ليكون ابنهما (جب) إله الأرض، و ابنتهما (نوت) آلهة السماء، أي (الأرض والسماء)، ثم يخلقا من زاوجهما الموجودات والمخلوقات كافة من كائنات امتلأت بها الأرض؛ حيوانات وطيور وأسماك. قبل أن يخلق الإله (أتوم) البشر. من دموع "الرحمة" ثم أتى الإله رع (Ra أو La) وهي جذر كلمة (الله)

خلق البشر⁽⁷⁾

يقول أتوم عن خلق البشر:
تجلت للدنيا فطرب لذلك شو وتفتوت
وكانا ساكنين ثم عادا بعيني

7 (زנדل كلارك RUNDLE CLARKE الرمز والأسطورة في مصر- القديمة MYTH AND SYMBOL IN ANCIENT EGYPT ترجمة : أحمد صليحة - الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999 صفحة 91.

فطربت لذلك وطفرت دموعي

وفي قول آخر يقول أتوم عن خلق البشر:

ولما كنت مستريحا ذرفت دمعاً

وهكذا جاء البشر إلى الوجود.

وبذا جاء البشر إلى الوجود مما فاضت به

عيني (أتوم) من دموع

لا تصور نظرية الخلق المصرية الإنسان كمخلوق عاقق للآلهة، أو أن حياته وحياته نسله مؤسسة على العقاب لارتكابه الخطيئة؛ فالخطيئة أو الخلاص أمران غير معروفين في الديانة المصرية القديمة، إذ إن الحياة لدى المصريين على عكس العبرانيين ليست فقط جميلة بما لا تقاس، ولكنها كافية بالقدر الذي يمكن أن يستغنى بها عما هو خارج عالمه، هو مكتفٍ قانع بما لديه وهو فيض وكثير، وقد تعاملت منظومة الأخلاق والقيم مع النشاط الجنسي. للإنسان بكونه طبيعة أصلية في الحياة، وهو في البشر. قانون ضرورة، كما أن العلاقة بين الإله الخالق والمخلوقات هي علاقات أنشأتها أنساق من ثنائيات مادية، منظمة للحياة؛ {ضوء وماء، ليل ونهار، شمس ونهر، إنسان وأرض، بذر وحصاد، بشر وملوك آلهة}، فالبشر هم جزء من نسق كوني غير منفصلين عنه، ولكنهم ليسوا عبيداً له.

لا توجد نظرية أو رؤية فلسفية تشكلت قبل التاريخ المكتوب مثل قصة الخلق المصرية، تتمتع بتصور مغرق في العقلانية المادية الموضوعية عن تكون البشرية في أحضان الطبيعة الأم، يمارسون

حياتهم داخل أنساق النظم المؤسسة على علائق
(العلية أو السببية) التي خلقت الكون المادى.

الماعت

تجسد ماعت مفهوم الحقيقة والعدالة والتألف،
كما أنها تجسد القانون والنظام الكونى، ويمكن تمييزها
بريشة النعامة البيضاء التي تضعها فوق رأسها رمزاً
للحقيقة⁽⁸⁾، وهي لا تعتبر كائناً من لحم، بل تعني
مفهوماً مجرداً "الحق والحقيقة" وتحمل ريشة
عقاب⁽⁹⁾، وقد صورت بهيئة سيدة رشيقة شابة تعلق
رأسها ريشة، وهي رمز الحق والعدل، وتمسك في
أحدى يديها مفتاح الحياة "عنخ"، وفي الأخرى
صولجان الحكم. تقول:

أنا ماعت الطريق المستقيم لمعرفة الحقيقة
أنا توازن بين الفوضى والنظام، وبين كل الأضداد.
أفقي حافة الضوء
أنا الميزان تعلقه الريشة... بيدي أزن قلوبكم لأنها شائكة
أنا كل ما يعبر عن الانسجام اللانهائى فى الأكون.
أنا وجدت من قبل وسأكون موجودا بعد .
بلادى ليست كلماتى لأنى لا يمكن احتواؤه .
أنا فى كل مكان وفى كل شيء، أنا وراء كل زمن، وكل مكان.
ذلك الذى يعرفنى حقاً ويقبل منى . سوف يعرف أنى
فى نقطة ارتكاز جميع الأشياء، وجميع الأضداد...
أحل فى الواقع وقلبى

8 (أنا رويىز Ana Ruiz روح مصر- القديمة The Spirit of Ancient Egypt ترجمة :

إكرام يوسف -مكتبة الشروق 2006 - صفحة135.

(9) أدولف أرممان A. Erman ديانة مصر- القديمة - ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر - د.

محمد أنور شكرى - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997 صفحة 68.

الماعت وفقاً لخطة التاسوع الإلهي

- تعنى ماعت وفقاً لخطة التاسوع الإلهي النظام الذي خلق الإله أتوم عليه العالم، بعد أن كان يسوده الفوضى والعماء، فهي القانون الذي ترتفع بسببه الشمس، وتلمع بقوته النجوم، ويفيض به النهر، إنها الكون ذاته، هي منظم السماء، وهي منظم الأرض، ودورات الكون، وتعاقب فصول السنة، إنها النظام الدائم لتسيير العالم؛ شمس وقمره ونجومه، ليله ونهاره، وحيواناته ونباته، ونساؤه ورجاله، حتى يعمر الكون بالمخلوقات، موجودة في زورق رع الشمسي. ترسم مسار رحلته اليومية كلما ارتفع فوق مياه الهاوية نون عبر السماء؛ كي تحفظ الناموس الكوني من الفوضى.



- سميت مصر قديماً أرض النيل والماعت.
- هي عكس الفوضى أو العماء الذي خلق منه الكون، وشق منه الإله أتوم النور والسماء والأرض، وخلق الهواء والماعت، أي الحياة والنسق.
- هي أساس الحكم؛ ذلك أن الفرعون الإله ليس فقط الحاكم لدولة كميت، إنه المسؤول عن الكون بأسره، عن انتظام الكون، الفيضان، شروق الشمس وغروبها؛ فعلى الملك الإله دائماً أن يثبت أنه حائز للماعت، وإلا فقد الكون انتظامه، ومنها يكتسب شرعيته؛ حيث يظهر وهو يقدم القربان للآلهة من

أجل إثبات حقه في الحكم، والحفاظ على قوانين الكون
المجسدة في ماعت.

- وهي رمز الحقيقة والعدالة والاستقامة والقانون.
كان الوزير الأول في مصر القديمة يلقب (رئيس كل
المحاكم)، كما كان يلقب (كاهن ماعت) وكان يتكلم
بوحى منها، ويقسم باسمها كقاض، كما يقسم باسمها
الشهود، وقد ظهرت ماعت أحياناً معصوبة العينين،
حتى لا تفرق بين المتقاضين، وأحياناً تظهر بعينين
تنظران إلى (قائم الميزان) الذي تحمله بيدها.

الدولة... الملوك الآلهة

كان على المصري القديم أن يعمل داخل نظام
اجتماعي للتعاون، والمشاركة فيه أهمية لا تنطلق من
الاختيار، قدر ما تحددها الضرورة، فلا نهر بلا سدود،
ولا زراعة من دون نظام ري، ولا رى ولا زراعة بلا
تعاون ومشاركة في أدوات الإنتاج، ولا مجتمع نهرياً
زراعياً بلا إدارة مركزية. وكان من سمات النظام
السياسي في المجتمع المصري القديم أنه لم يكن خارج
مفهوم النسق، لقد وضع المصري القديم الملوك على
قمة النظام السياسي والاجتماعي، وشخص فيهم
مركزية الدولة، لإدارة أولى المجتمعات المركزية في
التاريخ، وعندما أصبح الملك مسئولاً عن ضبط
منظومة الري، تولى بطبيعة الأمور مسؤولية الضبط
الاجتماعي للبشر. القاطنين على الأرض، وكي يعطى
مشروعية للأمرين معاً، أصبح منوطاً بضبط النسق
الكوني الذي اعتقد المصريون القدماء أنهم جزء لا
يتجزأ منه، لهذا أحاطوا ملوكهم بصبغة القداسة.

هكذا أصبح الملوك آلهة مرتبطين ارتباطاً عضوياً
بالرؤية المصرية المادية التي تؤكد الطبيعة الأم.

النظام الأخلاقي

هبة البعث

ليست هناك هبة تقدم لشعب أحب الحياة،
وأعدت عليه الطبيعة الأم من وفرتها، من وعد أعظم
من استعادة الحياة ثانية بعد الموت، لكن شرط
الحصول على هذه الهبة أن يكون المرء صالحاً، لم
يرتكب في دنياه شروراً ولا آثاماً في حق نفسه كفرده، أو
في حق أقرانه في مجتمع قائم على التضامن والتعاون
والشراكة، أو في حق الآلهة التي خلقت العالم على ما
هو عليه من خيرات، وحق القائمين على رعاية
الناموس.

لقد وضعت الرؤية الأخلاقية القديمة المصري في
موقف اختيار بين ثنائية الخير والشر، ولم تكن
محايدة فسعت إلى رده عن ارتكاب الذنوب والشورور،
فرهنت هبة البعث والخلود بمن يكون مستقيماً في
حياته، ويحب الخير ويقوم بالعمل الصالح.

المحكمة الأوزيرية

يرأس محكمة العدل إله العالم الأخرى، الإله
أوزير، وهو جالس في عرشه المكلل بعلامات الحق،
وإلى جانبه يجلس القرفصاء اثنان وأربعون مارداً أطلق
عليهم (أكلة الدماء) (واسعي الخطي) (أكلة الظلال)

(الرؤوس الملتوية) (عين الذهب)، في يد كل منهم سيف يقتل به الخاطئ، وظيفتهم ملاحظة ما يظهر في كفتي



الميزان الذي يزن الحسنات والسيئات، بينما الإله أنوبيس يختبر لسان الميزان، وتظهر روح المتوفي في هيئة طائر برأس إنسان، وإلى

اليمين يقف تحوت ممسكاً في يديه لوحة الكتابة والقلم ليسجل نتيجة المحاكمة، وخلف تحوت تظهر الملتهمة (عميت) على هيئة حيوان مخيف له رأس تمساح، وبدن أسد، ومؤخرة فرس النهر.

يدخل المتوفي قاعة المحكمة يقوده الإله أنوبيس ليقف أمام أوزير فيلقى التحية على سيد الغرب، ويخبره أنه لم يرتكب ذنباً، ويطلب منحه مسكناً طيباً في حقول (إيارو).

ترنيمة إلى أوزيريس

(لك المجد يا أوزيريس، أيها الإله العظيم، يا ملك الأبدية وسيد الديمومة، من خلالك ينمو العالم ويخضر. في انتصاره. أنك لتقود في سياقك ذاك الذي يكون، وذاك الذي لم يكن بعد⁰¹⁰... "لك التجلة يا ملك الملوك، من رحم نوت قد حكمت العالم والعالم السفلى هب لي أن أبحر إلى تاتو كنفس حية، وإلى ابـتو ABTU كالفينق؛ وهب لي أن أدخل بوابات أرض العالم السفلى وأن أخرج منها دون ما إعاقة أو

(10) سير ولسن بـدج E.A. WALLIS BUDGE الديانة الفرعونية EGYPTION - دار منارات للنشر - عمان الأردن 1985 صفحة 155.

عرقلة، رجائي أن أُمْنَح أرغفة خبز في بيت البرودة،
وتقدمات من الطعام والشراب في أنو (هليوبوليس)،
ومنزلاً في أبد الآبدين في حقل القصب مزوداً بالقمح
والشعير⁽¹¹⁾، ثم أن المتوفى يتابع كلامه فيعدد الخطايا
التي لم يرتبها، ويختتم كلامه فيقول:

"أنا تقي، أنا صاف، أنا محوض⁽¹²⁾، أنا خالص⁽¹³⁾.

وسوف يوضح المتوفى أنه جاء إلى الموت وقلبه عار
من الخطيئة، فهو لم يظلم أحداً ولم يسلك طريق
الشر. كان رجلاً مستقيماً باراً، جاء إلى مدينة الخلود
بعد أن فعل الخير على الأرض، وهو الذي عاش حياته
متمسكاً بتعاليم الماعت، لأنه يعرف أنها الفضيلة التي
تفيد من يمارسها على الأرض من الميلاد إلى الوفاة،
وهي التي تدافع بقوة عن من يؤمن بها، في ذاك اليوم الذي
يقف فيه أمام أعضاء المحكمة الأوزيرية.

فيقول معلناً براءته من ارتكاب كل معصية أو
خطيئة (لم أذبح الناس... لم أسلب... لم أنهب
الطعام... لم أؤثر الخوف... لم أؤثر الصراع، لم يصدر
عني قول كاذب، ولم أسرق ما ليس لي، ولم أقتل نفساً
بريئة، ولم أزن امرأة أو أغتصبها، لم أشهد زوراً، ولم
أعبر عن أقوالي بغضب، لم أتنصت على إنسان...
إلخ...)، وينطوي اعتراف البراءة على مجموعات من
السلوك الفردي والاجتماعي والديني القويم.. ولهذا
سوف يؤكد المتوفى أنه حافظ على شروط الحياة التي

⁽¹¹⁾ المصدر السابق صفحة 156.

⁽¹²⁾ (محض فلان: سقاه لبناً خالصاً لا ماء فيه... معجم المعاني الجامع.

⁽¹³⁾ سير ولسن بدج E.A. WALLIS BUDGE الديانة الفرعونية EGYPTION
- RELIGION دار منارات للنشر - عمان الأردن 1985 صفحة 158.

قدمتها له الطبيعة الأم، فهو لم يلوث مياه النهر، ولم يمنع سير مياه (رى) في قناة، تروى أرض غيره، لم يعثب في طعام، لم يقدم رشوة لموظف.

وإذا كان رجلاً صالحاً قد منع نفسه من ارتكاب كل هذه الخطايا والشور، فهو أيضاً سوف يمارس كل هذه الفضائل مع الآلهة، فهو لم يتلفظ بأسمائها فيما ليس له معنى، ولم يلوث معابدها، أو يسرق قرابينها.

يضع أوزير ريشة الإلهة ماعت التي تمثل الحق والعدل، الجالسة في مقدمة المحاكمة الأخروية في كفة الميزان اليمنى، ثم يضع قلب المتوفى في الكفة اليسرى، فإذا كان سلوك المتوفى وحياته صالحاً، تنم عن رغبته في خلود يمضيه في حياة ناعمة هائلة وسط حقول البيلسان، واعياً بالمنظومة الكلية للقيم الفاضلة التي تتشكل حول ثنائية (الحق والحقيقة) والخير والشر، فقد استقام لسان الميزان، وسجل كاتب الآلهة الإله تحوت حكم المحكمة براءته، فيستعيد الميت قدرته على الحياة، ويمنح سكناً طيباً حيث يعيش سعيداً بلا شقاء ولا تعب في حقول ايارو التي هي الجنة البدئية التي صعد عليها أتوم من عالم الظلام و العماء القبلى⁽¹⁴⁾.

أما إذا ثقلت موازينه فسوف تحل عليه لعنة الفناء الكامل، وتلتهم الربة عميت قلبه، وتتغذى على أحشائه، ويأمر الإله أوزير الاثنين وأربعين قاضياً بقتله،

14 (أدولف أرمان A. Erman ديانة مصر- القديمة - ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر - د. محمد أنور شكرى - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997 صفحة - 178 - 4 سير ولسن بدج E.A. WALLIS BUDGE ال ديانة الفرعونية - EGYPTION RELIGION دار منارات للنشر - عمان الأردن 1985 صفحة - 161.

وتناول لحمه، وشرب دمه. في الشرائع المصرية القديمة كان الناس يعاملون على قدم المساواة، فهبة الحياة الأخروية في عالم ما بعد الموت لا تفرق بين غني وفقير، ولا بين نبيل ورجل من العامة، العمل الصالح هو شرط الحصول على الخلود.

إعلان البراءة (15)

ها أنا أجيء إليك، أجب الحقيقة وأطرد الإثم
إني لم أطف مكيال الحب أيتها اللبوة المزدوجة في السماء.
إني لم أصنع شيئاً معوجاً يا صاحبة (العيون النارية).
إني لم أسرق شيئاً من ثروة المعبد أيها اللهب في ختخت.
إني لم أغتصب طعاماً يا خمى (المطيح).
إني لم أذبح الثيران المقدسة يا كرتى (ينبوع النيل المزدوج).
ولم أسترق السمع يا هنش - أبيهو (السن المشع).
إني لم أرتكب الزنا، ولم أرتكب اللواط.
إني لم أخرب الأراضى المحروثة يا عم - سنف _ (أكل الأحشاء).
إني لم أذنس عرضي.
ولم أذع أحداً يبكي.
ولم يكل قلبي (من الندم) إني لم أسب أحداً يا عم - سنف (أكل
الدم).
إني لم أصم عن كلمات الصدق... ولم يكن صوتي عالياً.

(15) إعلان البراءة: تم جمعه بتصريف من مصادر عدة بمعرفة المؤلف.. ومنها جيمس هنرى بريستيد H.Breaste - فجر الضمير Dawn of conscience ترجمة: د. سليم حسن - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 2000 صفحات (274/273/272)

إني لم أتلفظ ألفاظاً بذينة يا أواتش - نسرت (ذو الشعلة القوية).
أحييك يا (هرا- ف- ها- ف) من وجهه وورائه... (أنا لم أتهم
زوراً).
أحييك يا تا- رت (القدم النارية) (إني لم أخرج عن طوري لأصبح
غاضباً)
أحييك يا نب - ماعت (سيد ماعت) (إني لم أحقق إلى الأشياء لأصنع
السوء).

أحييك يا نثمي (المتراجع)... إني لم أحرك فمي ضد أي إنسان.
لم تأخذني حدة الغضب.
إني لم أبعث الخوف، ولم أذك الشجار.
إني لم أسرع قلبي (أتصرف بغير اعتبار لائق).
أنا لم أفعل ما يغضب الآلهة.
وفمي لم يثرر بما ينبغي ألا يقال.
إني لم أعب في الذات الملكية.
أنا لم ولن ألوث المياه الجارية، أو أكرس قناة لمياه جارية.
إني لم أكن طماعاً... لم يكن صوتي عالياً فوق ما يجب.
ولم أكن متكبراً، ولم أتصرف بخطرسة
إني لم أصنع المحاباة ولا الإيثار.
إني ما ازددت ثراء إلا بوسائل ملكي الخاص.
إني لم ارتكب شيئاً تكرهه الآلهة.

الفصل الثاني وادم الرافدين

ملحمة التكوين البابلية

في عيد رأس السنة البابلية، والذي يوافق مطلع شهر نيسان (أبريل) يجرى الاحتفال بذكرى انتصار مردوخ على الهباء صاحب الجبروت، ويقوم كبير الكهنة بتلاوة ملحمة التكوين التي تقدم في طقس احتفالي على شكل درامي، يقول الكاهن الأكبر⁽¹⁶⁾: "في البدء لم يكن للأشياء أسماء، ولدت المياه الأولية بمعية عنصرين هما الماء العذب والماء المالح اللذان يمثلهما أبسو وتيامات، من هذين الجوهرين انبثقت آلهة "البانتايون"⁽¹⁷⁾ البابلي. فيما بعد أطاح الآلهة بأسلافهم، وقرر أبسو القضاء عليهم نهائيًا، لكن الإله الشاب "آيا" تمكن بقوة السحر من السيطرة على ميدان نفوذ أبسو، فقامت "تيامات" تطالب بالثأر،

16) مارجریت روتن - Marguerite RUTTEN تاريخ بابل - BABYLONE ترجمة : زينة عازار - ميشال ابي فاضل - منشورات عويدات - بيروت -باريس - الطبعة الثانية 1984صفحة125.

17) مجمع الأرباب عند البابليين واليونانيين.. المصدر السابق صفحة 126.

فأنجبت وحوشاً، واتخذت زوجاً جديداً هو "كينغو" وضعت بين يديه ألواح القدر، تملك الخوف الآلهة فانهمزموا، وحده "مردوخ" الذي قبل مجابهة الهباء "تيامات"، وكان هذا يعنى أن يصبح زعيم الآلهة الذين وضعوه في عدد من الاختبارات، مثل القدرة على الاختفاء، ثم الظهور من جديد، فلما نجح وضعوا بين يديه مقاليد الأمور.

مضى "مردوخ" حاملاً القوس والحربة والصاعقة والإعصار والشباك والرياح السبع وامتنطى مركبة العواصف التي تجرها أبالسة مجنحة تزفر ناراً. واحتدم القتال، فقامت تيامات بفك سلاسل وحوشها من ثعابين وحشية وكلاب وعقارب تلدغ بالسم، لكن "مردوخ" تمكن من إيقاع الربة تيامات في شباكه، وسلط على وجهها الرياح فدخلت جسدها، وهدتها فأجهز عليها بضربة لازب. وطوق الإله المنتصر جيش تيامات المهزوم، وجرى "كينغو" من ألواح القدر واستولى عليها، فأصبح سيد كل الأقدار.

آنئذ كان على عملية الخلق أن تبدأ، فقام مردوخ بتقسيم جسد الإله إلى قسمين فخلق السماء والأرض بكلمة فصل عناصرها ونظم العالم السماوى، ونظم سير الفلك. وبعد تكوين هيكل الكون (آ - شار - را) حيث سكن "أنو" و"انبليل" و"آيا" كون مردوخ.

عالم الإنسان: وكان الهدف النفعى من خلق الإنسان كما أشارت النصوص القديمة خدمة الآلهة. وأقام هيكله ومقامه الإلهى المسمى "أى - سا - جبل سماوى".

وكان الاحتفال السنوي الطقسي. بالعيد يبدأ بقيام كبير الكهنة بالاغتسال بماء الفرات، ثم يدخل قدس الاقداس ويتلو صلاة يشبه فيها بابل بعرش الإله، وبورصيا تاجه، والسموات الفسيحة أحشاؤه.

وفي الثالث من نيسان، يستدعى كبير الكهنة رجال الفن، ويقدم لهم الذهب والحجارة الكريمة من كنز مردوخ، والأرز والمن، فيقوم هؤلاء بصناعة تماثيلين صغيرين مرصعين بالحجارة الكريمة، يحمل أحدهما ثعباناً، والآخر عقرباً، وينصبان في الهيكل. في الرابع منه، تبدأ الصلوات والاحتفالات، حيث يتلو كبير الكهنة أمام مردوخ ملحمة التكوين الشهيرة.

في الخامس من نيسان، يقوم كبير الكهنة بتطهير الهيكل بواسطة التضحية بخروف يستخدم جسده الحيواني في مسح الهيكل كي يمتص جسده الرجس، ثم يرمى جثته في النهر، وهو طقس منتشر. يتم من خلاله القضاء على الشر، عبر امتصاص الحيوان للخطيئة وتحمله وزرها عن الإنسان الذي ارتكبها. وكان السيد المسيح يدعى (بالخروف)، أي حامل الخطيئة عن البشر.

وقد دونت شرائع حضارات وداى الرافدين القديمة منذ العهد السومري على آلاف من الرقم الطينية التي سجلت عليها عقود زواج وطلاق وتبن وميراث وقرارات محاكم، ومن أوائل التشريعات القانونية تشريعات "أوركاجينا"⁽¹⁸⁾ عام (2360 ق. م) أحد

(18) - Wilhiam H. Mcneill - Uean W. Senlar - شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم - الفصل الأول -مقارنة القوانين - ترجمة أسامة سراس - دار علماء الدين - دمشق - الطبعة الثانية 1993 صفحة 9.

ملوك أسرة لاجش، المتصلة بعفو عن مواطنين حكم عليهم بالسجن لعدم تمكنهم من دفع الضرائب، أو تخفيف عبودية العمل على المراكب، ومن مجموعات القوانين التي حفلت بها بلاد الرافدين.

مخطوطات أور - نامو: (2112 - 2095 ق.م)

(أور نمو) ملك أور وسومر وأكاد، مؤسس الأسرة الثالثة التي امتازت بإحياء الآداب السومرية، والأكادية، ويعود الفضل إليه في تقنين أول شريعة عرفتها البشرية⁽¹⁹⁾، وكان كمه في أواخر الحكم السومري، والذي قام بانسجام مع كلمة "أونو" الصادقة بإحقاق الحق والمساواة على الأرض بإصدار مجموعة من القوانين تضم (31 مادة قانونية) اهتمت بتحديد المكاييل والأوزان، وشؤون الأسرة. وعقوبات السرقة، والأخذ بمبدأ التعويض ووضع الشهود في أماكن مقدسة لاختبار صدقه من قبل القوى الإلهية فيه.

مخطوطة "لبت عشتار"

خامس ملوك سلالة (إيسن Esin) السومرية وأعظمتهم (1934-1823 ق.م) واشتهر بنزعة إصلاحية، ومن عظيم إنجازاته قيامه بتشريع القوانين، مدونا إياها على ألواح الطين المحفور، وتعتبر تشريعاته ثالث القوانين والشرائع العراقية القديمة في سياق التسلسل الزمني بعد تشريعات الملك أور -نمو وتشريعات مملكة أشنونا، وقد كانت قوانين لبت عشتار سابقة لقوانين حومورابي بأكثر من مائة وخمسين عاماً⁽²⁰⁾، ويذكر أن

19 (عبد الحكيم الذنون -التشريعات البابلية The Ancient law Babylon - دار علماء

الدين- دمشق - 1992 - صفحة 27.

20 (المصدر السابق صفحة 30.

شريعته كتبت على لوح كبير تتضمن عشرين عموداً يذكر فيها بأنه صاغها نزولاً على رغبة الآلهة. وتحتوي على ثلاثة أقسام رئيسة تشمل (المقدمة - النص - الخاتمة) (21)

أولاً - المقدمة :

يذكر فيها لبت عشتار "أن الآلهة قد منحتهم حكم بلاد سومر وأكاد ليوطد الأمن والرخاء لأهلها، وهو من أجل ذلك قد سن قوانينه التي حررت أبناء سومر وأكاد من العبودية التي فرضت عليهم قبله".

ثانياً - النص :

النص تالف في معظمه وقد استطاع العلماء استعادة 38 بنداً تدور حول شؤون الأراضي الزراعية والحدائق والعبيد، واعتماد مبدأ التعويض والعقاب المفروض (وأغلبه بالتعويض المناسب) جزاء السرقة أو إتلاف الأشجار، أو هرب العبيد، وتحريرهم، وعدم دفع الضرائب العقارية، وحقوق الأبناء، والنساء، وعقود الزواج، وحقوق البناء، وحقوق الزوج على الزوجة العاقر، وكيفية التصرف في هدايا الخطوبة، وحقوق الطرفين في حال فصل الخطوبة، وحقوق الورثة، واستئجار الدواب والتعويضات المطلوبة حال حدوث تلف جزئي في الثور المستأجر في عينه أو ذيله أو قرنه.

ثالثاً - الخاتمة :

وهي تالفة و جاء فيها "أنا لبت - عشتار بن إنليل" نزولاً عند كلمة أونو الصادقة جعلت سومر وأكاد

21 < S.N Ginsberg- H.L. Meek- J. Thephille - Albrecht Goetze - شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم - الفصل الثاني : النصوص الكاملة للشرايع - ترجمة أسامة سراس - دار علاء الدين - دمشق - الطبعة الثانية 1993 صفحة 157.

تمسك بدرب العدل، كما أني خضعت لإرادة إنليل،
وقمت بمحق الخصام والشقاق، وتحريم الدموع
والندب والوعويل..... وإحقاق الحق وإظهار الحقيقة،
وجلب السعادة لأهل سومر وأكاد.

مجموعة قوانين إشنويا⁽²²⁾:

حوالي (2000) ق.م. وتحوى ستين قانوناً، تضم
بنودها تحديداً لأسعار الشعير والسّمسم والزيت
والنحاس، وتفصيلاً لأجور النقل باستخدام عربات
تجرها الثيران، والقوارب، وعقوبات الإهمال، والسرقعة،
والقروض وأجور العمال الزراعيين، وحقوق العبيد
وواجباتهم، وعلاقات الزواج، وجرائم الوهن والحجز
والقتل، وقيمة بائنة العرس، والفصل في منازعات
الزواج والانفصال قبل وبعد الزواج، وحقوق الابناء،
وقواعد التخلي عنهم لآخرين، والودائع، وقوانين
الوراثة، وعقوبات الاعتداء على الآخرين، وقيم
التعويض عن إحداث عاهات بهم، كقطع رجل أو
إصبع أو فقه عين أو جده أنف.

شريعة حمورابي

تعد شريعة حمورابي ملك بابل الذي حكم في الفترة
بين عام (1792-1750 ق.م) من أقدم الشرائع، وهي إذا
كانت أول مجموعة شاملة من النصوص القانونية التي
تم اكتشافها في الشرق الأدنى القديم، إلا أنها قد تأثرت
بكل مجموعات القوانين والتشريعات التي ظهرت قبلها
بمئات السنين، والتي أشير إليها سابقاً.

(22) المصدر السابق صفحات من 148 إلى 156.

وقد دونت هذه القوانين في القرن السابع عشر ق. م على ثلاث كتل كبيرة من حجر الديوريت الأسود، وجمعت مع بعضها لتشكل نصباً مخروطياً في أعلاه نقش لإله الشمس وإله العدل "مردوك" جالس على عرشه يتلقى الولاء من حمورابي، الذي يوضح أن الإله أمره بأن يرشد الناس إلى الطريق المستقيم، وتحدث على لسانه بهذه القوانين؛ كي يحقق الحق والعدالة بين الناس، فهذه قوانين إلهية، تكتسب صفة القداسة، ومن ثم الإلزام.



ضمت اللوحة مائتين واثنين وثمانين قانوناً، تميزت فيها طبقة الأشراف عن العامة، بينما كانت عقوبات طبقة العبيد أشد غلظة، يكثر فيها حكم الإعدام. وتناولت القضاء والمعاملات التجارية وعقود الزراعة ورعاية الأغنام، وأجور العمال الزراعيين وإتلاف الممتلكات، وحقوق المحاربين والعبيد،

والأسرة، والمرأة والأطفال، وألزمت الزوجة بواجبات زوجها وبيتها وإذا شكيت لإهمالها حرمت من باننتها، وسمح لزوجها بالزواج بأخرى، وأن يلزمها بخدمته إن شاء.

تبتت تشريعات حمورابي مبدأ القصاص، وتغليظ العقوبات والتعويض في مواجهة الاعتداءات على النفس والمال ومصالح الدولة وإهانة الآلهة، وجرائم القتل، والإصابات، وشرعت عقوبة الإعدام لهتك العرض وخطف الأطفال وقطع الطريق على القوافل، واستحدثت مبدأ العين بالعين والسن بالسن والولد بالولد، إلا أنها اقتصررت في تطبيقه على أفراد الطبقات الدنيا دون الطبقة العليا؛ حيث قضت على الطبقة العليا بالتعويض المادي إذا اعتدى أحد منها على شخص من طبقة أقل منزلة.

مقدمة قوانین حمورابي⁽²³⁾

عندما خص "آنو" العظيم إله السماء ملك العالم السفلي وإنليل سيد السماء والأرض... وآلهة آخرين... بابل باسمها العلي، ووضعوها في موقع الصدارة في أنحاء العالم الأربعة... ناداني آنو وإنليل من أجل الشعب ورخائه باسم "حمورابي" أي الأمير الذي يخاف الله، وأمرني أن أقيم العدل في الأرض وأن أقتلع جذور الشر. والأشرار فلا يضطهد القوى الضعيف، وحتى أعلو كشمس فوق الرعية وحتى أهب الأرض نوراً على نور.

وتستمر المقدمة في نشيد يدور في جملة حول ثلاثة موضوعات:

23 (Wilhiam H. Mcneill -Jean W. Senlar) شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم. الفصل الأول - صفحة 17. ترجمة أسامة سرايا-- دار النشر- علاء الدين- دمشق- الطبعة الثانية 1993

الموضوع الأول: سجل حافل بإنجازات حمورابي الملك والبطل، والذي يجعل فيه حمورابي من نفسه (الأنا الملكي) موضع العالم بأجمعه.

الموضوع الثاني: يدور حول الأضحية والندور والصلوات التي يُبتهل بها إلى آلهة مدن بابل وسومر وأكاد.

الموضوع الثالث: الجانب الإلهي من حمورابي. يقول في المقدمة:

أنا حمورابي الراعى سسمى إنليل، الذي يجمع الوفرة إلى الكثرة،
والذي يُتم أمره من أجل نيبور⁽²⁴⁾.

أنا المحترم (الأمير) الذي يرعى معبد (إى-كور)
أنا الملك القادر الذي استرد إيريدو (أقصى مدينة تقع جنوب
سومر) الذي عصف بأركان (الكون) الأربعة والذي أخذ على عاتقه
حماية معبد (إى ساجيل) معبد (مردوخ) فى بابل.
أنا البذرة الملكية التى خلقها "سن" إله القمر واهب أور الخير
الوفير.

أنا الأمير المتواضع العابد، واهب الثروة الفياضة إلى معبد إله
القمر.

أنا الملك ذو السطوة المطيع لشمس.
أنا التنين بين الملوك الخادم المخلص لإلبابا.
أنا الذي أحاط معبد (إيميتو- رساج) إله إلبابا بالروائع
والعمران.

أنا الذى أتمت عدة عشتار العسكرية العظيمة.
أنا من أرضى نرجال.

(24) زوجة إله الشمس. المصدر السابق صفحة 18.

من وهب كوني المجد . من أفاض على مشلام .
أنا النور البري الجبار . أنا حبيب توت . أنا الذي أدخل البهجة
على قلب بورسيبا ، والذي زار أراضي دلبات ، وكدس الأرزاق فى العنابر
من أجل أوراش القدي .

أنا السيد الذي لا زينة له إلا الصولوجان والتاج اللذان وهبتهما له
"ماما" الإلهة الحكيمة .
أنا الحكم المنان الذي خص (إجش وجيرسو) بالكأ ومواقع
الماء .

أنا من يمسك برقاب الأعداء والمفضل لدى جميع من فى الأعلى
من الآلهة .

أنا الأمير النقى القلب الذي ينظر آداد إلى يديه المرفوعتين بالصلاة .
أنا الذي يرتب زينة معبد آداد .
أنا واهب الحياة لمدينة (آداب) و (شابر) وشعب مارى وهت .
أنا حامى بيت إيماخ (معبد الآلهة فى آداب) .
أنا الأول بين الملوك . . . أنا من أخضع سكان المدن إلى جانب
الفرات إذعانا لنبوءة داجان .

أنا راعى الشعب الذي تبهج أعماله إشتار .
أنا من ينير درب الحقيقة ويرشد الشعب إلى جادة الصواب .
أنا الأمير المحترم الغارق فى الصلوات للآلهة العظيمة .
أنا هو البذرة الملكية الخالدة والملك القوى إله شمس بابل الذى
يشرق الضياء على أرض سومر وأكاد .

أنا الملك الذي طبع أركان العالم الأربع . أنا ولى عشتار .
عندما أمرنى مردوخ أن أهيب العدل لشعب الأرض فيفوز بحكم

خير . . .

قمت بإحقاق الحق والعدل فى أرجاء الأرض، وقمت بإسعاد الشعب.

بعض مواد شريعة حمورابي (25):

شهادة الزور والادعاء الباطل

مادة 3: إذا شهد رجل فى جنابة، ولم يثبت أقواله، يقتل إن كانت الدعوى من الدرجة الأولى.

مادة 4: إذا شهد رجل فى دعوى محل مال أو حبوب يلقى للعقوبة نفسها إذا كانت شهادته كاذبة.

القضاء الفاسد

مادة 5: إذا نظر قاض فى دعوى، وأصدر حكماً وأثبتته على رقيم محتوم، ثم تراجع عنه، فعليه تحمل عقوبة تلك الدعوى، ويدفع اثني عشر مثلاً، ويزاح من منصبه، ولن يجلس للقضاء مرة أخرى.

السرقه

مادة 8: إذا سرق رجل ثوراً أو شاة أو حماراً أو خنزيراً أو قارباً يعود للإله أو للقصر، يدفع غرامة قدرها ثلاثون ضعفاً، وإذا كان يعود إلى قروى يرد عشرة أضعافه، وإذا عجز عن دفع التعويض فإنه يقتل.

مادة 11: إذا لم يقدم صاحب الملك الضائع الشهود المؤيدين لأقواله يقتل؛ لأنه مخادع ألقى بتقرير زائف.

مادة 14: إذا سرق رجل ابناً صغيراً لرجل آخر يقتل.

(25) (Albrecht Goetze - Theophile J. Meek- H.L.Ginsberg- S.N) .شريعة حمورابي وأصل التشريع فى الشرق القديم - الفصل الثانى : النصوص الكاملة للشرائع - ترجمة أسامة سراس - دار علاء الدين - دمشق - الطبعة الثانية 1993 من صفحة 95 إلى صفحة 114.

مادة 15: إذا سهل إنسان هروب عبد أو أمة من قصرٍ أو لقروى من البوابة الرئيسية للمدينة يُقتل.
مادة 16: إذا أخفى رجل في منزله عبداً أو أمة هارباً تعود إلى القصر، أو

إلى قروى ولم يظهرها حين نادى المنادي عليها يقتل مالك البيت.
مادة 18: إذا لم يعترف العبد الآبق باسم سيده، فعلى من يجده أن يدفع به إلى القصر حيث يتم التعرف على سيده فيعاد له.
مادة 19: لكن إن احتبس العبد في بيته ودوهم فوجد العبد في حوزته يقتل.

مادة 21: إذا تقب رجل بيتاً يُقتل أمام تلك الثغرة، ويدفن في الجدار.

مادة 22: إذا اقترف رجل سرقة وأمسك، يقتل.
مادة 23: إن لم يقبض على اللص فعلى المسروق أن يصرح بما فقده أمام إله، وعلى المدينة أو العمدة تعويض خسارته.

حقوق الجنود

مادة 26: إذا لم ينفذ جندي جوالٍ أو صياد سمك أمر أن ينطلق في مهمة لصالح الملك، واستأجر أجيراً، بدلاً عنه، يقتل ويحفظ بديله ببيته ويحتفظ به.

مادة 27: إذا حُمل الجندي أو المبعوث أسيراً أثناء تأدية الخدمة العسكرية لصالح الملك، وكان قد أعطى حقله وبستانه لشخص آخر بعد اختفائه ليؤدي التزاماته الإقطاعية،

وعلى المالك الجديد أن يرد الحقل والبستان لصاحبه الأول وإن عاد لمدينته، ويعود الجندي أو المبعوث لتأدية التزاماته الإقطاعية من جديد.

مادة 28: يعطى حقل وبستان الجندي أو المبعوث الذي حمل أسيراً أثناء تأدية الخدمة العسكرية لصالح الملك، إلى ابنه، على أن يؤدي التزامات والده الإقطاعية إذا كان قادراً على تأديه التزاماته تجاه الأرض.

مادة 33: إذا وافق رئيس أو عريف على تخلف جندي عن حملة الملك وأرسل أجيراً عوضاً عنه في حملة الملك، فإن هذا الرئيس أو العريف يعدم.

مادة 36: لا حقل ولا بستان ولا بيت الجندي قابل للبيع.
مادة 37: لو اشترى سيد حقلاً أو بستاناً أو بيتاً يخص جندياً أو مبعوثاً أو مقتطعاً، لكسر لوح العقد، وغرم بالمبلغ المدفوع مع إعادة ما اشتراه إلى الجندي.

حق التعامل على الملكية العقارية:

مادة 40: يحق لخادمة المعبد والتاجر وللمقطع الاستثنائي أن يبيع حقله وبستانه وبيته، على أن يأخذ الشاري على عاتقه الالتزامات الإقطاعية الواجبة على ما اشتراه.

المعاملات (الأطيان الزراعية - الإيجار - الإهمال التبوير)

مادة 43: إذا أكرى سيد حقلاً ولم يزرعه وأهمله، يدفع للمالكة حَباً بمقدار محصول الحقل المجاور له بالإضافة إلى أن عليه أن يضرب أرض الحقل الذي بوره بالماطوق) وهو معول ذو الرأسين (وبالمسهاد لتسفيد التربة ثم يعيده إلى صاحبه.

مادة 26: إذا لم يستلم سيد أجرة حقله سواء أكانت نصفاً أو ثلث المحصول، فعلى المستأجر والمالك أن يتقاسما الحبوب التي أعطاها الحقل حسب الإيجار.

المعاملات حول الديون ونسب الفوائد عليها

مادة 48: لو أن رجلاً استدان ثم أغرق الإله آداد حقله أو جرف السيل تربته، أو لم يسق الزرع لأن الماء كان شحيحاً، فلا يدفع الرجل تلك السنة حَباً لدائنه، وتشطب الشروط المكتوبة على لوحة ولا يدفع فائدة ذلك العام.

(أ) لو قدم تاجر حبوباً كقرض، يمكنه أن يأخذ 100 سيل من الحبوب فائدة على كل جور. أما إذا كان القرض فضة، فله أن يسترد سدس شيكل وست قمحات فائدة على كل شيكل من الفضة.
(ب)

(ج) لو استدان رجل حبوباً أو فضة، ولم يكن لديه مثلها عند السداد، يمكنه أن يعطى التاجر أى شيء يملكه أمام شهود فى أى وقت وكيف يشاء، وعلى التاجر ألا يرفض ذلك، بل عليه القبول.

(د) لو أعطى رجل آخر فضة شراكة في تجارة، فعليهما أن يقسما الأرباح أو الخسائر بشكل متناسب.

المعاملات المالية والرهن حول الأرض

مادة 59: إذا قطع رجل شجرة من بستان من دون موافقة صاحبه، دفع ثمنها فضة.

المعاملات التجارية: (من مادة 71 حتى مادة 109)

عقوبة السكر: (من مادة 110 حتى مادة 111)

مادة 110: إذا غادرت كاهنة الدير وفتحت حانة للخمر أو دخلتها لشرب الجعة تحرق.

خيانة الأمانة:

مادة 112: لو شغل رجل برحلة عمل، فسلم رجلاً فضة أو ذهباً أو حجارة كريمة أو أنوالاً وعهد بهم إليه أمانة على أن يردهم له في مكان التسليم، لكن الرجل لم يرد الأمانة بل أخذها، واحتفظ بها فعلى الرجل أن يعطى صاحب الأمانة خمسة أضعاف ما سلم له.

التعامل بالرهونات البشرية

مادة 114: لو لم يكن لرجل حق عند رجل آخر محلله حبوب أو فضة، ومع ذلك أخذ منه شخصاً رهينة، فعليه أن يدفع ثلاثمائة فضة على كل رهينة.

مادة 115: لو كان لرجل عند آخر دين فقام باحتباس شخص ما كرهينة، وحدث أن ماتت الرهينة ميتة طبيعية في محتبسها، فلا حق لأحد بالادعاء.

مادة 116: لو ماتت الرهينة من الضرب أو سوء المعاملة في بيت محتبسها، فعلى صاحب الرهينة أن يثبت ذلك ضده، فإن كانت الرهينة ابنه، يقتل ابن المحتبس، وإن كان عبده يدفع المحتبس ثلاثمائة فضة ويغرم أيضاً بكل ما اقترضه.

مادة 117: لو استحق سند الدفع فاضطر المدين أن يعرض زوجته أو ابنه أو ابنته، للبيع عبيداً، عليهم أن يعملوا في بيت من اشتراهم أو استعبدهم ثلاث سنوات، ثم يعتقهم في السنة الرابعة.

مادة 118: لو ارتهن عبد أو أمة، فبإمكان التاجر بيع العبد أن احتبس الرهن من دون إمكانية استرداده.

في حقوق الأمانة:

مادة 122: لو أراد أحد أن يعطي آخر فضة أو ذهباً أو أي شيء، فعليه أن يحضر. شهوداً ليبرم عقداً، ويعطيه الأمانة ليحفظها عنده.

مادة 123: ولو ائتمنه على شيء دون شهود أو عقد، ثم نازعه عليه، فلا يتخذ بحق المؤتمن أي إجراء قانوني.

الانتهام بالزور:

مادة 127: إذا اتهم رجل كاهنة الإينتوم أو زوجة رجل آخر ولم يثبت اتهامه، فإن الرجل يجلد أمام القضاة ويحلق نصف شعر رأسه.

قوانين الأسرة

المادة 128: إذا اتخذ رجل زوجة له، ولم يدون عقدها، فإن هذه المرأة ليست زوجة شرعية.

الزنا

مادة 129: لو ضبطت زوجة رجل تضاجع آخر، يربط الاثنان ويلقيان في النهر. إذا رغب الزوج العفو عنها، فللملك الحق في العفو عن المواطن الآخر.

مادة 131: لو اتهم رجل زوجته بالزنا من دون أن يضبطها متلبسة بالجرم، فعليها أن تقسم لبراءتها بحياة الإله، وهي طليقة تعود إلى بيتها.

المادة 134: إذا أسر رجل ولم يترك في بيته طعاماً كافياً ودخلت زوجته بيت رجل ثانٍ، فإن هذه المرأة لا ذنب لها.

المادة 141: إذا همت الزوجة بالانصراف، أو أحدثت شقاقاً أو تسببت في خراب بيت زوجها، أو غادرت بيتها الزوجي، وقال: "أنا أخرجها" فإنه يُخلى سبيلها للانصراف ولا يبذل لها شيئاً في مقابل صرفه لها، أما إذا قال "أنا لا أخرجها" فإنه يصبح جائزاً له التزوج بامرأة أخرى مع بقاء الأولى في بيت زوجها كخادمة.

مادة 142: إذا كرهت امرأة زوجها كرهاً شديداً إلى درجة قولها له: "لا تقربني" يستقصى. عن سجلها وماضيها في مجلس المدينة، فإذا كانت ربة بيت صالحه، يحق لها أن تأخذ مهرها وتغادر إلى بيت أبيها دونما ملامة.

مادة 143: أما إذا كانت ربة بيت غير صالحة، ومهملة بيتها وتحط من زوجها، فترمي المرأة في النهر.

* * * *

الفصل الثالث

اليهودية

التوراة

التوراة هي الكتاب المقدس لدى اليهود، وهي تعني "الشريعة" أو "القانون"، وتضم الأسفار الخمسة الأولى التي أنزلت على النبي موسى وهو في مصر، أي التشريعات والتعاليم التي أوحى بها الرب "يهوه" لنبيه موسى، والتي ينظم بواسطتها حياة شعب الله المختار، وقد تنوعت الصياغة القانونية للشرائع، فهي تنطوي على توصيات خلقية كالوصايا العشر. أو قواعد تخص طقوس العبادة وشروط إقامتها، ورجال الدين من الكهنة، وقواعد الطهارة، وقواعد ترتيب العمل وتنظيم المعاملات المدنية الخاصة بالعلاقات (الأسرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والقضائية)، كما تضم تشريعات زمنية تخضع للقانون الديني، ويحمل بعضها طابع الفتاوى العملية مثل سفر القضاة.

العهد

يمثل العهد بأرض الميعاد الذي قطعه "يهوه" رب إسرائيل لشعبه المختار، روح الشريعة اليهودية، وهو الشعب الذي اختاره من دون شعوب العالم وقبائلها، وميزه فوق الجميع، والذي ينص على أن الرب سيخرج بني إسرائيل من أرض مصر، وسوف يقودهم من أرض التيه في سيناء إلى أرض الميعاد. وفي المقابل يتعهد الشعب بطاعته والالتزام بشريعته وبوصاياها العشر. التي أنزلها على نبيه موسى على جبل سيناء، وهي التي ذكرت في مدونة الأخلاق والسلوك. (خروج 20:1-26).

ويلاحظ أن كلمة عهد، تبدو قريبة من معنى "عقد بين طرفين؛ بين الرب وشعبه".

مدونة السلوك والأخلاق

الوصية الأولى: "أنا هو الربُّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية". لا تكن لك آلهة أخرى أمامي" خروج (20:2.3)

الوصية الثانية: "لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهم ولا تعبدهم، لأني أنا الربُّ إلهك إله غيور... "خروج (4:20-5)

الوصية الثالثة: "لا تنطق باسم الربِّ إلهك باطلاً، لأنَّ الربَّ لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً" خروج (7:20).



الوصية الرابعة: أذكر يوم السبت لتقدسهُ. ستة أيام تعمل وتصنع جميع

عَمَلِكْ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبَتْ لِلرَّبِّ إِلَهَكَ. لَا تَصْنَعْ عَمَلًا مَا أَنْتَ وَإِنَّكَ وَإِبْنُكَ وَعَبْدُكَ وَأُمَّتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِي دَاخَلَ أَبْوَابَكَ. لِأَنَّ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. لِذَلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ. " خروج (1-8: 20).

الوصية الخامسة: " أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ ". خروج (20:12)

الوصية السادسة: " لَا تَقْتُلْ ". خروج (20:13)

الوصية السابعة: " لَا تَزْنِ ". خروج (20:14)

الوصية الثامنة: " لَا تَسْرِقْ ". خروج (20:15)

الوصية التاسعة: " لَا تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةً زُورٍ " خروج (20:16)

الوصية العاشرة: " لَا تَشْتَهَ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لَا تَشْتَهَ امْرَأَةً قَرِيبِكَ، وَلَا عَبْدَهُ، وَلَا أُمَّتَهُ، وَلَا ثَوْرَهُ، وَلَا حِمَارَهُ، وَلَا شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ. " خروج (20:17).

تابوت العهد

في واحدة من الهجرات التاريخية التي أخذت دافعا دينيا، أو ربما شكلا أسطوريا؛ حيث لا توجد آثار تاريخية ولا جغرافية تشير إلى وقائع حقيقية لزمان أو لآثار جغرافية لخروج بني إسرائيل من أرض مصر. عبر البحر الأحمر ثم صحراء سيناء- وهو أمر يصعب تفسيره علميا... في طريقهم لأرض الميعاد التي وعدهم بها الرب وراء نهر الأردن.

هذه الهجرة الجماعية كانت تستلزم قيادة قادرة على توحيد أعداد المهاجرين الضخمة للشعب

الإسرائيلي، والحفاظ عليها من الفوضى والانفراط وسط الصحراء؛ لهذا وضع الرب على رأس الزحف عهده الذي وعد به شعبه، وقد تمثل عهده هذا في تابوت صنع بناء على أمر الرب من خشب السنتط المِصرى، وغطى وبطن بصفائح الذهب النقي، "فِيصْنَعُونَ تَابُوتًا مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ، طُولُهُ ذِرَاعَانِ وَصَفٌّ، وَعَرْضُهُ ذِرَاعٌ وَصَفٌّ، وَإِرْتِفَاعُهُ ذِرَاعٌ وَصَفٌّ" (خروج 10-25)، وَضَعُ فِي التَّابُوتِ الشَّهَادَةَ الَّتِي أُعْطِيَكَ. خروج (25:16).

وقد ضم التابوت ثلاثة أنواع من الرموز المقدسة؛ الأولى تعبر عن الحياة، وكانتا وعاء المن، وعصا هارون التي أفرخت، والثانية الشرائع التي ضمت لوحى العهد اللذين نقش عليهما الرب بإصبعه الوصايا العشر، والثالثة كانت الأسفار الخمسة الأولى من كتاب التوراة الذي يضم الهوية الدينية أو التاريخ الأسطوري للعبرانيين هكذا أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب: "فَعِنْدَمَا كَمَلَ مُوسَى كِتَابَةَ كَلِمَاتِ هَذِهِ التَّوْرَةِ فِي كِتَابِ إِلَيَّ تَمَامَهَا، أَمَرَ مُوسَى اللَّوِيِّينَ حَامِلِي تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ قَائِلًا: "خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَةِ هَذَا وَضِعُوهُ بَجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ إِلَيْكُمْ، لِيَكُونَ هُنَاكَ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ. لِأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابِكُمْ الصَّهْلَةَ. هُوَذَا أَنَا بَعْدُ حَيٌّ مَعَكُمْ الْيَوْمَ، قَدْ صِرْتُمْ تَقَاوُمُونَ الرَّبَّ، فَكُمْ بِالْحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي!" ثنية (25-31:27)

أطلق على التابوت تابوت العهد، فالكتاب المقدس ولوحا الوصايا العشر، يشكلان الأساس المكتوب لعهد الرب "يهوه" مع موسى وشعب إسرائيل، والذي يتعهد الرب فيه بتخليص شعبه من العبودية في أرض مصر، أمام عهد الشعب بطاعة الرب، والإيمان به وبمجده وقوته. وكان الرب يجسد في التابوت فسمى أيضاً

بتابوت الرب، وأصبح المثلول أمام التابوت الذي يضم
 لوجي العهد والتوراة مرادفاً للمثلول أمام الرب "يهوه"
 فقد أعلن حضوره عندما بسط سحابة مجده على
 تابوت العهد الذي ضم شريعته، كما غطت السحابة
 خيمة الاجتماع بين الرب وموسى

" ثُمَّ غَطَّتِ السَّحَابَةُ خَيْمَةَ الْاجْتِمَاعِ وَمَلَأَ نَهَاءُ الرَّبِّ
 الْمَسْكَنَ . فَلَمْ يَقْدِرْ مُوسَى أَنْ يَدْخُلَ خَيْمَةَ الْاجْتِمَاعِ ، لِأَنَّ
 السَّحَابَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِمْ وَنَهَاءُ الرَّبِّ مَلَأَ الْمَسْكَنَ . وَعِنْدَ ارْتِفَاعِ
 السَّحَابَةِ عَنِ الْمَسْكَنِ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَرْتَجِلُونَ فِي جَمِيعِ
 رِحَالِهِمْ . وَإِنْ لَمْ تَرْتَفِعِ السَّحَابَةُ لَا يَرْتَجِلُونَ إِلَى يَوْمِ ارْتِفَاعِهَا ،
 لِأَنَّ سَحَابَةَ الرَّبِّ كَانَتْ عَلَى الْمَسْكَنِ نَهَارًا . وَكَانَتْ فِيهَا نَارٌ لَيْلًا
 أَمَامَ عَيْنَيْ كُلِّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ فِي جَمِيعِ رِحَالِهِمْ . " خروج (38:40
 34-) وَأَنَا اجْتَمِعُ بِكَ هُنَاكَ وَأَتَكَلَّمُ مَعَكَ ، مِنْ عَلَى الْغِطَاءِ مِنْ
 بَيْنِ الْكُرُوبِيِّينَ الَّذِينَ عَلَى تَابُوتِ الشَّهَادَةِ ، بِكُلِّ مَا أَوْصَيْكَ بِهِ
 إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ " خروج (22:25) .

ومن الواضح أن الشريعة التي وضعها بنو إسرائيل في
 تابوت عهده كانت حبل خلاصهم من أرض العبودية،
 وأيضا حبل خلاصهم السلوكي والأخلاقي، وكان تابوت
 الرب يسير أمامهم دليلاً وراية مقدسة تقود الشعب
 من أرض العبودية وصحراء التيه إلى أرض الميعاد.
 "وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَبْلَئِلَ: «اصْنَعْ لَكَ بُوقَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ .
 مَسْحُورَيْنِ تَعْمَلُهُمَا ، فَيَكُونَانِ لَكَ لِمِنَادَاةِ الْجَمَاعَةِ وَلَا لِرْتِحَالِ
 الْمَحَلَّاتِ . فَإِذَا ضَرَبُوا بِهِمَا يَجْتَمِعُ إِلَيْكَ كُلُّ الْجَمَاعَةِ إِلَى بَابِ
 خَيْمَةِ الْاجْتِمَاعِ . وَإِذَا ضَرَبُوا بِوَاحِدٍ يَجْتَمِعُ إِلَيْكَ الرَّؤَسَاءُ ،
 رُؤُوسُ الْوَفِّ إِسْرَائِيلَ . وَإِذَا ضَرَبْتَهُ هَتَافًا يَرْتَجِلُ الْمَحَلَّاتُ
 النَّازِلَةُ إِلَى الشَّرْقِ . وَإِذَا ضَرَبْتَهُ هَتَافًا ثَانِيَةً تَرْتَجِلُ الْمَحَلَّاتُ
 النَّازِلَةُ إِلَى الْجَنُوبِ . هَتَافًا يَضْرِبُونَ لِرِحَالِهِمْ . وَأَمَّا عِنْدَمَا

تَجْمَعُونَ الْجَمَاعَةَ فَتَضْرِبُونَ وَلَا تَهْتَفُونَ. وَيَبْنُو هَارُونَ الْكَهَنَةَ
بَضْرِبُونَ بِالْأَبْوَابِ. فَتَكُونُ لَكُمْ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً فِي أَجْيَالِكُمْ. وَإِذَا
ذَهَبْتُمْ إِلَى حَرْبٍ فِي أَرْضِكُمْ عَلَى عَدُوِّ بَضْرِبِكُمْ، تَهْتَفُونَ
بِالْأَبْوَابِ، فَتَذْكُرُونَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلَهُكُمْ، وَتَخْلَصُونَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ.
وَفِي يَوْمٍ فَرَحِكُمْ، وَفِي أَعْيَادِكُمْ وَرُؤُوسِ شُهُورِكُمْ، تَضْرِبُونَ
بِالْأَبْوَابِ عَلَى مَخْرَفَاتِكُمْ وَذَبَائِحِ سَلَامَتِكُمْ، فَتَكُونُ لَكُمْ تَذْكَارًا
أَمَامَ إِلَهُكُمْ. اَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ» . عدد (10: 2-10).

"... رَازِقَتِ السَّحَابَةُ عَنْ مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ. فَارْتَحَلَ
بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي رُحُلَاتِهِمْ مِنْ بَرِّيَّةِ سِينَاءَ... " عدد (10: 11-12).
فَارْتَحَلُوا مِنْ جَبَلِ الرَّبِّ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَتَأْبَوْتُ
عَهْدَ الرَّبِّ رَاحِلَ أَمَامَهُمْ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لَيْلَتَسٍ لَهُمْ مَنَزِلًا.
وَكَانَتْ سَحَابَةٌ يَلْبَسُهَا الرَّبُّ عَلَيْهِمْ نَهَارًا فِي أَرْضِجَالِهِمْ مِنَ الْهَيْجَلَةِ.
وَعِنْدَ ارْتِحَالِ التَّابُوتِ كَانَ مُوسَى يَقُولُ: «قُمْ يَا رَبِّ، فَلْتَسِدِّدْ
أَعْدَاؤَكَ وَيَهْرُبْ مُبْغِضُوكَ مِنْ أَمَامِكَ». وَعِنْدَ حُلُولِهِ كَانَ يَقُولُ:
«ارْجِعْ يَا رَبُّ إِلَى رِبَوَاتِ الْوَفِّ إِسْرَائِيلَ» عدد (10: 36-33).

وكان مصدر حماية للشعب، وحضوره وسيلة لتبديد
الإعداء، فعند ارتحال التابوت كان موسى يقول: "قُمْ يَا رَبِّ،
فَلْتَسِدِّدْ أَعْدَاؤَكَ وَيَهْرُبْ مُبْغِضُوكَ مِنْ أَمَامِكَ" عدد (10:35). وكما حدث
أمام أريحا، فهو "رب الجنود" عدد (10:35).

وقد أنشد الشعب تقديراً للرب وتابوته: "الرَّبُّ فِي
هَيْكَلِ قُدْسِهِ. الرَّبُّ فِي السَّمَاءِ كُرْسِيِّهِ. عَيْنَاهُ تَنْظُرَانِ.
أَجْفَانُهُ تَمْتَحِنُ بَنِي آدَمَ." مزامير (11: 4) ...

"ارْفَعْنَ أَيَّتُهَا الْأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ، وَارْتَفِعْنَ أَيَّتُهَا
الْأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتِ، فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ " مزامير
... (24:7) " صَعِدَ اللَّهُ بِهَتَافٍ، الرَّبُّ بِصَوْتِ الصُّورِ.

رَنَّمُوا لِلَّهِ، رَنَّمُوا. رَنَّمُوا لِمَلِكِنَا، رَنَّمُوا. لِأَنَّ اللَّهَ مَلِكُ
الْأَرْضِ كُلِّهَا، رَنَّمُوا قَصِيدَةً. مَلِكُ اللَّهِ عَلَى الْأُمَّمِ. اللَّهُ
جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ قُدْسِهِ "مزَامِير (47:5.8).

"قُمْ يَا رَبُّ إِلَى رَاحَتِكَ، أَنْتَ وَتَابُوتُ عِزِّكَ."
مزَامِير (8:132)

الشيعة الشفوية

المشناه والجمارا

- دونت الشريعة اليهودية الشفوية عام 200 م، وعرفت باسم المشناه، وتنقسم إلى ستة أقسام وهي:
- ذيرائيم زراعيم (البذور): وهو يبحث في صلوات العبادة، ثم الأعشار والتشريعات الزراعية.
- موئيه (مواعيد): يختص بالأعياد والصيام وأحكام يوم شبّات وتقاليد.
- ناشيم (نساء): قوانين النساء زواجاً وطلاقاً، واجباتهن وصلاتهن وما يتعلق بهن، وحلف اليمين والنذور وعلاقة اليهود بالوثنيين، أي بمن عداهم من الأمم.
- نزيكين (أضرار): القوانين المدنية والجنائية، والتشريع المدني والجزائي، وطرق عمل المحاكم وحلف الأيمان. الأضرار والتعويض عنها.
- كوداشيم (المقدسات): المقدسات، شعائر التضحية والقرايين والهيكل وأحكام الصوم وسائر الطقوس الدينية.
- طهروت (الطهارة): يختص بأحكام الطهارة الشعائرية والنجاسة.

التلمود

التوراة هي الشريعة المكتوبة الواردة في أسفار موسى الخمسة، بينما الشريعة الشفوية، هي شروحات الحاخامات التي سجلت في التلمود؛ فالتلمود هو تدوين نقاشات الحاخامات حول القضايا الفقهية، والوعظية، والمصدر الأساسي لتشريع الحاخامات في الدعاوى القانونية، وهو مركب من المشناه التي هي النسخة الأولى المكتوبة من الشريعة التي كانت تتناقل شفويًا، والجمارا هي التي تتناول كتاب المشناه بالبحث والدراسة.

* * * *

الفصل الرابع

اليونان

من السكون الأبدى

إلى صيرورة التغير الأزلي

بينما كانت الرؤية المصرية القديمة للعلاقة بالكون والوجود رؤية عضوية، تستند على ما قدمته لهم الطبيعة التي ولدوا وترعرعوا فيها، وماتوا على ضفافها، والتي تشير إلى "ديمومة أزلية" لا تتغير ولا تتبدل؛ رؤية لم تخذلهم لآلاف السنين، وذلك قبل أن تبرغ على الشاطئ المقابل لوادي النيل للبحر المتوسط رؤية ومفهوم جديدين.

الكون عقل كبير وفي تغير مستمر

كانت رؤية اليوناني إلى العالم مختلفة، إذ قال هيرقليطس الذي جعل من النار أصل الوجود: "أنظر أن

العالم لم يصنعه إله ولا إنسان. ولكنه كان منذ الأزل، وهو كائن وسيكون نارا حية أزلية" (26)♦♦.

وهو من قال "أنت لا تنزل النهر نفسه مرتين"، فالأشياء في تبدل وتغير دائمين، وإن التغير هو سنة الكون والوجود. من تلك اللحظة شقت الإنسانية طريقا جديدا للمعرفة.

أعطى هيرقليطس للعالم أول تصور عن "الروحوس" الذي جعل الكون عقلاً كبيراً، وجعل العالم يكتسب مفاهيمه الكونية من مفاهيم تستند على تجربة الإنسان، ووعيه بالعالم. وقد أعطى ذلك الفكر الفلسفي المادى معانى جوهرية انعكست على المجتمعات الإنسانية التي نشأت فيها، وطرائق تفكيرها؛ ومن ثم تناولها لحياتها اليومية..

وسعى سقراط الذي كان يؤمن بتعاليم الطبيعة وما يستخلص منها من تجربة، إلى الارتقاء بالمفهوم عبر تجاوز المعرفة الظاهرية إلى ما أسماه "المعرفة الحقيقية"، وذلك "بالارتفاع عن مستوى العالم الطبيعي الواقع في إطار العالم المادى، إلى بلوغ الفلسفة التي تبحث عن السبب النهائى للأشياء" (27)، وقد ترجم ذلك في مقولته الشهيرة: "اعرف نفسك".

وأوضح فلاسفة اليونان أن العلم الطبيعي يشمل مفاهيم عديدة، ومنها الحركة التي تعتبر عنصراً

26 (ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- اليونان- المجلد الثاني -الجزء الأول -ترجمة محمد بدران - دار الجيل - بيروت 1988 صفحة 264 .
27) أرنست باركر- ERNEST BARKER النظرية السياسية عند اليونان GREEK THERORY - POLITICAL ترجمة : لويس أسكندر - د. محمد سليم سالم- مؤسسة سجل العرب- سلسلة الألف كتاب 1966 صفحة 160.

جوهرياً في عالم الواقع. وقال أرسطو إن الحركة هي أهم خصائص الوجود المادي، وهي تتحرك من حال القابلية والتهيؤ، إلى حال التحقق، أي من حال القوة إلى الفعل، ولكن أعظم ما قاله أيضاً: "أن الحركة تمثّل بحركة الكون والفساد، بمعنى التكوين والتحلل. ولماذا لا يفعل وحضارات وممالك الشرق تنهار أمام عينيه.

العلية والسببية

شكل أرسطو قيمة مهمة وكبيرة في تاريخ الفكر الإنساني؛ فعلى يديه بلغت الفلسفة اليونانية أوج نضجها، وأصبحت الرؤى الفلسفية المادية الأولى التي أسسها الفلاسفة اليونانيون الأوائل عن مبدأ الكون وأصل الوجود، ومنظومة القيم الأخلاقية الإنسانية، كالخير والحق أو العدالة والحرية، ومفهوم الدولة، مبادئ أساسية للمجتمعات الإنسانية في الدولة والديمقراطية والقانون، والتي كانت محض تصورات جزئية هنا وهناك، لقد تحولت الفلسفة على يديه إلى صور كلية تتسم بالتناسق وتقترب من الكمال. "وإليه يعود الفضل في تنظيم الفلسفة اليونانية وإيجاد المنطق"⁽²⁸⁾.

وتضمنت فلسفته "البحث عن العلل والمبادئ الأولى، وطرح ظاهرة التحول والصيرورة في الكون، وكان لديه ما يسمى بالفلسفة الأولى؛ وتشمل الطبيعة والرياضيات والإلهيات، التي تبحث أسس الأشياء ومبادئها وعلتها الأولى، وهدفها "المعرفة النظرية"، وهناك العلوم العملية التي تبحث في الأخلاق وتدير

28 (دكتور محمد الجبر الفكر الفلسفي والأخلاقي عند اليونان - دار دمشق 1994 -
صفحة 53.

أفعال الإنسان من حيث هو إنسان، والسياسة من حيث إن الإنسان عضو في المجتمع"⁽²⁹⁾.

ورأى أرسطو "أن الحركة تستلزم الزمان، وأن لكل حركة علة تكون سبباً، ولا يمكن أن تكون هناك علة لذاتها، وإلا كان علة ومعلولاً في الوقت ذاته، وهذا ما لا يجوز. والعلل تشمل عدلاً مادياً وعدلاً صورية وعدلاً فاعلة وعدلاً غائبة، والنوع الأول هو المادة أو الهولي، والثاني هو الصورة أو ماهية الشيء، والثالث هو الفاعل الذي يعيد الشيء إلى ما هو عليه"⁽³⁰⁾.

الفكر الفلسفي الأخلاقي

كون اليونانيون القدماء مفاهيمهم عن الوجود من خلال طرح أسئلة مهمة حول الكون المادي والميتافيزيقي، دون أن يتجاهلوا أهمية البحث عن حياة تتسم بالفضيلة، وكيفية التوصل إلى حياة سعيدة، فاضلة. لقد سعى الأخلاقيون القدامى إلى إيجاد أساس دائم أو "طبيعة" دائمة لكل ما يعترى العالم الأخلاقي لحياة الإنسان ونظمه من تغير؛ لهذا لم يبحثوا عن عالم روحى، بل عن قانون يعتبر أساساً لكل الشرائع. وعلى هذا أصبح الخروج عن القيم الأخلاقية، ومجتمع الفضيلة لا يرتبط بالدين، ولا شأن له بالآلهة، ولكنه يحدث عند تحطيم الشرائع والقوانين أو الخروج عليها، فأوجدت بذلك نظاماً طبيعياً بشرياً في الأخلاق والسياسة.

29 (المصدر السابق صفحة 55.

30 (المصدر السابق صفحات 64/65.

الخير

في الماعت لم يكن الملوك موضوع المحاكمة الأوزيرية، حتى عندما مزق إله الصحراء "ست" الإله أوزير، وفرق جثته في أقاليم مصر. الأربعة عشر. من أجل الاستيلاء على عرشه، وخلع عين ابن أخيه حور، لم يعاقب؛ لأن له وجوداً مادياً لا يمكن إزالته (الصحراء). وإذا كانت نصوص إعلان البراءة تمثل نموذج العمل الصالح للإنسان المصري العادي، فإن أفلاطون آلى على نفسه أن يجيب عن سؤال: "من هو الرجل الصالح؟ وما السبيل إلى صنعه، وفي رسالته عن السياسة جعل بحثه في تنظيم دولة مثالية، وشروط ماهية الدولة الصالحة، والسبيل إلى صنعها، وهكذا ارتفع بفلسفة الأخلاق من سلوك المواطن العادي إلى مجال علم السياسة، واختار الجمهورية كي تكون النموذج المناسب للدولة التي تعمل من أجل خير مواطنها، ثم حماها بسياس "القانون"، وجعل من (الخير) الغاية الأسمى للإنسان، وقيمة كلية يجب أن تكون غاية كل سلوك، وغاية خالدة لا يأتي عليها تبدل ولا يدركها سوى العقل، ثم يأتي العمل بعد الخير؛ وهنا تظهر قيمة فعل الخير، "الإله الصانع قد صنع العالم على أفضل ما يكون". وفي رسالته في الميثافيزيقا، يؤسس أفلاطون وحدة الأشياء في مفهوم أو فضيلة "الخير"؛ وتبحث رسالته في فلسفة الأخلاق في فضائل النفس البشرية وكمالها واتحادها في العدالة⁽³¹⁾.

31) أرنست باركر - ERNEST BARKER النظرية السياسية عند اليونان GREEK

POLITICAL THEORY ترجمة: لويس أسكندر - د. محمد سليم سالم - مؤسسة

سجل العرب - سلسلة الألف كتاب 1966 - صفحة 255.

وفي نقده للمفاهيم الأفلاطونية، رأى أرسطو أن أفلاطون "يقصر. فعل الفلسفة على البحث عن ماهية المثل، أى بمعنى آخر العلل الصورية، وهو بذلك يقصر. عن إدراك طبيعة الموجودات- في العالم الحقيقي - أو تأويلها"⁽³²⁾؛ مما يصعب على الإنسان إدراكه، وبالتالي فهي بعيدة عن الإنسان ذاته. لقد جعل أرسطو من الطبيعة البشرية محور بحثه؛ ولهذا أعاد النظر في الخير بوصفه قيمة مرتبطة بالواقع الاجتماعي، ورفض تأكيد "علية" الخير، أى أنها قيمة ميتافيزيقية مفارقة، بعد أن رأى أن أحكام الخير متغيرة مع تغير الزمان والظروف والمكان.

العدالة

بدأ الفلاسفة اليونانيون في سلوك الطريق نحو بلورة مفهوم منطقي للعدالة، ارتبط في البداية بمفهوم القوة. وفي القرن الخامس قبل الميلاد، ذكر على لسان أكسينوفان في رؤية يجيزها مفهوم المجتمع العبودي القائم على تمييز السلالات والفوارق الطبقية، "في الحرب يفوز المنتصر. بكل شيء فهذا حقه، ويخسر. المهزوم كل شيء وهذا هو الحق"⁽³³⁾، فعلى الضعيف أن يخضع للقوى؛ فالواقع قد أوضح دائماً أن الأقوى هو من يفرض إرادته، وفي قوته تعبير عن كونه الأفضل، ولكونه المتميز يكون له الحق في أن يفكر في مصلحته الخاصة وقد استمر هذا المفهوم في صور عديدة تكرر مفهوم التمييز، فقال: "كيف للحكيم باعتباره

32) د محمد الجبر الفكر الفلسفي والأخلاقي عند اليونان - دار دمشق 1994 - صفحة 55.

33) ول ديوارنت WILL DURANT قصة الحضارة المجدد الثاني - الجزء الأول - صفحة 93.

الإنسان الكامل أن يخدم أو يضحي بنفسه، ويهتم بغيره من ناس أقل منه قدراً" (34).

في البداية عرّف يولمارخوس العدالة بأنها "منفعة الغير" أو فن منح الخير للأصدقاء والشر. للأعداء، لكن تراسيماخوس Thrasymachus أعطى تعريفاً آخر فالعدالة "مصلحة الأقوى، وبعبارة أخرى (أن الحق مع القوة) ذلك أن المنطق يجعل سلطة الحكومة في أن تضع القوانين التي تكون في مصلحتها" (35) والطبيعة هي حكم القوة وليست حكم الحق، فالحق والعدل هو ما تسنه أو تقرره القوة (السلطة) وفق ما ترى فيه مصلحتها، ويقترّب كالليكس Callicles من ذلك بقوله "إن العدالة الطبيعية هي من حق الرجل القوي، وأن العدالة القانونية هو حاجز يقيمه الضعفاء لحماية أنفسهم... ولكن إذا قبلنا جدلاً بمنطق تراسيماخوس Thrasymachus فسوف يتعين أن يصبح مفهوم العدالة ليس سوى إرضاء الحاكم، أي أنها تصبح (منفعة الغير) في تصور يبدو أكثر دهاء ورسانة، تكون العدالة طاعة السلطان، أو إرضاء النفس حيثما وجد إلى ذلك سبيلاً، لكن مذهب القوة تهاوى أمام فلسفة الأخلاق؛ ذلك أن أفلاطون رفض المبدأ بإجماله عندما بحث في مفهوم العدالة من حيث وظيفتها، حيث

34 (الدكتور محمد الجبر الفكر الفلسفي والأخلاقي عند اليونان - دار دمشق 1994 - صفحة 34.

35 (إرنست باركر - ERNEST BARKER النظرية السياسية عند اليونان GREEK POLITICAL THEORY ترجمة لويس أسكندر - د. محمد سليم سالم- مؤسسة سجل العرب -سلسلة الألف كتاب 1966 - صفحة 273 - 271 .

ينتقل من مبدأ الوظيفة الخاصة إلى مبدأ الفضيلة أو الامتياز⁽³⁶⁾.

يرى أفلاطون "أن العدالة مرادفة للفضيلة، أنها ممارسة الفضيلة الثامة"⁽³⁷⁾. وقد اعتبر أرسطو أن "العدالة" من الفضائل الكبرى، والتي تعنى "تلك الملكة التي تحمل الإنسان على صنع ما هو حق، وعلى تكلف العدالة في أفعاله وطلبها إلى الأبد، بينما الظلم هو تلك الملكة التي تحمل الإنسان على فعل الباطل وطلبه أبداً"⁽³⁸⁾.

المنطق الأرسطي وعلم اللغة.

يعد المنطق الأرسطي أحد أهم العلوم التي بلغت بها الإنسانية شأنًا كبيراً في المعرفة، وقد رفض أرسطو أن يجعل من المنطق علماً بين العلوم، لكن هذا لم يقلل مطلقاً من شأن علم المنطق، وقد عرفه بأنه "آلة النظر في الوجود بهدف إدراك الحقائق". أو أنه "الآلة التي تعصم الذهن عن الوقوع في الخطأ"⁽³⁹⁾. وقد تمكن أرسطو من الارتقاء بالجدل القديم لدى الفلاسفة، والذي كان كثيراً ما يتحول إلى جدال عقيم، وسفسطة، لا تهتم بالحق والحقيقة قدر ما تهتم بتبيان وجهات نظر مبنية على الهوى والمصالح والدفاع عنها، إلى بحث منظم في القضايا. واستخدم المنطق بوصفه الآلة التي يستخدمها العقل في التفكير، ومن البديهي أنه كلما كان التفكير يستخدم أصول المنطق، أصبح التفكير أكثر اقتراباً من الحقيقة والمعرفة الحقة والإدراك السليم.

36 (المرجع السابق صفحات 275 / 273 / 269/270.

37 (الدكتور محمد الجبر -الفكر الفلسفي والأخلاقي عند اليونان - دار دمشق 1994 - صفحة 108.

38 المصدر السابق صفحة 107.

39 المصدر السابق صفحة 58.

ويتكون علم المنطق من عمليات تتضمن تحويل عمليات تحليلات واستدلالات إلى أقيسة، والقياس إلى عبارات وحدود، وكانت المقولات التي حددها أرسطو من أعظم التصنيفات الكلية في علم المنطق التي بلغها العقل الإنساني والتي تعم أنحاء الوجود. وكان للمنطق الأرسطي أثر كبير على اللغة، وقواعدها؛ فالعبارة تتشكل من جملة، والجملة تتكون من موضوع وفعل، أو انفعال، أو كم، أو كيف، أو مكان، أو زمان، إلخ. كان هذا يعني ثورة في أسس التفكير السليم.

المقولات: صنف أرسطو الكليات إلى عشر. مقولات هي على التوالي:

الجوهر (إنسان/جماد /كائن/إلخ) // الفعل
/الانفعال /الكم / الكيف /الصفة /الإضافة /
المكان/الزمان /الوضع /الملك .

الجوهر.. (الموضوع): عرف الجوهر بأنه الشيء القابل لجميع المقولات الأخرى.

المحمول: عرف بأنه المقولات المضافة أو المحمولات على الجوهر.

عالم مغاير من المفاهيم

خلال تطور نظر الحضارة اليونانية إلى الكون وعالم الوجود البشري في مجالات الفلسفة والعلوم، بلورت عدد من المفاهيم التي ستعكس تباينات مخالفة بشكل عميق للحضارات والرؤى التي سبقتها، وأهم هذه المفاهيم:

أولاً: اضمحلال تأثير الآلهة والدين

من أهم العوامل التي ساهمت في تكوين الوعي اليوناني الفكر الفلسفي الطبيعي، الذي أظهر "أن التفكير الفلسفي يوضح أن بعض ظواهر الطبيعة كالبرق والرعد ليست لها علاقة بمسألة الآلهة، بل هي عبارة عن ظواهر يمكن إرجاعها إلى علل طبيعية يتصورها العقل، وبهذا ينهدم الجسر الذي كان سائدا لدى اليونان من خلال الإيمان الذي أقيم بين الإله والإنسان"⁽⁴⁰⁾. وقد رجحت فلسفة الأيونيين الأوائل التي مثلت بواكير الفلسفة الإغريقية الأساس المادي للحياة، "حتى أنهم بدأوا منذ أيام طاليس (585 ق.م) في بحثهم عن المشاكل المادية للحياة، أن يروا أن العالم الطبيعي مكون من عناصر عرضة للتغير، ولهذا أخذوا يبحثون عن جوهر يكون المادة الأصلية التي منها تتكون أصل العناصر، وانتهوا إلى إطلاق أسم الطبيعة على هذا الجوهر الأصلي الواحد"⁽⁴¹⁾، فكان لدى البعض الماء والبعض الآخر التراب أو الهواء أو النار، ونظر إلى الكون من خلال رؤية تعود مرجعيتها إلى عالم الطبيعة، ومركزها مكان وزمان لا يترك موضعاً للآلهة.

لقد تخلت عن التحليق في السماء إلى النظر في عالم الواقع اليومي لحياة البشر، وطبائع النفس البشرية. وعلى الرغم من اتجاه الفيثاغورية إلى التجريد مع

40) ول ديورانت - قصة الحضارة- ترجمة محمد بدران - المجلد الثاني -الجزء الأول - القاهرة ص322.

41) أرنست باركر- ERNEST BARKER النظرية السياسية عند اليونان GREEK POLITICAL THEORY: ترجمة : لويس أسكندر - د. محمد سليم سالم- مؤسسة سجل العرب -سلسلة الألف كتاب 1966 - ص93.

نظرية الأعداد فإنها جعلت الأعداد ذات أساس مادي. أما العقل لدى أناكساجوراس فقد ظل ضمن التصور المادي. لقد نما الفكر اليوناني وتطور من دون مرجعية تستند إلى نوازع دينية، بل نظر إلى كون ذي نشأة مادية، وإلى إنسان له في ذلك الكون وجود منفصل ومستقل. وأنكر أرسطو وجود العناية الإلهية، "ذلك أن الوجود الإنساني وجود خاضع لفعل المصادفة"⁽⁴²⁾

ومنذ القرن السادس قبل الميلاد، انفصلت السياسة والشرائع والآداب والبحوث، واحدة بعد أخرى من السلطة الدينية، وبدأت الفلسفة تفسر العالم والإنسان، جسده وروحه، تفسيراً مستنداً إلى أسس طبيعية، ووضع العلم قوانينه الأولى الجريئة⁽⁴³⁾. والتي أرجع الظواهر الطبيعية كالبرق والرعد إلى علل طبيعية يتصورها العقل، لا علاقة لها بمسألة الآلهة، ونتج عن هذا هدم لمفهوم "الإيمان" الذي كان الجسر. القائم بين الإنسان والآلهة. وبعد أن أصبح النظر العقلي القائم على مفهوم السببية مدخلاً لفهم الظواهر الطبيعية، لقد اتخذت الفلسفة اليونانية منذ البداية موقفاً مادياً يقلل من شأن الدين، ومنذ أكسينوفان كافحت ضد التقاليد الدينية، ونجحت في هدم "الخرافة" مستندة إلى ما أسمته الحس والإدراك السليم.

مع الفلسفة الذرية "ديمقريطس" (460-371 ق.م)
تحول الفكر الفلسفي الطبيعي ضد المفاهيم الدينية

(42) لوسيف: تاريخ الفلسفة القديمة - موسكو - عن الدكتور محمد الجبر الفكر الفلسفي والأخلاقي عند اليونان - دار دمشق 1994 - صفحة 24.
(43) المصدر السابق صفحة 426.

الأسطورية القديمة، وبخاصة ضد تدخل قوى غيبية خارج إطار عالم واقعي يسير وفق تصورات ميكانيكية، ورفض وجود عالم سفلي يضم الموتى أو الشياطين الذي كان يتحلى بوجود أصيل في الأساطير اليونانية القديمة، واعتبر عالماً خيالياً ووهيمياً يصلح للدراما والشعر.

وفي المقابل، أصبح العقل المدخل الوحيد للنظر إلى العالم. فبحثوا كنه الأشياء وعلل العالم الطبيعي الذي يحيط بهم، وطرحوا علاقة الإنسان بالطبيعة على بساط البحث، وتساءلوا عن خواص المادة في الفضاء فاكتشفوا علم "الهندسة"، وعن خواص الكلام فأبدعوا علم "المنطق"، وجرى جدال واسع عميق حول الأنظمة السياسية التي أنشأها البشر، وطرحوا أسئلة عن طبيعة الدولة وخواصها وعلاقة الفرد بالدولة، فأبدعوا علوم "السياسة"، فكانت النتيجة نظاماً سياسية ليس بها ملوك آلهة، ولا حتى ملوك يحكمون بنظرية الحق الإلهي أو قوى ما وراء الطبيعة.

ثانياً: الطبيعة تمثل الأساس المادى للحياة

كانت الطبيعة لدى الفلاسفة اليونانيين الأوائل تمثل الأساس المادى للحياة، يقول أنتيفون السفسطائي في رسالته "عن الحق": "الحياة والموت كلاهما من اختصاص الطبيعة، والناس يحصلون على مقومات الحياة من الأشياء التي تفيدهم ويسرون نحو الموت إذا اتخذوا أوضاعاً تضرهم"⁽⁴⁴⁾.

44 (أرنست باركر - ERNEST BARKER النظرية السياسية عند اليونان GREEK POLITICAL THEORY - ترجمة: لويس أسكندر - د. محمد سليم سالم - مؤسسة سجل العرب - سلسلة الألف كتاب 1966 - صفحة 154).

وفي مبحثه حول النفس يقول أرسطو "إن جميع الأفعال النفسية في الأجسام الحية متعلقة بالجسم وجزء من العلم الطبيعي؛ فالنفس نار وشيء حار، والتصوير الثاني أن العلاقة بين النفس والبدن علاقة قوية، وبالتالي لا توجد نفس مفارقة فهي صورة، والصورة لا توجد مفارقة للهيولي"⁽⁴⁵⁾.

ثالثاً: قيمة المواطن في الأنساق القيمية

تشكل اليوناني ولديه شعور بقيمته كفرد، "فكان هذا الشرط الأول لنمو الفكر السياسي في بلاد اليونان"⁽⁴⁶⁾. حيث كل إنسان يوزن بما يستحق من قيمة، وأن حقوقه بوصفه مواطناً حرّاً تجعله يمارس نصيبه من النفوذ في الحياة العامة، وهو ما لم يكن موجوداً في الحكومات المطلقة، حيث ليس ثمة وزن إلا للحاكم المطلق وتمكنت الفلسفة اليونانية من إدراك التناقض بين الفرد والدولة، وخلال هذا الطريق الشاق الذي كان يهدف إلى نظام سياسي، غاياته المنفعة العامة للمواطن، وخلق الانسجام بين المواطن الحر والسلطة، لعب الجدل والمنطق والحوار القائم على تقدير القيمة الجوهرية للعقل الإنساني في المعرفة والوعي بالعالم دوراً جوهرياً، تمكن عبره الفكر السياسي الإغريقي من بلورة مفاهيم كلية لا زالت صالحة وتعمل حتى اليوم، حول قيم جوهرية مثل الحرية والعدالة ومبدأ المساواة بين البشر،

45 (الدكتور محمد الجبر الفكر الفلسفي والأخلاقي عند اليونان - دار دمشق 1994 - صفحة 69.

46 (ارنست باركر - ERNEST BARKER النظرية السياسية عند اليونان GREEK POLITICAL THEORY - ترجمة : لويس أسكندر - د. محمد سليم سالم - مؤسسة سجل العرب - سلسلة الألف كتاب 1966 - صفحة 23/ 22.

والارتفاع بقيمة القانون ليصبح فوق الدولة، وليكون السياج الذي يحمى الأفراد من طغيان واستبداد ملوك ورؤساء يفضلون مصالحهم ومنافعهم على مصالح شعوبهم.

رابعاً: النظام السياسي انعكاس للمبادئ السابقين

كانت علاقة الدولة اليونانية بالآلهة "لا تحيد عن مبدأ سيادة الشعب ومجتمع الأحرار من الناس الذين يشكلون فيما بينهم وحدة اجتماعية بحكم أو بواقع الطبيعة"⁽⁴⁷⁾، وهيراقليطس هو من قال إن الآلهة لها موقف محايد من الخير والشر. ولهذا انحصر الدين في عبادة آلهة تعترف بها الدولة، من دون أن تكون لذلك علاقة تذكر بالحياة الاجتماعية والسياسية للإغريق والرومان. وقد حدد الفكر اليوناني هدف الدولة في اصطلاحها برفاهية مواطنيها.

خامساً: ارتفاع شأن القانون

عندما تحرر الفكر اليوناني من الثقل الغيبي الذي أصبح عقيماً، مخلفاً وراءه التصورات الدينية، وامتدنيا الطبيعية وعالم الواقع كمرجعية جديدة، فلا آلهة ولا عالم آخروي، ولا بعث بعد الموت ولا حساب على عمل الإنسان في حياته الدنيوية من قبل قوى تقع خارج العالم الواقعي الملموس؛ ولهذا أصبح الحساب والجزاء دنيوياً، أى يتم أثناء الحياة. ومن هنا ارتفع شأن القانون وأهميته إلى درجة أصبحت المرجعية المجردة لمؤسسات الحكم، وهو اجتماعي، أى أن القوى التي

(47) المرجع السابق - ص55.

تقوم بالجزاء هي مؤسسات اجتماعية. ولهذا أصبحت مؤسسة القضاء ذات طابع خاص.

مع ظهور مجالس نيابية منتخبة، حدث تطور مهم في إرساء دعائم حكومة المدينة الديمقراطية، التي تأسست على تقدير وتثمين الفاعلية الإنسانية والعقل البشري، في إدارة تتمتع بفضائل الحكمة والعدالة واحترام الذات الإنسانية.

وكان من الطبيعي أن يرى مجتمع المدينة الديمقراطية الأثينية أن للبشر قدرة وسلطة إصدار القوانين وتعديلها عند الحاجة، وأصبحت أثينا (الدولة . المدينة) المركز الرئيس لهذا التطور. وبعد أن وضعت أول مجموعة قوانين في أثينا عام 621 ق.م. جرى تطويرها عام 590 ق.م، على يد صولون المشرع وهو أحد المشرعين الذين اقترن نشاطهم بحركة الإصلاح (اليوناني) وأجرى إصلاحات في النظم القانونية والسياسية، فألغى الديون على الفقراء نتيجة الرهن، وحاول أن يمتلك الفلاحون مزارعهم، وألغى معظم القوانين الجائرة، واستبدل بها مجموعة قوانين أكثر عدلاً. وسعى إلى المساواة الاجتماعية، وقد دون القانون بسن مجموعة من القواعد بمثابة إرشاد لموظفي الدولة، ليؤسس بذلك مشروعاً للدستور.

ومن أفكاره العظيمة أنه وضع موظفي الدولة أمام محكمة شعبية، (هيليايا) تضم ألوفاً من القضاة، مهمتها مراجعة سلوك أي موظف في نهاية خدمته، وكان أفقر مواطن يستطيع أن يأخذ مكانه بين القضاة. وبهذا وضع سولون في يد الشعب سيادة الحكم القضائي، أي أنه قد أقام ضمناً صرح السيادة الشعبية،

أو الديمقراطية بالمعنى اللغوي الأصيل للكلمة (حكم الشعب)⁽⁴⁸⁾. وكان القاضي في المفهوم اليوناني أكثر من مواطن، فهو ليس بخادم للجماعة، أو منفذ لقراراتها، أو خاضع لرقابتها، أو قابل للعزل بإرادتها.

لقد كان للقانون في الفكر اليوناني تقدير يضرب جذوره في صلب الحياة الاجتماعية للأفراد، فهو "جماع الأخلاق؛ مدنية أو فردية على السواء... كل منافع الحضارة- هي هبات من القانون الذي يعترف له المجتمع بالسيادة"⁽⁴⁹⁾، وهيراقليطس من قال في وقت مبكر "إن الناس يجب أن يدافعوا عن قانونهم، كما يدافعون عن أسوار مدينتهم"⁽⁵⁰⁾.

العلاقة بين المواطن والدولة في ظل القانون

كرس القانون علاقة بين الأفراد والدولة لا تقوم على خضوع المواطن لحاكم أو طاغية تدفعه أهواؤه لجعل مصالحه فوق مصلحة المجموع؛ أو تلحق حماقته أو غبائه الضرر الجسيم بسيادة الدولة، فالقانون هو السياج الذي يحمي الأفراد، ويجعلهم سواسية، وهو القوة التي تستطيع بها الدولة تحقيق تماسك المجتمع وبقائه، وقد عرفه هيرودت بأنه "السيد"، أما أفلاطون فكان يرى أن المواطنين هم (عبيد) القانون، فالقانون هو القوة التي تحقق بها الدولة تماسك المجتمع؛ وهو لهذا السبب يكون صاحب السيادة"⁽⁵¹⁾.

(48) المصدر السابق صفحة 90.

(49) المصدر السابق 77.

(50) المصدر السابق صفحة 101.

(51) المصدر السابق صفحة 76.

وقد أورد أفلاطون في محاوره "كريتون": "أن الأثينيين عند اجتماعهم في الساحة العامة أصحاب سيادة تحت قبة السماء، ولكنهم كانوا أيضاً يعترفون بسيادة القوانين. القانون إذن هو المادة الروحية المشتركة في المجتمع"⁽⁵²⁾.

سادسا - الدستور:

الدستور لدى أرسطو هو الدولة، وهو ليس أسلوب ترتيب وظائف سياسية، ولكنه "أسلوب حياة" وهو أكثر من هيكل تشريعي؛ إنه روح أخلاقية. وقد وضع أرسطو مبدأ "أن صاحب السيادة على الحكم القضائي هو صاحب السيادة على الدستور"، وإذا كان سولون قد وضع القضاء في يد الشعب، فإنه يكون بذلك قد أقام ضمنا صرح السيادة الشعبية"⁽⁵³⁾.

سابعا - الديمقراطية اليونانية:

رأى اليوناني القديم أن لذاته كياناً منفصلاً في وجود لا تتحكم فيه آلهة، الأمر الذي منحه منذ البواكير الأولى مفهوم الوعي بالحرية الذاتية، ذاك الذي لم يتوفر لدى المصريين القدماء، المدمجين في نسق كوني منتظم بين العدالة والخير والوفرة، ولأن اليونانيين الأحرار بلغوا شأناً أصبح فيه للأفراد كيان مستقل عن الدولة، يجمعهم ترابط فيما بينهم يعد الأساس الذي تتشكل على أساسه الدولة. فقد كان انخراط المواطن اليوناني في الشؤون العامة له حضور واسع، فلدى العائلة الإغريقية كان بهو الاجتماعات الرسمية هو نفسه مكان النار المقدسة"⁽⁵⁴⁾، "ومارس اليونانيون

52 (المصدر السابق صفحة 77.

53 (المصدر السابق صفحة 90.

54 (المصدر السابق صفحة 54.

حياتهم السياسية والفكرية في الخلاء الطلق "للدولة المدنية"، فكان الناس يتقابلون ويتبادلون الأحاديث في الأسواق والمنتديات والملاعب الرياضية التي تحولت إلى منتدى سياسى عام يدور في أرجائه النقاش الفكرى والسياسى، فإذا ما التقى الناس في المجامع السياسية فكأنهم ينهون نقاشاً بدأوه سابقاً. في هذا الواقع، وجدت المثل العليا للديمقراطية والمساواة وحرية الفكر والكلام⁽⁵⁵⁾.

ومن هذا الواقع، بلور اليونانيون مفهوم مصطلح "الديمقراطية" الذي وهبته الحضارة اليونانية للجنس البشرى، وهو الذي يعنى حكم الشعب. يقول ثوكيديدس في الكتاب الثانى: "إن حكومتنا ليست صورة من حكومات جيراننا، وتدريبنا العسكرى يختلف عن تدريب خصومنا، ونحن نختلف عن الدول الأخرى فى أننا لا نعتبر الرجل الذي ينأى بنفسه عن الحياة العامة رجلاً هادئاً بل نعتبره عديم النفع".

* * * *

(55) المصدر السابق صفحة 42.

الفصل الخامس

روما

الأسطورة والتاريخ

دمار طروادة⁰⁵⁶

في واحدة من الهجرات المتوالية التي شكلت تاريخ أوروبا، شهد بحر إيجه والمتوسط في القرن الثاني عشر. قبل الميلاد خروجاً مهيناً ومذلاً لمن تبقى من العشائر الطروادية المحاصرة في معقل جبل أيدا، وعندما أرسل المحاصرون إلى الإغريق يطلبون السلام، ظناً منهم بأن اليونانيين سوف يتركون لمن بقي من أبناء طروادة مكاناً للعيش في بلادهم التي أحرقت عن بكرة أبيها وسويت بالتراب، بعد أن أعملوا في شعبها ذبحاً وتقتيلاً، لكن المنتصر. رفض السماح للطرواديين الذين نجوا من المذابح البقاء في مدينتهم، وعندما طلب

56) نجيب إبراهيم طراد تاريخ الرومان . مكتبة الغد 1997 صفحة 18/17.

الأمير إينياس السلام، وافقوا شرط الرحيل النهائي وإلى الأبد من أرض الآباء. وتحت قوس العار والمذلة لم يغادر البقية الباقية بلادهم إلا قبل أن يزيل الإغريق معالم المدينة من على ظهر الوجود، وكأنهم يؤسسون بذلك السلوك الذي سوف تتخذ منه روما سياستها تجاه العالم القديم فيما بعد، ويدفع ثمنه شعوب البحر المتوسط كافة.

غادر الطرواديون عبر البحر إلى مكدونيا، ومنها إلى صقلية؛ حيث ظلت السفن تبخر بهم في عالم مجهول. وفي لاتيوم الواقعة على نهر التير في شبه الجزيرة الإيطالية، استقر المقام بالسفن الهاربة من الجحيم الإغريقي، وكانت تلك الأراضي تسكنها مجموعة من القبائل القوطية اللاتينية التي شقت طريقها من شرق آسيا إلى جنوب أوروبا والمعروفة باللاتين. وعندما التقى الأمير إينياس وقومه مع قبائل اللاتين المستقرة في المنطقة، وبدلاً من اختيار الحرب والصراع، تحالف الطرفان، فخبرة الطرواديين التي حصلوا عليها من الحرب التي انتهت بدمارهم كانت قادرة على إدارة سياسية حكيمة

* * * *

نشأة روما

تحكى الأساطير عن خروج الأمير إينياس Aeneas ابن أفروديت - Aphrodite - فينوس Venus من طروادة المحترقة، وقدمه إلى إيطاليا حامل معه آلهة مدينة برام Praim أي طروادة، ومعه صورها المقدسة، بعد أن قاسى أهوالاً في البلاد التي مر بها،

واستقراره على ضفاف نهر التير، وتزوج الأمير إينياس من لافينا Lavinia ابنة لاتينس ملك لاتيوم، وتقول القصة إنه بعد ثمانية أجيال من هذا الزواج جلس نمتور Numitor أحد أحفادهما على عرش ألب لنجا حاضرة لاتيوم. لكن رجلاً يدعى أمليوس Amulius اغتصب منه العرش وأخرجه من المدينة، وأراد أن يقضي على أسرة إينياس كلها، فقتل جميع أبناءه الذكور، وأرغم ابنته الوحيدة ريا سلفيا Rhea Silvia أن تصبح كاهنة لفستا Vesta، وأن تترهب وتقسم أن تظل عذراء حتى الممات. ولكن ريا رقدت يوماً على شاطئ مجرى ماء، (وفتحت صدرها لتتلقى النسيم، واستغرقت في النوم، وأسر جمالها قلب الإله مارس Mars فحملت منه بتوأمين، فلما وضعتهما أمر أمليوس بإغراقهما في النهر، فوضعتهما فوق رمس، وأشفت عليهما الأمواج فحملتهما إلى البر، وأرضعتهما ذئبة (Lupa) أو (في رواية أخرى) زوجة راع تدعى أكا لارنتيا Acca Larentia وكانت تلقب بالذئبة، فلما شب رومولوس Romulus وريموس Remus قتلا أمليوس، وأعادا نمتور إلى العرش، وسارا تحدهما قوة الشباب وعزيمته لكي ينشئا لهما مملكة على تلال روما (57).

بقيام إله الحرب مارس على طريقة آلهة الأوليمب بمضاجعة ريا سلفيا، أصبح التوأمين رومولوس وريموس أنصاف آلهة، وأسبغ عليهم سمات القداسة.

57 (ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- الحضارة الرومانية- المجلد الثالث- الجزء الأول -ترجمة محمد بدران -دار الجيل-بيروت 1988 صفحة- 27 نجيب إبراهيم طراد تاريخ الرومان . مكتبة الغد 1997 صفحة18.

ووفقاً للأسطورة؛ في عام 753 ق.م أسس الأخوان اللذان ينتميان إلى سلالة الأمير "إينياس" أمير طروادة، حَوْلَ مخاضة بنهر التير، مدينة أطلق عليها رومولوس اسمه؛ فسميت (روما)

(كان موقع المدينة على بعد عشرين ميلاً من شاطئ البحر، وكان ملتقى طريقي التجارة، ولم يكن ملائماً للتجارة البحرية، وتقول الرواية إن المهاجرين عبروا نهر التير واستوطنوا سفوح التلال المجاورة وشيدوا الفاتيكان Vatican والجانكيولوم Janiculum، ثم تحالفت القبائل الثلاث: اللاتين والسبينيون والتسكان التي استوطنت التلال وأنشأت بينها اتحاداً يسمى السبتيميوم نشأت من خلاله وعلى مهل مدينة روما)⁽⁵⁸⁾.

الآباء المؤسسون (مجلس الشيوخ)

"عندما بدأ رومولوس بناء روما اختار مائة من رؤساء العشائر في قبيلته، ليعينوه على تشييد روما، وليكون منهم مجلس شيوخها، وسمى كل واحد منهم الأب (باتر) أي المؤسس أو الشيخ الجليل، كانوا ينتمون إلى قبائل المنلي Manlii، والفلييري Valerii، والإميلي Aemaelii، والكرنيلي Dorenlii، والفابيي Fabii، والهوراشي Horatii، والكودي Claudii، والليولي Lulii. وطوال خمسة قرون ظلت هذه القبائل تمد روما بالقواد العسكريين والقناصل والقضاة.

وتحولت زعامة العشائر الزراعية إلى سيطرة سياسية. وعندما انتهى رومولوس من بناء روما، أحصى.

58 (ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- الحضارة الرومانية- المجلد الثالث -الجزء الأول -ترجمة محمد بدران -دار الجيل-بيروت 1988 صفحة28.

قومه فكانوا ثلاثة آلاف رجل وثلاثمائة فارس، قسمهم إلى ثلاثة أقسام متساوية، وأقام على كل قسم رئيساً، وقسم كل قسم إلى عشرة فرق، ولكل فرقة قائداً، وقسم أرض روما ثلاثة أقسام غير متساوية، خصص قسماً منها لخدمة الدين، وآخر لنفقة الملك، والباقي وهو القسم الأكبر أعطاه للشعب، وقسم الشعب إلى نبلاء وعوام، وخص النبلاء بالمناصب العالية. أما العوام فقد سمح لهم بأن يختاروا مولى من النبلاء يتولى شؤونهم ويحيطهم برعايته، وشكل رومولوس مجلساً عالياً مؤلفاً من مائة عضو كي يعاونوه على تشييد المدينة، وإدارة شؤونها الخارجية⁽⁵⁹⁾.

عندما انضمت القبائل الثلاثة الأولى بعضها إلى البعض تكون من رؤساء عشائرها مجلس شيوخ يتألف من ثلاثمائة عضو. لم يكونوا رجال نعيم أو ترف، فكثيراً ما كانوا يمسكون بأيديهم الفأس والمحراث، ويعيشون على أبسط الطعام، ويرتدون ملابسهم من غزل بيوتهم، كان العامة يصفون كل ما يتصل بهم بأنه من الطراز الأول أو الطبقة الأولى (Classiscus)⁽⁶⁰⁾. هكذا تشكل مجلس الآباء "الشيوخ" الروماني، الذي سيشكل اسمه حتى اللحظة الراهنة مفهوم السيادة، وأساس السلطة التشريعية في العالم.

"كان أكثر رجال روما ليس لهم نساء، فطلب من عشائر الصابنين والعشائر المجاورة أن يعطوه بناتهم. فرفضوا فقام بخطف بناتهم، وزوج رجاله بهن عنوة، وبعد صراع طويل قبل الصابنين الأمر. وأعطاهم

(59) نجيب إبراهيم طراد تاريخ الرومان . مكتبة الغد 1997 صفحة 24/25.
(60) المصدر السابق صفحة 46/47.

رومولوس حقوق المواطنة ووضع (طاطيس) ملك الصابنين ملكاً بجواره على حكم روما، وقد حكما معا لخمسة أعوام كاملة في اتحاد تام، حتى قتل طاليس واستتب الأمر لرومولوس⁽⁶¹⁾.

"وفي العام السابع والثلاثين من تأسيس روما، وأثناء عرض الملك رومولوس لجيشه أحاط الآباء به من كل جانب وقتلوه، وأشاعوا أن الآلهة نقلته إلى السماء في مركبة ذهبية⁽⁶²⁾. لقد قتل مجلس الآباء (الشيوخ)، الملك بدعوى ميوله الديكتاتورية، كما حدث فيما بعد مع يوليوس قيصر. في بداية عصر الإمبراطورية. وكان مقتل رومولوس تأسيساً نهائياً لنظام سياسي قائم على ديمقراطية النخبة أو السلالات الشريفة، أو الأعراق النبيلة. وأمام الشعب الذي كان يحب ملكه، ادعى حكماء مجلس "الشيوخ" تغطيه لعملية الاغتيال، أنه صعد إلى السماء في عربة نارية، وأصبح هو الآخر مثل الأمير "إينياس" يسكن السماء كإله بين الآلهة، يعكف الشعب على عبادته.

روما الملكية⁽⁶³⁾

بعد مصرع رومولوس، قام مجلس الشيوخ بانتخاب ملك يخلفه على عرش روما، حكم بعده ستة ملوك، يتميزون بالحكمة والشجاعة والحرص على توسع روما وتوطيد قوتها ورفعتها، بعقد تحالفات مع العشائر المجاورة.

61 (المصدر السابق صفحات (32 - 26).

62 (المصدر السابق صفحة 32.

63 (المصدر السابق الباب الأول - ملوك روما.

وشهد عهد الملك الرابع "طاركزينس بركسس" فترة اضطرابات وثورات شعبية طالبت بتحقيق قدر أكبر من العدالة بين الرومانيين، فأضاف طاركزينس بركسس مائة عضو لمجلس الآباء.

في أثناء فترة الملكية السادسة (534-587 ق.م) قام الملك "سرفيوس طليوس" باستمالة العوام والفقراء بتوزيع مساحات من الأراضي على الفقراء، وقام بإحصاء الشعب الروماني، وأعاد تقسيمه إلى عدد من الطبقات، على أساسها جرى توزيع ضرائب الحرب، طبقاً لثروات كل طبقة، وأعاد تقسيم الفرق العسكرية، وفي مقابل تحمل الطبقات الثرية القدر الرئيس من الضرائب، وتوفير الجهد العسكري، جعل ثقل الأصوات الانتخابية يتناسب مع ثراء تلك الطبقات، فأصبح ثقل الفقراء الانتخابي ضعيفاً للغاية، ثم قام سرفيوس بإعطاء حقوق المواطنة الرومانية للعبيد من أسرى الحرب الذين كانت تعج بهم روما.

الجمهورية الرومانية

استمر حكم الملوك في الفترة من (753-510 ق.م)، وكان آخر الملوك طاركونيس العاتي (534 - 510 ق.م) طاغية وفاسداً، جرى خلعه من قبل مجلس الآباء "الشيوخ" بموافقة الجيش، وقام مجلس الشيوخ بإعلان الجمهورية، وانتخاب قنصلين لهما سلطة الملوك، على أن يتم انتخاب قنصلين غيرهما كل عام، ولا يسمح للقنصلين المنتخبين بالتجديد إلا بعد عشرة أعوام.

سلطة الشعب

كان القنصلان الأولان بوتس وكلاوتنس متعادلين في السلطان، كلاهما رقيب على الآخر ومنافسا له،

وعندما استقال القنصل الثاني من منصبه، اختير بدلا منه بيليوس فاليريوس Publius Valirius الذي لقب فيما بعد ببليكولا Publicola أي (صديق الشعب) فقد تقدم إلى الجمعية بعدة قوانين ظلت القواعد الأساسية في دستور روما، وهي:

- أن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجوز قتله دون محاكمة.
- كل من يحاول أن يتولى منصبا عاما من غير رضا الشعب يعاقب بالإعدام.
- كل مواطن يحكم أحد الحكام بإعدامه أو جلده يحق له أن يعرض الأمر على الجمعية.
- إذا أراد القنصل دخول الجمعية، فعليه أن يفصل رأس البلطة عن مقبضها ويخفضها، في إشارة إلى سيادة الشعب.
- أن عقوبة الإعدام وقت السلم من حق الشعب وحده⁽⁶⁴⁾.

الهيكل الطبقي

تشكل الهيكل الطبقي البطريركي للجمهورية الرومانية من عدة طبقات تم تشريعها بما يؤسس على بنية التمايز والفوارق عبر الأعراق التي تأسست عليها مدينة روما، وحق الانتخاب الذي أدار نظامها الملكي والجمهورى، وفيما بعد الإمبراطورى وأكدته، الشرائع الرومانية وقانونها المكتوب في الألواح الاثنتى عشرة. ويتشكل الهيكل الطبقي للمجتمع الرومانى على أساس هرمى من طبقتين رئيسيتين؛ طبقة المواطنين الرومان

(64) ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- الحضارة الرومانية- المجلد الثالث- الجزء الأول -ترجمة محمد بدران - دار الجيل-بيروت 1988 صفحة3.

الأحرار، وطبقة العبيد، وتنقسم الطبقة الأولى إلى عدة طبقات. وبهذا يبلغ مجموع طبقات المجتمع الروماني خمس طبقات وهي:

الطبقة الأرستقراطية:

تقع في قمة الهرم الطبقي وهم النبلاء الذين استمدوا نبالتهم من كونهم ينتمون بحكم الميلاد والسلالة للأباء المؤسسين لمدينة روما "مائة بطريك" ويمنح أرستقراطيو النسب مكانة كبيرة للغاية، وتقتصر عليهم المناصب الدينية الرفيعة والعليا. كما أنها الطبقة المهيمنة على الحياة السياسية وخاصة مجلس الشيوخ وقيادة الجيش والإدارة الحكومية.

طبقة الأغنياء:

تمثل الطبقة الثانية من الهيكل الطبقي الروماني، وتتشكل من رجال الأعمال الذين حققوا قدراً كبيراً من الثروات، ويسمون أيضاً الفرسان⁽⁶⁵⁾، يستطيعون تحمل نفقات المشاركة في الحرب، وقد تمكن بعضهم من خلال ثرائه شق طريقه إلى مجلس الشيوخ.

طبقة العامة:

وتمثل الطبقة الثالثة من الهيكل الطبقي الروماني، وتضم هذه الطبقة الغالبية من المواطنين الأحرار الذين ليس لديهم ممتلكات إطلافاً، والصناع والأرقاء المحررين وكثيراً من الفلاحين، وعلى الرغم من ذلك

65 (طبقة الفرسان: لا تحمل معنى عسكرياً وكانت المهيمنة على نظام الالتزام الذي أدارت بواسطته روما اقتصاد مستعمراتها.

فهم يملكون حريتهم، ومكانتهم بالكاد فوق العبيد المحررين.

المعتوقون:

وتمثل الطبقة الرابعة، وتتمثل في أسرى الحرب العبيد الذين تم عتقهم.

العبيد:

تمثل الطبقة الخامسة من الهيكل الطبقي الروماني، حيث سادت في تلك الفترة علاقات المجتمع العبودي؛ فالعبيد هم قوة العمل الرئيسة المنتجة، وكانت الحرب الدائرة بين القبائل والأمم تجعل كل من يقع في الأسر يفقد حقه في الحياة؛ ولهذا أعتبر استعباده رحمة به وتخفيفاً لحكم الموت الذي استحقه بهزيمته. وقد جعلت الحروب والغزوات من العبيد قوة عمل رخيصة. وفي أواخر الجمهورية، اعتمد الاقتصاد إلى حد كبير على العمل بالسخرة سواء العمل الماهر وغير الماهر. وشكل العبيد حوالي عشرين في المائة من سكان الإمبراطورية الرومانية في هذا الوقت، وأربعين في المائة في مدينة روما.

وينبغي ألا يدعونا هذا إلى الرثاء بحق الطبقتين الثالثة والرابعة في قانون المواطنة الروماني؛ فقد جعلت روما من شعوب البحر المتوسط وقبائله، ومدنه وعشائره كافة عبيد أمم، ووضعت تلك الشعوب العريقة بحكم القوة العسكرية والكفاءة السياسية والإدارية، والتشريعات القانونية في درجة أدنى ممن يمتلك حق المواطنة الرومانية إجمالاً. وهي

بذلك تكون قد حققت بصورة مدنية المشروع العبراني الديني، ولكن بفلسفة وثوب مدني.

النظام السياسي الروماني

ديمقراطية النخبة الأرستقراطية

يعتمد النظام الانتخابي على الاقتراع المباشر؛ حيث يعطى المواطن صوته بنفسه. وعلى الرغم من ذلك، فقد أسس النظام السياسي على تكريس ديمقراطية الأقلية، فبخلاف سيطرة الآباء المؤسسين على مجلس الشيوخ، فقد كان التصويت في الجمعية الشعبية يستند إلى تكتل الثروة، مما أعطى طبقتي النبلاء ورجال الأعمال؛ الطبقتين الممتازتين في الجمعية الشعبية أغلبية ساحقة في المجمع الانتخابي بلغت 98 صوتاً انتخابياً، بينما للطبقة الدنيا من العوام الأحرار صوت انتخابي واحد وهو ما جعل الأغلبية التامة للطبقتين الممتازتين. ولهذا تخلفت الطبقات الدنيا عن الاقتراع⁽⁶⁶⁾.

كان حجم الثقل الانتخابي يتناسب مع دفع الضرائب وأداء الخدمة العسكرية، وبمعنى واضح فإن طبقتي النبلاء ورجال الأعمال يدفعون القسط الأكبر من الضرائب، بينما الفقراء معفون منها أو يؤدون قدراً لا يذكر من الضرائب. أما المسألة الثانية فهي الخدمة

66) Andre AYMARD et Jeannine AUBOYER أندرية إيمار -جانين أوبوايه
HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS ROME ET SON EMPIRE
تاريخ الحضارات العام - المجلد الثاني - روما وإمبراطوريتها - إشراف موريس كروزيه - ترجمة :
فريد م. داغر - فؤاد ج. أبو ريحان - منشورات عويدات بيروت - باريس - الطبعة الثانية
1986 صفحة 141.

العسكرية؛ حيث كان النبلاء يؤدون الخدمة العسكرية ويتحملون نفقاتها الباهظة. بينما الفقراء معفون من الخدمة العسكرية في الأوقات العادية.

مؤسسات الحكم

المؤسسة الأولى: مجلس الشيوخ الروماني (السيناتوس)
كان مجلس الشيوخ صاحب السلطان الخالد المسيطر على صاحب السلطان القصير الأجل. يتكون أعضاؤه من ثلاثمائة عضو يختارون من سلالات الآباء المؤسسين، رفعه سيلا إلى ستمائة عضو، ويوليوس قيصر إلى تسعمائة⁽⁶⁷⁾.

سلطة بلا حدود: كان صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية والعسكرية مجتمعة، وتشمل صلاحياته: السياسة الخارجية، والأقاليم والجيش، وعقد التحالفات والمعاهدات، وإعلان الحرب، وحكم المستعمرات، وإدارة الأراضي العامة وتوزيعها بين المواطنين، والإشراف على أموال الخزانة العامة وإنفاقها، و الفصل في الجرائم الكبرى كجريمة الخيانة الوطنية، والتآمر، والاعتقال، وكان في وسعه إذا حدثت أزمة من الأزمات أن يصدر أعظم قراراته وأقواها وهو "أن من واجب القنصلين أن يعملوا على ألا تصاب الدولة بأذى" وهو قرار يعني فرض الأحكام العرفية ويمنح القنصلين سلطة مطلقة على جميع المواطنين والأملاك⁽⁶⁸⁾ وقد أدار المجلس على مدار تاريخه أعماله

(67) المصدر السابق صفحة 144.

(68) المصدر السابق صفحة 148.

بنشاط وحكمة ومهارة، وقام بصيانة مبدأ خدمة الجمهورية والشعب الروماني⁽⁶⁹⁾. صاحب السلطان الأعلى في روما.

حكومة الإدارة: وتمثل المؤسسة الثانية وتتشكل من:

أولاً: القنصل

ينتخب من قبل مجلس الشيوخ لمدته لا تزيد على عام واحد، وكان اختياره يتم بالانتخاب المباشر بواسطة المواطنين عبر التنظيمات القبلية المعروفة بالجمعية المئوية، وكان يتمتع بسلطة الملوك. وكان القنصل يخلع القداسة على منصبه بتوليه رئاسة الطقوس الدينية الرئيسة. وكان في وقت السلم يدعو مجلس الشيوخ والجمعية المئوية إلى الانعقاد، ويرأس جلساتها، ويقترح القوانين، وينفذها، ويوزع العدالة بين الناس. وفي أوقات الحرب، يجيش الجيوش، ويجمع ما يلزمها من الأموال، ويشترك مع زميله القنصل الثاني في قيادة الفيالق العسكرية، وكانت سلطات القناصل محدوده إلا في حاله الحرب؛ فقد كانا يعطيان سلطات استثنائية كحق التجنيد وقيادة الجيش خارج البلاد.

ثانياً: نقيب العامة

أدت ثورة العامة والفقراء عام 492 ق.م إلى خشية مجلس الآباء من حدوث حرب أهلية؛ فأجروا مفاوضات مع الثائرين، وعرضوا عليهم عفواً عاماً،

(69) الشعب الروماني هو الذي يتكون من مجموع المواطنين الرومانيين الأحرار الذين يملكون حق المواطن الحر.

وإعفاء من الديون، وإطلاق سبيل السجناء، مع وضع قانون جديد خاص بعمليات الإقراض. فوافق المعتصمون شرط أن يوافق المجلس على وضع ممثلين عن الشعب يتم انتخابهم كل عام، تكون وظيفته حق حماية العامة والمظلومين من تطرف الإدارة ونقض قرارات مجلس الشيوخ إذا كانت غير عادلة. وهي تعادل وظيفة القنصل وهدفها حماية العامة؛ ولهذا تمتعت بسلطات قوية مثل حق الاعتراض، وحق التشريع وسن القوانين، وحق منح المساعدة، وحق الحضانة البدنية.

ثالثاً: كبار موظفي الإدارة

وتخفيفاً للعبء الذي يقع على كاهل القنصلين، ابتكر المشرعون الرومان الاستعانة بعدد من الوظائف يتولاها موظفون يقومون بالمعاونة في شؤون الإدارة، ويكون من المدهش ألا يتم الانتباه إلى أن دولة الخلافة الإسلامية لم تحد عن هذا التنظيم الإداري، من دون منصب الرئاسة الذي كان أطلق عليه في الدولة الإسلامية لقب "ال خليفة أو السلطان".

المحتسب (الرقيب): كان يتم اختياره كل خمس سنين، بواسطة الجمعية المئوية، وهما رقيبان يتولى أحدهما الإحصاء الدوري للسكان، ويسجل الملاك لتقدير المكانة السياسية والعسكرية للمواطنين، ومن ثم يحدد الضرائب الواجبة عليهم. وكان من واجبات الرقيب التعرف على أخلاق المتقدمين للمناصب العامة، وفحص سجلات أعمالهم، وصيانة أعراض النساء، والإشراف على التعليم ومعاملة الأرقاء وجباية الضرائب أو التزامها، وإقامة المباني العامة، وتأجير

أملاك الحكومة والتعاقد عليها، والتأكد من العناية
بزراعة الأرض.

وكان للرقبيين سلطة الانتقاص من منزلة المواطن،
أو طرد عضو مجلس الشيوخ الذي تثبت عليه تهم
تمس الأخلاق أو ارتكاب جرائم، وكان في وسعهما فرض
سياسة التقشف على النبلاء، وفرض ضرائب على
الكماليات، وكان من مهماتهما إعداد ميزانية نفقات
الدولة على أساس مشروعات تمتد إلى خمس سنوات.

القاضي (البريتور): يتسلم القاضي الروماني عند
تعيينه سلطاناً مستقلاً يجعل منه تجسيدا للدولة،
سلطاناً وسلطة، وذلك بمعزل عن الجماعة، وفوقها،
وهو الوسيط بين المدينة والآلهة، وهو مطلق
السلطة، مثله مثل قائد الجيش، وهو يتمتع بحق
دعوة الشعب ومجلس الشيوخ، اللذين لا يستطيعان
أن يجتمعا بدونه، أو تناقش قضية لا يروق له
عرضها⁽⁷⁰⁾، ومهمته الاستماع إلى ادعاءات الأطراف،
المتنازعة والتحقق من الإجراءات الشكلية القضائية،
ثم إحالة المتنازعين إلى القاضي. والإشراف على تطبيق
العدالة وتنفيذها داخل العاصمة وفي المقاطعات
والولايات، سواء داخل إيطاليا وخارجها بواسطة
وكلائه، وكان البريتور ينتخب أيضاً سنوياً.

70 (Albrecht Goetze - Theophile J. Meek- H.L.Ginsberg- S.N) -) . شريعة
حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم - الفصل الثاني : النصوص الكاملة للشرائع -
ترجمة أسامة سراس - دار علاء الدين - دمشق - الطبعة الثانية 1993 من صفحة 95 إلى
صفحة 114.

المحقق (إدارة المالية العامة): وتولى النظر في القضايا الجنائية.

حاكم الأسواق: ويتولى إدارة شرطة المدينة والإشراف على الأسواق.

الجيش الروماني: جرى تأسيس جيش روما العسكري الذي يكاد أن يكون في حالة حرب متواصلة على أساس طبقي، وكان لهذا التقسيم أهميته العسكرية، فضلاً عن أهميته السياسية؛ فمن جهة التزمت كل طبقة بتقديم عدد من الكتائب للجيش، تضم كل كتيبة مائة شخص، ومن جهة أخرى تحملت الطبقات الأكثر ثراء نفقة العدد الأكبر من الفرق العسكرية وتجهيزه، وبناء عليه تلتزم الطبقة الأولى بتقديم 80 كتيبة من جنود المشاة، و 81 كتيبة من الفرسان، أما الطبقة الخامسة فتقدم عشرين كتيبة من كتائب الأسلحة الخفيفة.

* * * *

القانون الروماني

الأصول الدينية

كان القانون الروماني القديم مثله مثل الشرائع السائدة في الشرق الأدنى القديم، والبحر المتوسط، فرعاً من الدين، وفي روما كان الكهنة وحدهم القائمين على تدوين الشرائع وتفسيرها، يحتفظون بالسجلات سرّاً فلا يطلع عليها غيرهم، ويعلمون ما هو حق وما هو باطل، وكان الفصل في المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق، والوصايا ونقل الملكية، أمراً كهنوتياً خالصاً.

وقد اتخذ الكهنة والأشراف من هذا الاحتكار سلاحاً قاوموا به الإصلاح الاجتماعي، وكثيراً ما قاموا بإساءة تفسير القانون وتغيير نصوصه؛ والتلاعب بوزناتة الموافقت، كي تتفق مع أغراضهم ومصالحهم، حتى أن التقويم الروماني ظل لزمناً طويلاً يعانى من الأخطاء والتشوش.

القانون الروماني المدني والمساواة التمييزية

"في الفترة التي سبقت عام 492 ق.م خاض العامة من المواطنين الأحرار في سبيل نيل حقوقهم ثورات واضطرابات، طالبوا بإلغاء الديون الواقعة عليهم، وتحقيق العدالة بين المواطنين الرومان، وكسر كهنوت القانون والقضاء، وقد عارض مجلس الشيوخ دعوات الإصلاح الاجتماعي طويلاً، وبعد ضغط شعبي استسلم مجلس الشيوخ مرغماً، ووافق في آخر الأمر على أن يرسل إلى بلاد اليونان لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأشراف لدراسة شرائع المشرع اليوناني "صولون Solon"، وغيره من المشرعين، وعندما عادت اللجنة اختار مجلس الشيوخ عشرة رجال وخولتهم لمدى سنتين أعلى سلطة في روما للقيام بوضع قانون جديد⁽⁷¹⁾.

قامت اللجنة بتحويل قوانين روما القديمة المؤسسة على العادات والأعراف إلى قانون مدني، متخلص من السمة الدينية، وكتبت القوانين الجديدة في اثني عشر لوحاً، عرضت على مجلس الشيوخ فوافق

(71) ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- الحضارة الرومانية- المجلد الثالث- الجزء الأول -ترجمة محمد بدران -دار الجيل-بيروت 1988 صفحة 50.

عليها بعد تعديلات، عرضت بعدها في السوق للعامة من المواطنين الرومان.

الألواح الاثنا عشر

تعد القوانين التي تضمنتها الألواح الاثنا عشر. واحدة من التغيرات الثقافية الكبرى في تاريخ الحضارة الإنسانية، وفي تاريخ العالم. فقد شهد التاريخ البشري شريعة من نوع آخر، تستقى قوتها مباشرة من العقل الاجتماعي والثقافي والسياسي، وبصورة مجملية من العقل الحضاري لجماعة بشرية، فلم تعد الشرائع مُنزلة من الآلهة، أو موحى بها من الآلهة للملوك أصحاب الدم السامي، أو الأنبياء والرسل أصحاب الدعوة للشرائع الدينية، ولكن الشريعة الرومانية قُدمت بوضوح بوصفها عملاً إنسانياً ونتاجاً بشرياً محضاً أنجزه العقل البشري. وبهذا تكون روما قد اختارت ألا تكون دولة دينية. وصبغت الجمهورية الرومانية بالصبغة المدنية؛ كما أنها انتقلت من العادات والأعراف غير المكتوبة إلى مرحلة القانون المدني المدون.

أضعف هذا السلطة الكهنوتية، بعد أن حرمت من أن تكون سلطة الفصل والتشريع والتفسير بين الناس، وفي حياتهم اليومية. ولكن من الضروري الإشارة أيضاً إلى أن الشريعة المدنية الجديدة شكلت انقلاباً في تاريخ شعوب البحر المتوسط، وهو ما سوف نعرض له لاحقاً. وقد أحدثت الألواح الاثنا عشر. انقلاباً قضائياً فيما يخص القضاء وسبل التقاضي.

الأول: وضع طرق للتقاضى يعمل بها حتى الآن.

الثاني: القوانين قابلة للتعديل

طبقاً لما تمليه التطورات الاجتماعية والسياسية، وقرارات الحرب والسلام، الموكل بها مجلس الشيوخ، أى من خلال سلطة تشريعية مدنية منتخبة.

الثالث: قانون مدني وليس شريعة دينية

أصبح المجتمع يدين بتدبير شؤون حياته إلى قانون مدني، وليس شريعة دينية، فقد جرت صياغة القانون بصيغة دنيوية وليست دينية.

الرابع: رجل القانون محل الكاهن

وأصبحت له السيطرة على عقل روما وحياة أبنائها. وكان لهذا أثر كبير على الأفراد من العامة والنبلاء؛ فالحياة في ظل القانون أسمى وأعظم من الحياة في ظل الفوضى أو الاستبداد السياسى.

تعليم القانون: في عام 429 ق.م، قام رئيس اللجنة أيبوس كلوديوس "الأعمى" بنشر. تقويم بأيام اجتماع المحاكم، ومرسوم بما ينبغى اتباعه من الإجراءات القضائية التى كانت تقتصر. معرفتها على الكهنة. وفي عام 280 ق.م بدأ كرنكانيوس تعليم المواطنين القانون الروماني. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح القانون المدون في الألواح الاثني عشر. أساس برامج التعليم في روما، وحفظه تلاميذ المدارس عن ظهر قلب؛ مما بث في نفوس الرومان مبادئ الصرامة واحترام القانون والتمسك به، وعدم التفريط في الحقوق. وطوال تسعة قرون ظلت الألواح الاثنا عشر. بما أدخل عليها من تعديلات أساس القانون الروماني.

بعض بنود الألواح الاثني عشر

اللوح الأول- ويختص بإقامة الدعوى القضائية:

- 1 - إذا دعيت إلى دار القضاء، فاذهب فوراً مع خصمك.
- 2 - إذا أُبى خصمك الحضور لدى القاضي، فأقم عليه شهوداً كي يحضره جبراً.
- 3 - إذا أراد خصمك الفرار، يمكنك القبض عليه.
- 4 - إذا كان خصمك مريضاً أو شيخاً عاجزاً، يلزم أن تحضره في مركبة، وإن أُبى الامتثال فلست مجبراً على تقديم مركبة.
- 5 - إذا قدم خصمك كفيلاً، يلزمك إطلاقه.
- 6 - كفيل الغنى يجب أن يكون غنياً، وكفيل الفقير مقبول مهما كان.
- 7 - على القاضي الفصل في الدعوى حسب اتفاق الخصوم.
- 8 - إذا لم يتم اتفاق الخصمين، فعلى الحاكم سماع الدعوى من طلوع الشمس إلى الظهر بحضور الخصمين.
- 9 - لا محاكم ولا قضاء بعد غروب الشمس.
- 10 - إذا اتفق خصمان على قاضٍ يفصل لهما الدعوى، فليقدما كفيلين يكفلان حضورهما، ومن يغب يغرم بدفع مقدار من المال ما لم يكن المانع المرض، أو إيقاء نذرٍ أو أشغال عمومية فتؤجل الدعوة لليوم التالي.

اللوح الثاني- ويختص بالسراقات:

- 1 - من يقتل لصاً يداهمه ليلاً، فلا يعاقب على قتله.

2 - إذا قبض على لص وهو يسرق في النهار يجلد، ويصير عبداً للرجل الذي نوى سرقته. وإذا كان اللص عبداً يجلد، ويلقى على رأسه من قمة الكايبتوليتس، وإذا كان ولداً قاصراً يعاقب حسبما يرى الحاكم ويعوض الرجل المسروق عما فقده.

3 - من يقتل لصاً أشهر سلاحاً، فلا يعاقب على قتله.

4 - من يأت بستان غيره خفية ويدوس زرعه أو يحصده، يشنق.

5 - لا يعطى تقادم الزمن حقاً امتلاك أمتعة مسروقة، ولا يحق لغريب امتلاك مال وطني روماني بسبب طول مدة استيلائه عليه.

6 - إذا خان المؤمن وتصرف في الأمانة، يدفع قيمتها مضاعفة.

اللوحة الثالث- فى القروض والاقتراض وحقوق

الدائن على المدين:

1. لا تزيد قيمة الربا عن واحد في المائة، ومن يأخذ أكثر يدفع أربع مرات.

2. من يقر بدين يمهل ثلاثين يوماً لدفعه.

3. إذا لم يوف المدين دينه ولم يجد كفيلاً، يمكن للدائن قيده بسلسلة حديدية لا يزيد وزنها على خمسة عشر رطلاً.

4. يسجن الدائن المدين ستين يوماً، بعدها يعرض في السوق ثلاثة أيام معلناً دينه.

5. إذا كان رجل مديوناً لكثيرين، يُقطع جسده في اليوم الثالث من عرضه في السوق، يقتسمها الدائنين أو يباع للساكنين وراء نهر التيبير.

اللوح الرابع- فى حقوق الآباء على الأبناء:

1. للأب الحق فى أن يربى أو يقتل أو يبيع بنيه الشرعيين متى أراد.
2. لا سلطة للأب على ولده إذا باعه ثلاث مرات.
3. إذا ولد لرجل ولد مشوه فليقتله حالاً.
4. على الابن أن يعيل أباه إذا افتقر، وإذا كان الأب قد أهمل تربيته ولم يعلمه مهنة فلا يجبر على إعالته.
5. ابن الزنا غير مجبر على أن يشتغل لإعالة أبيه.

اللوح الخامس- فى الميراث:

1. إذا مات رجل عن أولاد توزع تركته بينهم.
2. إذا مات مديون يوفى دينه من التركة، ويوزع الباقي بين الورثة.
3. إذا مات عبد ولم يكن له ورثة، يرثه مولاه أو بنوه.
4. إذا مات رجل عن ولد قاصر ولم يعين له وصي، أولى أمره إلى أقرب أنسابه.

اللوح السادس- فى البيع والشراء :

1. يلزم أن يكون البيع صريحاً.
2. لا يحق لأحد أن يملك سلعة لم يدفع ثمنها.
3. إذا حرر عبد ودفع مقداراً من النقود، ثم بيع بعد ذلك، يعتق متى نقد مولاه الدراهم المفروضة.
4. يرجح فى الدعاوى حق المالك، وفى الخصومات على الحرية والاستعباد حق طالب الحرية.

اللوح السابع- فى الجنایات والأضرار:

1. إذا كان لك عمود وجدته فى بيت أو كرمة رجل آخر، فلا تنقض البيت ولكن خذ ضعف قيمة الشيء المسلوب.
2. من يحرق بيت غيره أو أشعل قمحه، يسجن أو يجلد أو يحرق، ولكن إذا ما كان عن غير عمد يعطى تعويضاً.
3. يعاقب الجانى بمثل ما جنت يده، وإذا رضى المتضرر تعويضاً يعفى عنه.
4. من شهد زوراً، يلقى على رأسه من قمة الكابيتوليتوس.
5. من يقتل أباً أو أمّاً، يوضع فى كيس جلد ويطرح فى النهر.
6. إذا غش الولى تابعه يعد محتقراً مردولاً.

اللوح الثامن- فى الأملاك خارج المدينة:

1. يترك بين المنازل مجال عرضه قدمان ونصف.
2. يمكن للمتعاقدین أن يجروا ما يتفقون عليه؛ شرط عدم مخالفة الشرائع العمومية.
3. إذا أذت شجرة بظلها بستاناً آخر، تقطع الأغصان على علو خمس عشرة قدماً.
4. إذا سقطت أثمار شجرة فى بستان مجاور، فلصاحبها الحق فى جمع تلك الأثمار.
5. إذا عمل رجل قناة فى بستان لصرف مياه المطر فى بستان مجاور، يقيم القاضى حكماً لتقدير الضرر ومنعه.
6. الطريق المستقيمة عرضها ثمانى أقدام، أو ستة عشر قدماً.

اللوح التاسع- فى حقوق العوام:

1. الجميع فى الحقوق سواء.
2. المديون الذي استعبد وأعتق، والغرباء الذين عصوا وتابوا إلى الطاعة يمنحون حقوقهم القديمة.
3. القاضى الذي يأخذ رشوة يعد مجرماً.
4. الدعاوى التي تقام على رجل روماني وطنى بشأن حياته وحرية وحقوقه تعرض فى محل الاجتماع.
5. يقيم الشعب مفتشين لبحث الدعاوى المهمة.
6. الذين يجتمعون ليلاً من أجل الفتن يقتلون.
7. كل من يحرض غريباً على محاربة روما، أو يسلم رجلاً وطنياً إلى غريب يقتل.
8. القوانين التي يضعها الشعب بشأن أمر ما، تبطل القوانين الموضوعة لذلك قبلاً.

اللوح العاشر- الجنازات والمآتم:

1. لا يجوز الإسراف فى تجهيز الميت، ولا الصراخ والبكاء الشديد عليه.
2. لا يجوز للنساء لطم وجوههن، أو تشويه أجسادهن، أو يصرخن صراخاً قبيحاً.

اللوح الحادى عشر- فى عبادة الآلهة:

1. يحضر المرء الاجتماعات الدينية بطهارة وورع، وإذا لم يفعل تنتقم منه الآلهة.
2. لا يجوز لأحد أن يعبد سراً آلهة جديدة وغريبة، إذا لم يأذن بذلك أولو الأمر.

3. يتمتع المواطن بكل المعابد التي شيدها أجداده والكهوف المقدسة التي تجتمع فيها روح أسلافه، ولكل رجل الحق في إجراء الاحتفالات الدينية التي اعتادها.
4. أكرم آلهة السماء الذين ارتقوا لمصاف الآلهة.
5. اعتبرت الفضيلة والتقوى والأمانة والصفات الحسنة التي ارتقى بها أبطال الرومان إلى السماء آلهة، وابن لهم الهيكل، وإياك وعبادة القبائح.
6. من سرق شيئاً للآلهة يقتل.
7. لا تترك حقلك واقتصد فيما تقدمه قرباناً.
8. من أخطأ فليكفر عن خطاياها.

اللوح الثاني عشر- في الزواج وحقوق الرجل:

1. إذا سكنت امرأة مع رجل عاماً كاملاً ولم تغب ثلاث ليال تعد زوجته.
2. إذا زنت امرأة أو سكرت يمكن لزوجها أن يقتلها إن رضى قومها بذلك.
3. لا يجوز للنبلأ أن يتزوجوا من العوام.

* * * *

من الشرائع الدينية

إلى القوانين المدنية

عندما أصبحت الإرادة الإنسانية مصدراً للقانون؛ سقط لدى المواطن الروماني القناع الإلهي وطابع القداسة التي تحيط بالقوانين والشرائع، وأصبح القانون والشيعة إنساني الطابع والمعرفة، وأصبح من الطبيعي بعد شيوع قانون المرافعات في كتاب القوانين

الروماني الذي كان وافيًا، صار في وسع أي موظف كبير أن يكون قاضيًا، وكان كبير حكام المدينة يعد مع بداية كل عام ثبناً أو "لوحة بيضاء" تحوي أسماء أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الذين يصح اختيارهم ليكونوا محلفين؛ وفي كل قضية كان رئيس الجلسة يختار المحلفين من بين أصحاب هذه الأسماء، على أن يكون للمدعي والمدعى عليه الحق في عدم قبول بعضهم، وكان يسمح للمحاميين القضائيين أن يقدموا مشورتهم للمتقاضين ويدافعوا عنهم في ساحة القضاء، كما كان من حق أعضاء مجلس الشيوخ أن يقدموا المشورة القضائية في بيوتهم أو في مجالس عامة، وكان قانون سنسيوس الصادر في عام 204 ق.م يحرم على من يقدم المشورة القضائية أن يتقاضى عنها أجرًا.

وربما ينبغى الإشارة إلى أن مجموعة القوانين التي تحتويها الألواح الاثنا عشر، والتي تنتمي أيضاً إلى الأسس التي وضعها المشرعون الأوائل كانت تتميز بالصرامة والقسوة بقدر لا يختلف عن الشرائع اليهودية، أو قوانين حمورابي، وبخاصة على مستوى الأسرة والعبيد، فقد كانت تحتفظ بالسيطرة الأبوية الكاملة التي كانت للأب في المجتمعات الزراعية العسكرية، وكان يسمح للأب بمقتضى تلك الحقوق أن يجلد ابنه ويربطه بالأغلال، وأن يسجنه أو يبيعه عبداً، وكان له حتى حق قتله.

وقد ضمت الألواح بنوداً من أهم أسس القانون المدني، لاتزال تعمل عملها حتى اللحظة الراهنة:

الجميع في الحقوق سواء: فكما جاء في اللوح التاسع
-البند الأول الخاص بحقوق العوام والذي ينص على أن
"الجميع في الحقوق سواء".

عقاب "غير المؤمن" متروك لعقاب الآلهة: كما لم
ينص على عقاب "غير المؤمن" مدنيًا، كما جاء في
(اللوحة الحادية عشر. - البند الأول)، فهو لا يعاقب
بالقتل، ولا يلقي عليه الحجر أو السجن أو النبذ، بل
هو متروك لعقاب الآلهة، الذين لم يؤمن بهم، فهو
شأن خاص محض.

العبادة مقصورة على الآلهة القومية: ولكن في البند
الثاني من اللوح نفسه فإن التشريع جعل من غير
المقبول أن يعبد مواطن روماني آلهة غير قومية، أو أن
يبتدع آلهة جديدة، فالأمر الأول يتنافى مع الرموز
القومية للبلاد، وقد يرتفع إلى حد الخيانة، والأمر الثاني
(كما يعتقدون) يثير الفتن والاضطرابات الداخلية
ويهدد الاستقرار.

الحرية الدينية تقتصر على المواطن الروماني: في
البند الثالث جعل المشرع الحرية الدينية تقتصر على
المواطن الروماني فقط.

تمجيد أبطال روما: ويشير البندان الرابع والخامس
إلى أنه على المواطن الروماني تمجيد أبطال روما
وحكامها الذين صنعوا مجدها، ووهبوه العالم المتميز
الذي يعيشه.

قيمة العمل: في البند السابع، يتم تمجيد قيمة
العمل في مقابل عدم المغالاة في ممارسة الطقوس

والعبادات الدينية؛ فهو يحض على أن لا مغالاة في الدين، لا مغالاة في العبادات، لا مغالاة في النذور.

تكريس التفوق العرقي الروماني: في اللوح الثاني عشر. الخاص بالزواج، ينص البند الثالث صراحة على تكريس التفوق الروماني، من خلال مبدأ الفصل العرقي والتميز السلالي. وبهذا احتفظ القانون الروماني على المستوى الاجتماعي بالفروق بين الأعراق والطبقات؛ فحرم الزواج بين الأشراف والعامّة.

حقوق الدائن والملكية: كان للدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كل قيد، في حال عدم قدرة المدين على الوفاء بالدين، وكان يحق للدائن سجن المدين لديه، وتجريسه في الأسواق، أو تقطيع لحمه، وأخيراً بيعه عبداً مع النفي خارج حدود نهر التيبر. كما كان للملاك الحرية الكاملة في أن يتصرفوا في أملاكهم عن طريق الوصية، وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حداً يجعل السارق الروماني الحر الذي يضبط متلبساً بجريمة السرقة يفقد حرّيته، ويصير عبداً للمسروق منه، أما إذا كان عبداً فعقابه الموت بأن يلقي من فوق قمة الكابيتوليتس.

العقوبات المشددة للجرائم: كان الإعدام عقوبة من يرتكب جرائم القذف والرشوة، وسرقة المحصولات الزراعية، وإتلاف غلات الجار، والقضاة الفاسدين، وخديعة المحامي للمتقاضين، وممارسة السحر، ودس السم في الطعام، والاعتيال، والاجتماع في المدينة ليلاً لتدبير الفتن والمؤامرات، والازدراء عند الحنث في الشهادة. وعلى الرغم من ذلك، كانت هناك عقوبات متفاوتة من الغرامة البسيطة إلى النفي، أو الاسترقاق أو

الإعدام، أو القصاص. وكان هناك نوع من الرحمة في العقوبات الموجهة على الجرائم نفسها للأولاد القصر. كما وفر القانون حق الاستئناف: فكان من حق المواطن أن يستأنف الحكم الصادر عليه بالإعدام من أي جهة قضائية.

* * * *

إمبراطورية العبودية

مع بزوغ عصر الجمهورية كانت روما قد أصبحت آلة ضخمة لإنتاج العبيد، فقد انطلق الجيش الروماني في أنحاء المتوسط، يخوض حروبا متواصلة، يدمر فيها كل ما تصل إليه أسلحته الجبارة، كان يهشم بقواته العسكرية كل ما تصل إليه قدماه الثقيلتان، وكأنه آلة جبارة، يديرها مجنون، أو وحش فضائي من أفلام الخيال العلمي يتلح في جوفه شعوب البحر المتوسط ويحيلهم رقيقاً وأمماً من عبيد. وأضحت إيطاليا تحوى عدداً لا يحصى من العبيد، وأصبح بعض أسرى هانيبال عبيداً في اليونان، وغذت الجيوش الرومانية الأسواق بأسرى الحروب، بل وجميع سكان المدن المفتوحة عنوة في أغلب الأحيان، وقد جرى التنكيل (بتلك الشعوب) بأساليب لا وجود للشفقة فيها أو الرحمة، وفي عام 167 بعد النصر. وإخضاع الأهالي، أصدر بولس اميليانوس أمره باختطاف وبيع مائة وخمسين ألف شخص من سكان البير. وفي كل مكان؛ البلقان، آسيا، أفريقيا، أسبانيا، غاليا، باع قضاة المالية بالدلالة، لمرافقي الجيوش من تجارا النخاسة، الغنائم البشرية التي كانت تنقل بعد ذلك في مواكب كئيبة إلى أسواق النخاسة، ويجب ألا ننسى أن قيصر.

قد أمر ببيع مليون من الغاليين⁽⁷²⁾، وأمام ذلك شهدت روما عدداً واسعاً من ثورات العبيد، وتمردهم.

* * * *

(72) André AYMARD et Jeannine AUBOYER إندرية إيمار-جانين أوبوايه
HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS ROME ET SON EMPIRE
تاريخ الحضارات العام- المجلد الثاني -روما وإمبراطوريتها -إشراف موريس كروزيه - ترجمة :
فريد م. داغر - فؤاد ج. أبو ريحان- منشورات عويدات . -باريس- الطبعة الثانية 1986
صفحة 178.

تشريع التمييز العرقي

المواطنة الرومانية⁽⁷³⁾

المواطن الروماني هو الشخص الأول في القانون الروماني، فهو صاحب التمييز السامي والمرتبة الأعلى؛ وتعريف المواطن الروماني: "أنه الشخص الذي ينتمي إلى إحدى القبائل الرومانية بحكم المولد أو التبني، أو العتق، أو المنحة من قبل الحكومة"⁽⁷⁴⁾. وفي المقابل نزعت كل حقوق المواطنة عن أبناء الشعوب المقهورة، وطبق عليهم الوضع القانوني للعبيد؛ حيث كان القانون الروماني يرفض أن يطلق على العبد لفظ شخص Person، وأسماء "إنساناً غير شخصي"⁽⁷⁵⁾.

وبذلك يمكن القول بأن الدولة الرومانية قد حققت المشروع العبراني الديني للتمييز والتفوق العرقي ولكن في ظل شريعة مدنية. وكان الذين ينطبق عليهم هذا التعريف ينقسمون إلى ثلاث مراتب اجتماعية:

المرتبة الأولى- (مواطن كامل المواطنة):

ويتمتع بالحقوق الأساسية الأربعة وهي:

1) حق الاقتراع (Ius Suffrag)
"الحق السياسي"

73) ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- الحضارة الرومانية- المجلد الثالث- الجزء الثاني - الباب الثامن عشر - الفصل الثالث - ترجمة محمد بدران - دار الجيل - بيروت 1988 صفحة 366.

74) راجع الجزء الخاص ب "تشريع التمييز العرقي". - المؤلف.
75) ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- الحضارة الرومانية- المجلد الثالث- الجزء الثاني - الباب الثامن عشر - الفصل الثالث - ترجمة محمد بدران - دار الجيل - بيروت 1988 صفحة 370.

(2) حق التوظيف (Ius Honorum)
"حق العمل الحر"

(3) حق الزواج من حرة بمولدها. (Ius Conub)
"حق اكتساب التميز العرقى"

(4) حق الدخول في تعاقد تجاري يحميه القانون
الرومانى "حق مباشرة الملكية
العقارية والتجارية"

وقد ضمن القانون الشخصي له حقوقاً لا يشاركه
فيها سواه؛ مثل :

(1) حق الأب على أبنائه: (Patria Potestas)
والتي تصل لدرجة حق الأب في قتل الأبن.

(2) حق الزوج على زوجته. (Manus).

(3) حق المالك في ملكه ومنهم عبيده.

(4) حق الرجل الحر على غيره إذا تعاقد معه:
وكانت أئمن ميزة يستمتع بها المواطن الرومانى
هي حماية القانون لشخصه، وملكه، وحقوقه،
وأمنه على نفسه من التعذيب أو العنف في أثناء
المحاكمة. كما كان من أهم سمات القانون
الرومانى أنه يحمي المواطن الرومانى من عسف
الدولة.

**المرتبة الثانية: مواطن لا حق له في الاقتراع
أو تولي المناصب العامة**

"المواطنون الذين لا حق لهم في الاقتراع": وهم
الذين يتمتعون بحق الزواج والتعاقد، ولكنهم لا حق
لهم في الاقتراع، ولا في تولي المناصب.

المرتبة الثالثة: مواطنون معترفون

يتمتعون بحقي الاقتراع والتعاقد ولكنهم لا حق لهم في الزواج بحرة أو في تولي المناصب.

المرتبة الرابعة: حق المواطنة بالإمكانية

أو حق الدخول في الحظيرة اللاتينية، وكانت روما تمنحه للأحرار من سكان بعض المدن أو المستعمرات، وينال به كبار الموظفين من تلك المدن حقوق المواطنة الرومانية الكاملة حين تنتهي مدة توليهم مناصبهم. ويعطيهم هذا الحقوق التالية أو يمنعها عنهم:

- 1) يمنع عنهم حق الاقتراع، ومن ثم تولي المسؤوليات السياسية.
- 2) يمنع عنهم حق الزواج بالرومانية، أى بمواطنة لها الحق الروماني.
- 3) يمنع عنهم حق التعاقد.

المرتبة الخامسة: أفراد الشعوب المغلوبة

الأفراد الذين ينتمون إلى الشعوب المغلوبة التي تقع تحت السلطان الروماني، ولا يتمتعون بأى حق من هذه الحقوق، بل نزع من هذه الحقوق تماماً، وتركوا نفوساً عارية، مثلهم مثل الحيوانات، لا يجدون شريعة تستر عورتهم ولا قانوناً يقيهم العسف، وبالتالي كانت حقوقهم الإدارية والقانونية في درجة

أدنى بكثير ممن يمتلكون حق المواطنة الرومانية
إجمالاً.

* * * *

حقوق العبيد

كان القانون الروماني يرفض أن يطلق على العبد لفظ شخص Person، وأسماه "إنساناً غير شخصي"، وعُدَّ من قبيل المتاع، وطبقاً لهذا التوصيف لم يكن للعبيد حقوق على الإطلاق، فلم يكن لهم حق الملكية والتملك، أو حق الزواج الشرعي، أو أن يرث أو يورث، وعُدَّ أبناؤه غير شرعيين. أما أبناء الجارية فكانوا عبيداً حتى لو كان الأب من الأحرار. وكان للسيد الحق في أن يمارس الجنس مع عبيده وجواريه من دون أن ينالوا تعويضاً قانونياً، ولم يكن للعبد الحق في أن يقاضي من يؤذيه في المحاكم، وكان الذي يحق له أن يقاضي من يتسبب في إيذاء العبد هو سيده. وللسيد الحق في جلده وسجنه، وكيه بالنار وبيعه وقتله أو صلبه؛ وبينما كان القانون يحمي المواطن الروماني من الصلب أو الجلد أو التعذيب، كانت عقوبة الصلب والقتل شائعة بين العبيد، من دون حق الاستئناف. وهي عقوبات كان يجري تنفيذها بسهولة، وإزاء جرائم تعد بسيطة مثل السرقة⁽⁷⁶⁾.

وكانت روما تبيع الأسرى رقيقاً في الأسواق بالألوف، وقبض أغسطس على ثلاثين ألفاً من العبيد الفارين، وصلب من العبيد كل من لم يكن له مالك يطلبه، وإذا ما قتل السيد، قضى القانون بقتل جميع عبيد القتيل؛

(76) المصدر السابق - صفحة 370 / 370.

وعندما قتل أحد الولاة بيد عبده، حكم مجلس الشيوخ على عبده الأربعمائة بالإعدام، وكان الرومان لا يعرفون الرحمة، ويدركون أن هذه هي الطريقة المثلى للحفاظ على أمنهم وأمن الجمهورية.

في القرن الثالث الميلادي ومع قرب أفول الإمبراطورية جهر مشترعاً عظيماً هو أبلين Uplian بما لم يجرؤ على الجهر به إلا عدد قليل من الفلاسفة، وهو أن (الناس أكفاء بحكم قانون الطبيعة) وكانت آخر سوءات هذا القانون ما يفرضه من الضرائب والقيود على عتق العبيد حتى لقد كان كثيرون من الملاك يتملصون من قانون فوفيا كانينا Les Fufia Canina بأن يعتقوا عبيدهم من غير شهود رسميين أو احتفال قانون. (77).

* * * *

حقوق الشعوب المغلوبة

كان الإغريق يرون أن لهم على "المتوحش أو البربري" حق الإمرة، ما دام أن الطبع قد أراد أن يكون المتوحش والعبد سواء، وكان المتوحش في عرف اليونان، كل من ليس يونانياً. وقد تحول هذا المبدأ مع الرومان إلى لعنة دمرت شعوب الشرق الأدنى القديم.

وينبغي الاعتراف أن فكرة التميز هذه لم تكن بدعة يونانية ولا رومانية؛ فهي فكرة ومبدأ أصيلان لدى القبائل العبرانية، كما أن المصريين القدماء كانوا يشيرون إلى أنفسهم بأنهم "الناس" بينما بقية البشر.

خارج هذا التعريف. فهم "وحوش أو برابرة"، وكان لهذا المفهوم نتائج تنعكس على الآخرين، تختلف بمدى السماحية أو ضرورة الحاجة المادية لعمل الرقيق. وهو ما يفرق بشكل حاسم بين سلوك المصريين القدماء والرومان.

ولما كان المصريون يزرعون حقولهم بأنفسهم، ويقيمون معابدهم وأهراماتهم ومقابرهم بفنهم الخاص كنتاج لقوة عملهم. وفائض الوقت الذي توفره الزراعة، لم يكونوا في حاجة لاستعباد أحد، بينما الرومان كانوا مجموعة من السلالات الضيقة، تتسع ببطء وتحفظ، كانوا في حاجة كاملة للعبيد كقوة عمل رئيسية، ولشعوب خاضعة تعمل داخل نطاق العبودية الصارم للعمل في بلادهم المقهورة لحساب الإمبراطورية.

ولم تكن القوانين العظمى المدنية والأممية إلا القواعد التي يخلع بها الفاتح على المهزوم نظامه وقوانينه، وقد كرس ذلك باطراد إضفاء القداسة الزمنية أو اللاهوتية على سلطة السيادة القائمة على قوة الفيالق الغازية.

وقد أشار فلاسفة الرومان مع بزوغ المسيحية، في محاولة لستر عورة النتائج للأخلاق للعصر الذي امتد ما يقارب العشرة قرون، إلى أنهم طبقوا قوانين الطبيعة، بمعنى أنه كان من الطبيعي أن يستخدم الأقوياء الضعفاء، وأن يسيئوا استخدامهم.

وعلى هذا الأساس، لم تمنح للشعوب المستعبدة أي حقوق قانونية. فطبقاً للقانون الروماني، يمكن

للمواطنين الرومانيين وحدهم تملك الأموال، وإبرام العقود وتحرير الوصايا، والمقاضاة للحصول على تعويض عن الأضرار. ولأن المستعبدين لم يكونوا يعدون مواطنين، فإنهم لم يسمح لهم بشيء من هذه الحقوق.

* * * *

الدوائر القانونية الثلاث للإمبراطورية الرومانية

بلغت روما الطابع الإمبراطوري في العام 27 ق.م، وامتدت سطوتها إلى الشعوب القاطنة على طول ساحل المتوسط، بفضل تنظيمها السياسي، وقدرتها العسكرية. وقد شكلت الجمهورية الرومانية، ومن بعدها الإمبراطورية، الهيكل القانوني العام للشعوب التابعة لروما، طبقاً لدوائر جغرافية ثلاث، تحدد القواعد والحقوق القانونية لقاطنيها.

الدائرة الأولى - مدينة روما وما حولها:

والتي كانت مستقر سلالات القبائل المؤسسة لروما، والتي شكلت أرستقراطيتها، والتي تمثلت في كل من مجلس الشيوخ والقناصل، ومواطنيها الأحرار من دون العبيد، ولما كانت تعج بالرقيق، بالإضافة إلى أعداد من أفراد شعوب هاجرت إليها؛ فقد جردهم القانون الروماني من أي حقوق.

الدائرة الثانية - المدن والولايات الإيطالية:

خاصة الملاصقة لروما، وقد منحها الرومان الحق اللاتيني، وهو أقل في القوة من الحق الروماني. وهو مستوى من حقوق الجنسية يقع بين المواطن والأجنبي الكامل، وتم منح بعض حلفاء روما الإيطالية

حق المواطنة الكاملة بعد الحرب الاجتماعية في الفترة بين أعوام (91-88ق.م)، ثم اتسع مع التوسع الإمبراطوري لتشمل مدناً في سوريا ومصر. مثل الإسكندرية.

الدائرة الثالثة- الشعوب المستعمرة:

والتي استعمرتها روما على الشريط الواقع على كامل ساحل البحر المتوسط، حيث طبق على الدول المقهورة قانون الفتح الروماني الذي يعطي الغالب حق الحياة والموت على المغلوبين، ويحل للمنتصر. مدن المغلوبين وأموالهم وأنفسهم.

* * * *

قانون الفتح الروماني

تنص الصيغة القانونية لقانون (الفتح الروماني)، والذي فرضته روما على الشعوب المهزومة، على الآتي:

"إني أعطيت عن يد شخصي ووطني وأرضي والماء الذي يجري خلالها وآلهة الحدود والمعابد وما ملكت يميني؛ أعطيت ذلك كله للرومان".

المعنى القانوني لحق الفتح

- الشريعة للمنتصر وحده: بينما لا يملك المغلوب قانوناً ولا شرعاً ولا عرفاً.
- العيش خارج الشرائع: يتعين على الشعب المغلوب أن يعيش خارج الشرائع.
- القانون لا يعترف بزواج المهزوم: ولا يتوقف الأمر عند حد اعتبار زواجه عرفياً. ولكنه يعد مماثلاً لمعاشرة الوحوش، أبناؤهم غير شرعيين وأبناء

سفاح، وليست للأب سلطة على ولده، ولا يوجد ما يمنع أخلاقيا نكاح الأب من ابنته أو الأخ من أخته.

- البدائية: يحيل الجماعات المقهورة إلى حالة بدائية، إذ ينزع عنهم ثوب الشريعة.
- العدم: لا تحل لهم ملكية الأشياء، أو مصاهرة الغالب.
- انتفاء الشرف: لا تحل لهم المساهمة في سياسة المدينة، أو السمو إلى مرتبة من مراتب الشرف.
- امتداد التمييز الروماني من البشر إلى الحيوانات: فاعتبر الرومان الجمال والأفيال لا تعد من حيوانات الزراعة الرومانية؛ لأنها لم تعيش على أرض روما، وبالتالي لا تدخل في الملكية الزراعية، وإنما تدخل في عداد الوحوش.

منابع القوة الرومانية:

استمدت الجمهورية الرومانية قوتها التي مكنتها من إخضاع شعوب حوض المتوسط على عدد من العوامل الأساسية⁽⁷⁸⁾.

- النظام السياسي: الذي ورثته من اليونان، والمتمثل في دول مدنية ديمقراطية، يقودها مجلس الشيوخ أو الآباء الذي أدار الشؤون الداخلية والخارجية، بكفاءة تفوق كافة

André AYMARD et Jeannine AUBOYER (78) إندرية إيمار-جانين أوبوايه
HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS ROME ET SON EMPIRE
تاريخ الحضارات العام- المجلد الثاني -روما وإمبراطوريتها -إشراف موريس كروزيه - ترجمة :
فريد م. داغر - فؤاد ج. أبو ريحان- منشورات عويدات بيروت - باريس- الطبعة الثانية
1986صفحة 117 / 116.

الأنظمة السياسية التي تحكم المنطقة والتي كان أغلبها يستند آنذاك على حكم ديني مطلق.

- **التقاليد العسكرية الصارمة:** لجيش الجمهورية والتي انضوت على الاستعداد الدائم، والجاهزية في أوقات السلم، وسرعة وكفاءة التجمع أوقات الحرب، وخاصة روح التنظيم التي كانت تتجلى في عمليتي التجنيد والتعبئة، والحرص على ألا يتوقف الجيش ليلة واحدة عن أن يشيد معسكر نظامي ويحيطه بخندق.

- **يمين القسم:** اليمين التي يقسم عليها الجنود مع بدء كل حملة.

- **قوة النظام تعززه عقوبات صارمة:** بما فيها الجلد والإعدام، والمكافآت تيجانا وأوسمة وأسلحة شرقية التي تبرهن للمواطنين أن حاملها آتى مأثرة.

- **تمكن الإدارة المدنية والعسكرية:** من التكيف مع متطلبات الحرب، وخاصة المرونة التي جعلت الجيش الروماني أول جيش في العالم تمكن من الجمع بين المرونة دون أن يفقد صلابته، فضلا عن كفاءة اقتباس كل ما يمكن الاستفادة من أسلحة وتكتيكات الجيوش المعادية وأدواتهم الحربية.

- **الليجون الروماني:** الذي بلغ عدده 4500 جندي في ظروف التجنيد العادية، ترتفع عند الحاجة إلى 5300 مما يسهل قيادتها وقدرتها على أن

تشكل جيشاً صغيراً قادراً على خوض حرب
مستقلاً عن غيره.

ويعد فعل الفتح أحد أهم العمليات العسكرية
القديمة، مما ينجم عنه نتائج سياسية واقتصادية
 واجتماعية جسيمة على المهزوم، وإذا كان الفتح هو
النتيجة المباشرة للظفر بالحرب، فإن الهزيمة تنتهي
بخضوع المهزوم والتي هي الوجه الثاني للحرب.

* * * *

قانون الأمم

إذا كانت قواعد استسلام الشعوب المقهورة كلية وساحقة، فقد صاغ الرومان قانوناً آخر للمغلوب سمي قانون الأمم، معتمدين على الخبرات التاريخية التي أعطتها لها مقرطة القانون الروماني؛ ففي البداية عين قاض "بريتورا" يختص بشئون الأجانب القاطنين في روما، وهو أمر أصبح الأساس الذي عين منه قضاة يسيرون شؤون القاطنين في إيطاليا. وعندما اتسعت دائرة الفتوحات الرومانية، تولى شؤون القضاء في الأقاليم المقهورة ولاة وقضاة كان عملهم التوفيق بين القانون الروماني والقانون المحلي لصالح الأول. وفي الإطار القانوني الرئيس لقانون الفتح الروماني، ومع الوقت نشأ من القرارات التي أصدرها القضاة البريتورون، وحكام الولايات، والإيديلون ما سمي بقانون الأمم الذي طبق على الإمبراطورية بأكملها، والتي حكمت روما بمقتضاه.

كان الغرض من قانون الأمم تشكيل المبادئ القانونية التي يفرض بها المنتصر. سلطانه بصورة واضحة صريحة، وأن يكون القانون هو استقرار القوة وسطوتها المطلقة. وقد حاول الفلاسفة أن يقولوا إن قانون الأمم هو (قانون الطبيعة). وكان الرواقيون

يعرفون قانون الطبيعة بأنه قانون أخلاقي متأصل في الإنسان بفعل (العقل الفطري)⁽⁷⁹⁾.

بينما وصف فقهاء القانون الروماني قانون الأمم *ius gentium* بأنه قانون عام يشمل الأمم جميعها، ولكن هذا لم يكن إلا من قبيل التفاخر الوطني الكاذب. والحقيقة أنه كان مجرد قوانين محلية جرى تكييفها بحيث تنفق كلية مع ترسيخ السيادة الرومانية، ومن دون أى خطأ، والتقليل من شأن الشعوب المغلوبة وتحقيرها.

ولم يتجاوز الأمر سوى مراعاة بعض العادات العامة والتقييد بها في السلم والحرب، كالحماية المتبادلة للتجار والدبلوماسيين الدوليين، ووقف القتال لدفن الموتى، والامتناع عن استخدام السهام المسمومة، وما إلى ذلك.

ومن الضروري أن نعي أن روما لم تشغل نفسها وهي تصوغ ما سمي بقانون الأمم، بإسباغ عدالتها على الأنفس التي تشكلت منها الشعوب المقهورة، بل على العكس، فقد وضعتها في مرتبة لا تعلق مرتبة الحيوانات. وكان الغرض منها أن تتمكن روما من حكم شعوب إيطاليا والولايات التابعة للدولة الرومانية من غير أن يعطى لأهلها حق المواطنة الرومانية وغيرها من الحقوق المنصوص عليها في القانون المدني.

القانون الطبيعي

(79) ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- الحضارة الرومانية- المجلد الثالث- الجزء الثاني -الباب الثامن عشر- - الفصل الثالث - ترجمة محمد بدران -دار الجيل -بيروت 1988 صفحة 386/385..

في العصور الرومانية المتأخرة، أدت سيادة الفلسفة الرواقية إلى الاعتقاد في القانون الطبيعي، والذي يعنى حق غير الرومان في التمتع بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها المواطن الروماني. وكانت الفلسفة الرواقية تعرف قانون الطبيعة بأنه قانون أخلاقي متأصل في الإنسان بفعل "العقل الفطري". وإذا كانت الطبيعة نظاماً من نظم العقل، قوامه المنطق والترتيب المحكم الكامن في الأشياء جميعها، والذي ينمو في المجتمع من تلقاء نفسه؛ حتى يصل إلى مستوى الوعي لدى الإنسان، فهو القانون الطبيعي. وقد عبر شيشرون (106. 43 ق.م) عن هذا بعبارة ذائعة الصيت فقال:

(إن أساس الحياة الأخلاقية هو نوع الاختيار العفوى الذي تحملنا عليه نوازعنا لما هو نافع من الأشياء لبقائنا، فالغاية هي أن نحيا ونختار عن تبصر. وبملاء إرادتنا الأشياء الموافقة للطبيعة الكلية. لقد صار العقل يحتل المساحة كلها وطرد كل ما ليس بضعة منه، واتخذت الفضيلة من العقل وحده)⁽⁸⁰⁾. ويضيف شيشرون: "ذلك أن القانون الصحيح هو العقل الحق المتفق مع الطبيعة، والذي يدخل في نطاقه العالم بأسره، والسرمدى الذي لا يتبدل.. وليس من حقنا أن نقاوم ذلك القانون وأن نبذله، وليس في مقدورنا أن نلغيه، ولا نستطيع أن نتحرر مما يفرضه علينا من التزامات بالتشريع أيّاً كان، ولسنا في حاجة إلى أن ننظر في خارج أنفسنا لنبحث عن

(80) اميل برهيه TOME PREMIERE EMILE BREMIER - تاريخ الفلسفة - HISTORY DE LA PHILOSOPHIE الجزء الثاني - الفلسفة الهلنستية والرومانية - ترجمة جورج طرابيشي - دار الطليعة بيروت لبنان 1982 - صفحة 83.

شرح له أو توضيح. وهذا القانون لا يختلف في روما عنه في أثينا، ولا في الحاضر عنه في المستقبل. إنه قانون صحيح ثابت عند جميع الأمم وفي جميع الأحقاب، ومن عصاه فقد أنكر نفسه وأنكر طبيعته"⁽⁸¹⁾، ويؤكد الإمبراطور الروماني ماركوس أورليوس Marcus Aurelius (161-180م) الذي يعد آخر الفلاسفة الرواقيين على نفس المعنى عندما ذكر في كتابه الثاني (أن العالم بأسره خاضع للعناية الإلهية، وحتى تصاريق القدر أو الصدفة تدخل في نطاق الطبيعة الشامل. فالعناية هي المصدر الذي عنه ينبع كل شيء، وبها تقترن الضرورة وخير الكون بأسره، وكل ما هو جزء من الكون وما أعدله من قبل الطبيعة الكونية أو يساعد على بقائه هو خير"⁽⁸²⁾.

هذا النوع من الفلسفة إنما يعني القبول بالعالم على ما هو عليه، وإعطاء تبرير أخلاقي لمظالمه، وفي عام 212م، صدر مرسوم للإمبراطور كاراكلا "أنعم الرومان فيه بالمواطنة على كل الرجال الأحرار المولودين في أرض رومانية، باستثناء البرابرة المقيمين في الإمبراطورية، وأخضعوا لنظام أدنى خاص. ولعل مرد ذلك التدبير إلى أسباب جبائية، كان الهدف منها فرض الضرائب على الجميع دون استثناء، ولكن المرسوم كان

81 (ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- الحضارة الرومانية- المجلد الثالث- الجزء الثاني- الباب الثامن عشر- - الفصل الثالث - ترجمة محمد بدران- دار الجيل- بيروت 1988 صفحة 386.

82 (د. ماجد فخري تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس 585 ق م إلى أفلاطون 270م وبرقليس 485 م) (دار العلم للملايين) مارس 1991 صفحة 182.

نهاية تطور بدأ منذ زمن بعيد واستجاب لمقاصد
أخرى" (83).

* * * *

الخطر المميت

وينبغي ألا نتجاهل أن روما لم تُعْط تلك الحقوق
عن طيب خاطر، فمنذ قرنين ظهر السيد المسيح على
الأرض، وأطلق دعوته إلى العالم قاطبة عن مملكة في
السماء، وكان العالم في ذلك الوقت رومانياً.

وليس من المعتقد أن أبناء تلك الشعوب التي
دفعت ثمننا قاسياً على مر العصور نتيجة الفتح
الروماني سوف يرجحون أقوال الفيلسوف الروماني
سيشرون حول صحوة الضمير الروماني، قدر الخطر
المميت الذي بات يهز أركان الإمبراطورية الرومانية
والذي تمثل في ظهور دين جديد على ساحة المسرح
المذهبي للإمبراطورية.

ذاك الدين كان دين المقهورين بامتياز، ولا شك أنه
للمرة الأولى واجهت روما ضغطاً أخلاقياً جعل
وجودها المعنوي على المحك، عصف بها في النهاية،

(83) André AYMARD et Jeannine AUBOYER إندرية إيمار -جانين أوبويه
HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS ROME ET SON EMPIRE
تاريخ الحضارات العام - المجلد الثاني - روما وإمبراطوريتها - إشراف موريس كروزيه - ترجمة :
فريد م. داغر - فؤاد ج. أبو ريحان - منشورات عويدات بيروت - باريس - الطبعة الثانية
1986 صفحة 601.

وخوفا من البساط الذي بات يسحب بسرعة من تحت أقدامها، ومن دون خسائر تذكر على الطبقة الأرستقراطية، منح الإمبراطور "كاركلا" حقوق المواطنة الرومانية لجميع الأحرار القاطنين على الأراضي التابعة لروما بعد قرنين من ظهور السيد المسيح، وقبل قرنين من اعتناق روما نفسها للمسيحية. وبذلك أصبح القانون المدني قانون الإمبراطورية بأكملها.

لكن الأمر جاء متأخراً كثيراً، إذ إن قانوناً جديداً قد ظهر، هو (قانون الإيمان القويم) الذي سيطيح بالتراث المدني للفكر اليوناني والروماني لقرون طويلة، قبل أن يعود ثانية في القرن السابع عشر. الميلادي مع فكر فلاسفة عصر الأنوار.

* * * *

الفصل السادس الشرعة المسيحية

"بقيت الشريعة"⁽⁸⁴⁾، ولكن لما أتى الرموز إليه ⁽⁸⁵⁾ حل محل
الرمز".

(84) الشريعة: يقصد بها هنا الشريعة التوراتية.

(85) الرموز إليه: يقصد به السيد المسيح.

قبل ميلاد المسيح بثلاثين عاماً، أحكمت الجمهورية الرومانية سطوتها على شعوب البحر المتوسط كافة، وأصبحت بلاد اليونان والغال وإسبانيا وأجزاء واسعة من الجزر البريطانية وألمانيا ولايات تابعة، كما ضمت من الشعوب القديمة سوريا وفلسطين والشريط الشمالي لساحل القارة الإفريقية، وفي أول أغسطس (30) ق.م، فتح أوكتافوس الذي أصبح إمبراطوراً فيما بعد الإسكندرية⁽⁸⁶⁾، وبضم روما لمصر. درة العالم القديم أسست "الدولة العالمية"، ففي العام (27) ق.م، أعلنت الإمبراطورية الرومانية، وعين أغسطس أوكتافوس كأول إمبراطور روماني على أساس من القانون المدني الطبيعي، والتميز الخاص للسلالة العرقية الضيقة، والتي أحيطت بسياج من قانون كرس الحياة لروما، وأحل "لعنة الإرتكاس الإنساني والعودة إلى عالم ما قبل الحضارة" بالشعوب القديمة كافة.

عقاب قرطاجنة

لقد عوقبت قرطاجنة بعقاب أشدهولامما عوقبت به طروادة القديمة، ودمر الرومان المدينة وذبح أهلها وبيع خمسون ألفاً منهم في أسواق النخاسة رقيقاً، وأوقع على من تبقى منهم قانون جهنمي لا يسمح لهم بالإقامة إلا على بعد عشرة أميال من الساحل، وكانوا قد رأوا في الفلسفة الإغريقية مجرد

86 (د. سيد أحمد على الناصري أستاذ التاريخ القديم - كلية الآداب - جامعة القاهرة - تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري - دار النهضة العربية - الطبعة الثانية - 1991 - صفحة 20.

ثرثرة ولغو فارغ، أما المصريون فقد أذل الاستعلاء الروماني آلهتهم واحتقروا ديانتهم.

ميلاد السيد المسيح

ولد السيد المسيح في عصر. تشكلت فيه أول حكومة عالمية مؤسسة على التمييز السلالي التام بين أقلية رومانية تنتهج إدارة الحكم المدني أو السلطة المدنية، دولة مدنية مؤسسة على أساس الصلابة الفردية والجماعية والانضباط العسكري، والنظام والعمل والحياة المتقشفة، وقانون مؤسس على قضاء شعبي ديمقراطي، في المقابل نذعت الجمهورية الرومانية عن كافة البشر. والشعوب القاطنين داخل الولايات والأقاليم الرومانية الإطار القانوني الذي يمنح الهوية الذاتية للأشخاص بصفتهم القانونية الفردية أو الاعتبارية.

فالأمر لم يكن يتعلق بالاستيلاء على منقولات وأراضٍ وأنهار ومعابد وآلهة؛ مما يجعل من الشعوب المغلوبة عبداً بلا أرض، ولكن روما نذعت عن شعوب الشرق الأدنى حق الحياة في حضانة الشرائع، وطبقا لقوانينها اعتبرتهم لا يمتلكون الأهلية لأن يكونوا "أشخاصاً"؛ وإنما وحوش وحيوانات، لا تنطبق عليهم صفة البشر. ويبدو جليا أن هذا هو موقف إنجلترا في عام 1881 من قيام مجلس نيابي مصري وإعلان دستور، وهو الموقف غير المعلن من الذي حملته ولا زالت تحمله أوروبا الاستعمارية ومن بعدها الولايات المتحدة الأمريكية في عالمنا الحديث.

ولد السيد المسيح بعد سبعة وعشرين عاماً من إعلان الإمبراطورية، حيث مملكة الأرض المدنية قد

بلغت شأنًا عالياً، وتبلورت في واحدة من ذرى التاريخ السياسي الإنساني. وكانت قد أصبحت أيضاً لعنة على شعوب العالم القديم، أشد قسوة من اللعنة التي أوقعها الرب (يهوه) على مخلوقه الضعيف آدم.

ولما كان الرومان من صنع جمهورية البشر، وحددوا حدود الحق البشري داخل الدائرة الرومانية، بالأحرى تتجاوز حدود مدينة روما، وقصروا الحق البشري على حق المواطن الروماني، وجعل كل من خارجها عبيداً ورفيقاً في مرتبة لا تعلق مرتبة الحيوانات، ليس لديهم ما يسترهم من شريعة تنظم بها حياتهم؛ الأمر الذي أفقد تلك الشعوب هويتها التي كانت قد قطعت شوطاً طويلاً في بنائها.

لروما مملكة في الأرض... والعبيد والبسطاء مملكة في السماء...

لهذا كان من الضروري أن يخلق جدل التاريخ للشعوب المقهورة مملكة أخرى، لا تقع هذه المرة في الأرض، ولكنها سوف تكون في السماء، يقيم على عرشها ملك أو قيصر. آخر، فقير بسيط من العامة لا يملك جيوشاً مؤلفة، ولا أسلحة من حديد ولا مجانيق، لا تعتمد قوته على عنف العشائر الرعوية، ولا نبالة الأسر العريقة السلالة، التي تجيد صناعة الحرب والفروسية، ولا الشعوب المحاربة، فقد قضت روما على كل هؤلاء، وأدلتهم، ونزعت عنهم كرامتهم، وباعت ملوكهم في أسواق النخاسة، وجعلتهم يجثون

على أقدامهم أمام قناصل منتخبين وأبناء بشر. ينتمون
لسلالة مميزة، فكان وفي مقابل أبناء البشر. المتميزين لا
بد وأن يزرغ من العدم المحض ابن الله.

كان عرش الملك الجديد غير مصنوع من ذهب أو
فضة أرضيين، ولا يقع في قصر. لمدينة تحيطها أسوار
وحصون وقلاع معلوم موقعها الجغرافي، حتى تقوم
روما بحشد فيالقها العسكرية والتوجه نحوها
لسحقها، كان عرشه في السماء، بجوار إله يدعو فقراء
الناس والمغلوبين والمقهورين لملكوته السماوي.
وعندما كتب عن العرش السماوي الجديد لم يفت
المخيلة في رؤيا يوحنا اللاهوتي وصف جهروته.

وعندما انطلق حوارى السيد المسيح بعد صلبه
وقيامته من جديد للتبشير بين شعوب الأرض، لم
يجدوا صعوبة في الدعوة بين بشر. بلا كينونة نزع
إنسانيتهم، وكشفت عوراتهم، ونضت عنهم الشريعة
التي اخترعتها البشر. للحفاظ على كيانها وبقائها
الاجتماعي، إلى دين شريعته ما حجبته روما عن البشر.
وهو (المحبة). إلى مملكة موقعها في السماء،
وموعدها مع البعث بعد الموت، وفردوسها هناك
بجوار الرب الأعلى، لكن البداية كانت بين العبرانيين.

لعنة التيه

قبل سقوط أورشليم في القرن الخامس قبل الميلاد
على يد نبوخذ نصر، تنبأ النبي أرميا بضياح تابوت
العهد وفقدانه وفقدان ما يحتويه إلى الأبد، فيقول: إن
أياماً ستأتى يبحث فيها عن تابوت الرب "في تلك الأيام
يقول الرب: "وحيث تكثرون وشيرون في الأرض لا يتحدثون بعد عن
تابوت عهد الرب، ولا يخطر لهم بال ولا يذكرونه ولا يفتقدونه ولا

صَعَّهٗ أَحَدٌ ثَانِيَةً. لِأَنَّ أُورُشَلِيمَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ تُدْعَى عَرْشَ الرَّبِّ،
وَيَجْتَمِعُ إِلَيْهَا كُلُّ الْأُمَّمِ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَا يَسَاقُونَ مِنْ بَعْدُ وَرَاءَ يَتَاتِ
قُلُوبِهِمُ الشَّرِيرَةَ" أرميا(17:16-3).

ومع ضياع تابوت العهد لن يكون هناك إناء يحوى
المن، أو عصا هارون المثمرة، وسوف يفقد اللوحان
اللدان كتب عليهما الرب وصاياه بإصبعه.

ومن المنطقي أن شريعة السيد المسيح لن تكون في
حاجة إلى رموز مادية ضاعت، ولم تثبت قدرتها على
البقاء أمام الزمن، مثلها مثل الأهرامات التي كانت
شاهدا على حضارة عظيمة، حاول الإنسان مستنداً إلى
قدرة مجتمعه الأكثر ضخامة أن يصنع خلوده، وفشل
على المستوى "الروحي أو المعنوي" مكتفياً بترك
معايره الأخلاقية تعمل في ثقافات الشعوب الأخرى
ودياناتها، ورؤى الفلسفة حول الأخلاق والضمير.

ومن المثير للتساؤل كيف يمكن ضياع ما سبق أن
حماه الرب بنفسه، وسكن السحابة التي ظلته،
وتحدث وهو جالس بين الملاكين إلى نبيه موسى، إلا
إذا كان لضياع تابوت العهد معنى ودلالة رمزية على
نقض شعب الله المختار لعهدهم مع الرب، أو تعبيراً
عن غضب الرب على شعبه الذي عصاه، لكن العهد
الجديد أعاد تفسير ضياع تابوت العهد في سفر الرؤيا
ليوحنا اللاهوتي، الذي قال في رؤياه: "وانفتح هيكل الله في
السماء، فظهر تابوت العهد في الهيكل، وحدثت بروق وأصوات
ورعود وزلزل، وسقط برد كثير" ... رؤيا(11:19)

إن يوحنا اللاهوتي يخبرنا أنه رأى تابوت العهد في
الهيكل الجديد الذي أصبح وسع السماء. فالتابوت

موجود، ولكنه غادر الأرض ليصعد ملكوت السماء، وذلك في إشارة إلى إتمام كامل لشريعة العهد القديم التي يرمز لها تابوت العهد، وظهور شريعة جديدة استبدلت الطابع المادي للتابوت، بالمعنى الواسع إلى شريعة إيمانية تعتمد على معاني روحية مجردة في القلب منها "الحبة".

عقيدة الموت

يقول إدوارد جيتون صاحب كتاب اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية عن الديانة اليهودية: (لم يكن من شيمة اليهود، ولا إلههم، حب الغير). كما لم تستطع الجهود الفلسفية لدى الفلاسفة الرومان واليونان أن تخطو إلى أكثر من الإشارة الباهتة إلى الرغبة أو الأمل أو احتمال حياة مستقبلية فيما بعد الموت، أما جهنم فقد خص بها خيال الرسّامين والشعراء. ونذر أن اعتبر الأتقياء في اليونان وروما نظرية (الحياة الثانية) ركناً أساسياً من الإيمان، ومن الطبيعي أن نتوقع أن يكشف هذا المبدأ الأساسي في الديانة التوراتية بأجلى معانية للشعب المختار في فلسطين، وأن يُعهد به إلى كهنة هارون الوراثيين، وكان حتماً أنه مقضيّ علينا أن نعبد النواميس الخفية للعناية الإلهية، وهو ما لم يحدث، على حين نكتشف أن نظرية خلود الروح ليس لها وجود في شريعة موسى، لقد اقحمها الرسل خلصة، في الفترة الطويلة بين الاستعباد في مصر. وفي بابل، يبدو أن آمال اليهود ومخاوفهم كانت محصورة في الدائرة الضيقة للحياة الراهنة، الحياة الدنيا، وقد التزمت الطائفتان الرئيسيتان (الصدوقيون)، و(الفريسيون) بالمعنى

الحرفي للشريعة الموسوية، وأنكروا عن ورع وتقى خلود الروح باعتبارها فكرة ليس لها سند في التوراة. وقد جذبوا بصرامة سلوكهم جمهرة الشعب اليهودي، لكن هذا المزاج تغير تحت حكم ملوك (الأزمنيين) وأحبارهم... وظلت نظرية الحياة والخلود التي فرضتها الطبيعة، وأقرها المنطق، ورحبت بها الخرافة، في حاجة إلى ضمان وسند وإلى حقيقة إلهية ترجع إلى السيد المسيح والمثل الذي قره على نفسه⁽⁸⁷⁾.

ويبدو أن إدوارد جيبون كان جاهلاً بالديانة المصرية القديمة، فهو كتب كتابه عن سقوط الإمبراطورية الرومانية في القرن التاسع عشر، حيث كانت كشوف الحضارة المصرية القديمة في بداياتها، فغاب عنه أثرها الحاسم في المسيحية، فعقيدة البعث بعد الموت مصرية خالصة. ولا يمكن أن تكون مرجعيتها لغير المصريين القدماء. وعلى أية حال، تخلت المسيحية عن عقيدة الموت العبرانية، في تصور مسيحي عن نزول الرب يسوع لهدو البشر. عن الخطيئة التي أوقعتها عليهم لعنة الرب (يهوه) بالموت، وقد أعاد للبشر هبة الخلود بالبعث بعد الموت كي يقيموا في فردوس السماء وملكوت الرب.

* * * *

(87) GIBBON'S إدوارد جيبون - DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - الجزء الأول - ترجمة محمد على أبو درة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية 1997 صفحة 275 / 274.

الشريعة الجديدة

في ناموسه يرتفع المسيح العبراني السلالة، اليهودي الدين بالناموس التوراتي إلى ناموس جديد هو "روح الحياة" لقد أعتق السيد المسيح البشر، وحررهم من (ناموس الخطية والموت) أي الناموس الموسوي إلى ناموس البعث بعد الموت. وأنه بنزوله من السماء ليرتدى الناسوت، والتبشير بين بني إسرائيل بقدمه، ورفضه الأوضاع التي آلت إليها حياة الشعب اليهودي، وهجومه على الكهنة، ومحاكمته من قبلهم، والسير على طريق الآلام، وصلبه على رابية بالقرب من أورشليم تدعى "الجلجثة" فخرج يحمل صليبه إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة... يوحنا (17:19).

وإذا كان الكتبة والفريسيون قد نقضوا الشريعة التوراتية بأن أضافوا إليها من عندهم ما ليس فيها، ودفنوا الحق الإلهي تحت تلال من الشرائع البشرية، "التلمود" وهو ما يقع فيه كثير من رجال الدين حين يسعون إلى تعظيم دورهم الوظيفي الكهنوتي على روح الدين وعظمتها ذاتها، فينقضون الوصايا الكبرى والصغرى بالتحجج عليها بأن يحفظوها ويجعلوا منها طقوساً وفرائض ويتفرغوا لتلقينها بعد أن نزعوا عنها المغزى الروحي، كي يحلوا محل الروح الإلهية افتخارهم بأنفسهم واحتقارهم الآخرين، فكانت النتيجة إنهم نسوا الحق والرحمة، قال السيد المسيح لهم: "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون؛ لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون، وتركتم أثقل الناموس، الحق والرحمة والإيمان" متى (23: 23).

"العظة على الجبل"

القاعدة الكاملة للحياة المسيحية المثالية

يقول القديس أغسطينوس أسقف هبّو-354 (430 م) عن "العظة على الجبل" التي ألقاها السيد المسيح على قمة جبل قرن حطين، ودونها القديس متى في الإصحاح الخامس والسادس والسابع؛ إن هذه الموعظة هي القاعدة الكاملة للحياة المسيحية المثالية؛ إنها الشريعة الجديدة، التي قال فيها السيد المسيح: لا تَنْظُوا أَبِي جِئْتُ لَأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوْ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لَأَنْقُضَ بَلْ لَأَكْمَلَ" متى (5: 17).

في القتل

في شريعة موسى تقول الوصية السادسة "لا تَقْتُلْ" خروج(13:20). وأنزل "يهوه" إله موسى عقابه علي من يرتكب جريمة القتل بالقتل "أَنْ سَفَكَ دَمَ الْإِنْسَانِ سَفَكَ الْإِنْسَانَ دَمُهُ. فعلى صُورَةِ اللَّهِ صَعَّ اللَّهُ الْإِنْسَانَ" تكوين(6:9). ولكن شريعة عيسى. لا تنقض وصايا موسى، وإنما تكملها بأن تنهى عن الغضب الذي يؤدي إلى القتل. السيد المسيح يتعمق في شريعته من الفعل إلى دوافع الفعل، فيساوي بين رذيلة الغضب وجريمة القتل "قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ: لَا تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ" متى (22-21:5).

في الزنا

وإذا كانت الطهارة في شريعة موسى "لا تزن" خروج (14: 20) فالسيد المسيح جعل من طهارة النظر واللمس ترقى للطهارة من ممارسة الجنس في الزنا، "قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ: لَا تَزْنِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ

إلى امرأةٍ لِيَشْتَهِيَها فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ. فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى
تُعْتَرِكُ فَاقْلَعِهَا وَأَلْفِهَا عَنكَ، لِأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلَا
يُلْقَى جَسَدُكَ كُلَّهُ فِي جَهَنَّمَ" متى (27-29:5).

في الصدق

علّمت الشريعة اليهودية ألا يحلف الإنسان باسم الرب كذباً؛ حتى لا يرتكب خطيئة تدنيس اسمه "لا تحلفوا بأسمي كذباً ولا تدسوا اسمي، فإنا الربُّ إلهكم." لاويين (12: 19). وكان البعض من أبناء الشعب يحلفون بالسماء أو الأرض أو أورشليم؛ كي يهربوا من الوفاء بوعودهم، لكن السيد المسيح نهى عن أي قسم، مَنزهاً اسم الرب الذي هو موجود في كل مكان وزمان ويشهد على ما نقول، سواء حلفنا باسمه أم بغيره "أيضاً سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقِدَمَاءِ: لَا تَحْفِثْ، بَلْ أَوْفِ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ 34 وَأَنَا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تَحْفِظُوا الْبَتَّةَ، لِأَنَّ السَّمَاءَ لِأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللَّهِ، 35 وَلَا بِالْأَرْضِ لِأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ، وَلَا بِأُورُشَلِيمَ لِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ 36. وَلَا تَحْلِفُ بِرَأْسِكَ، لِأَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً بَيْضَاءَ أَوْ سَوْدَاءَ 37 بَلْ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ، لَا لَا. وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الشَّرِيرِ" متى (33-37: 5).

في التسامح

جاء في لاويين (17-22: 24) "إِنَّ مَلَأَن قَتَلَ إِنْسَانًا، نُقِتِلَ قَتْلًا، وَمَنْ قَتَلَ بَهِيمَةً، يُعَوِّضُ مِثْلَهَا رَأْسًا بَدَلَ رَأْسَةٍ وَمَنْ أَضَرَ بَأْخَرَ، يُفْعَلُ بِهِ كَمَا فَعَلَ؛ الْكَسْرُ بِالْكَسْرِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ، وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ، كَالضَّرْبِ الَّذِي يُنْزِلُهُ بِهِ. وَكَذَلِكَ كُلُّ ضَرَرٍ يُنْزَلُهُ الْإِنْسَانُ بِالْإِنْسَانِ يُنْزَلُ بِهِ مِثْلُهُ." "مَنْ قَتَلَ بَهِيمَةً يُعَوِّضُهَا، وَمَنْ قَتَلَ إِنْسَانًا يُقْتَلُ مُحْكَمٌ وَاحِدٌ يَكُونُ لَكُمْ جَمِيعًا، لِلدَّخِيلِ كَمَا لِلأَصِيلِ. أَنَا الرَّبُّ إلهكم"

هكذا حدّدت التوراة للقاضي أسس العدالة. لكن السيد المسيح سما بالشريعة التوراتية التي تعالج

الأحكام القضائية، نحو فضيلة الغفران، وإظهار المحبة وأمر بعدم مقاومة الشر، أو الانتقام من المسيء. "سَعِمْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِعَيْنٍ بَعِيْنٍ وَسِنٍّ بَسِيْنٍ. وَأَمَّا أَنَا فَاقُولُ لَكُمْ: لَا تَقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْيَمِيْنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ، فَاتْرِكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيضًا. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيْلًا وَآحَدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنِيْنِ" (متى (41-38:5) قال أحد الحكماء "رد الشر بالشر. والخير بالخير عمل بشري. ورد الخير بالشر. عمل شيطاني. أما رد الشر بالخير فهو عمل إلهي".

المسيحية دين البشرية العالمي

أمرت شريعة موسى عشائر بني إسرائيل أن تقتصر. المحبة على أبناء الشعب اليهودي، ومن الممكن تفسير ذلك بأن النبي موسى ما كان يستطيع في ذلك الزمن دعوة الشعبين المصري وشعب ما بين النهرين إلى الإيمان بيهوه، فقد كان كل منهما محنطاً في عباداته ودياناته وآلهته؛ ولهذا اقتصر. على ما يمكن تحقيقه بالدعوة لدينه في قبائل بني إسرائيل، كما كانت الفوارق العرقية والسلالية للعشائر والقبائل أشد قوة من أن توحد بينهم ديانة ما وحيدة، وبخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الخروج العبراني تم بعد هزيمة ديانة التوحيد الأتونية، ويقال إن موسى كان أحد كهنتها، "لا تُثَقِّمُوا وَلَا تَحْتَدُوا عَلَى أبنَاءِ شَعْبِكُمْ، بَلْ تَحِبُّ قَرِيْبَكَ وَتُبْغِضْ عَدُوْكَ أَنَا الرَّبُّ" (لاويين (18:19) وهو ما يعني أن تقتصر. المحبة على أسباط بني إسرائيل فقط، وعليه أن يكره الأمم. بل الانتقام منهم ومن أبنائهم ومن أطفالهم وبقسوة مفرطة. جاء في العهد القديم - مزمور (137) "على أنهار بابل هناك جلسنا، فبكينا عندما تذكرنا صهيون. على الصنصاف في

وَسَطَهَا عَلَيْنَا كَنَارَاتِنَا. هُنَاكَ طَلَبَ مِنَّا الَّذِينَ سَبَوْنَا أَنْ نُشَدَّ لَهُمْ،
وَالَّذِينَ عَذَّبُونَا أَنْ نَفْرَحَهُمْ. قَالُوا: "أَنْشِدُوا لَنَا مِنْ أَنْشِيدِ صِهْيُونِ،
كَيْفَ نَشُدُّ نَشِيدَ الرَّبِّ فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟ إِنْ نَسِيكَ يَا أُورُشَلِيمُ
فَلْيَنْسِنِي يَمِينِي. لِيَلصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي إِنْ كُنْتُ لَا أَذْكُرُكَ، إِنْ كُنْتُ لَا
أُعْلِي أُورُشَلِيمَ عَلَى ذُرُورَةِ فَرْحِي. أَذْكَرُ يَا رَبُّ بَنِي أَدُومِ يَوْمَ سَقَطَتْ
أُورُشَلِيمُ. قَالُوا: "أَهْدِمُوهَا، أَهْدِمُوهَا حَتَّى أَسَاسِهَا، يَا ابْنَةُ بَابِلِ الصَّائِرَةِ
إِلَى الْخُرَابِ، هَنِيئًا لِمَنْ يُعَاقِبُكَ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ بِنَا. هَنِيئًا لِمَنْ يُمَسِكُ أَطْفَالَكَ
وَيَضْرِبُ بِهِمُ الصَّخْرَةَ".

وتوضح هذه الآية القسوة المفرطة التي يحملها
العبرانيون لأعدائهم. والتوراة مثقلة بالعنف الموجه
تجاه خصوم العبرانيين، بتعضيد وموافقة تامة من
الرب، ولذلك لا تقل خصومة بني إسرائيل للجماعات
البشرية كراهية وعنفاً عن خصومة إله بني إسرائيل
"يهوه" لآلهة الشعوب الأخرى.

يبشر. السيد المسيح بفضيلة الغفران والمحبة
الإنسانية والتي تضم كل البشر. فيقول: "سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: *
تَحِبُّ قَرِيبَكَ، وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَاقُولُ لَكُمْ: *أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ.
بَارِكُوا لِأَعْيُنِكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ
إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ؛ فَإِنَّهُ
يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الْأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الْإِبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ.
لِإِنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمْ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ، فَمَايَ أَجْرٍ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ الْعَشَارُونَ أَيْضًا
يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟ وَإِنْ سَلَّمْتُمْ عَلَى إِخْوَتِكُمْ فَقَطْ، فَمَايَ فَضْلٍ تَصْنَعُونَ؟
أَلَيْسَ الْعَشَارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ هَكَذَا؟ فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ آبَاءَكُمْ
الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ" متى (48-43: 5).

قول السيد المسيح إن شمس الله تشرق على جميع
أبناء البشر، كما أن مطره لا يفرق عند سقوطه بين
الظالمين والأشرار، أليس هذا سبباً كافياً كي يكون

الإنسان قادراً على محبة الجميع، في سبيل أن يكون كاملاً مثل الرب. وهي صورة مخالفة عن الرب لدى العبرانيين، وكان السيد المسيح جاء ليدعو إلى إله غير إله بني إسرائيل.

شريعتي المحبة

عندما سأل أحد معلمي الشريعة السيد المسيح:
"وكانَ أَحَدُ مُعَلِّمِي الشَّرِيعَةِ هُنَاكَ. فَسَمِعَهُمْ يَجَادِلُونَ. وَرَأَى أَنَّ
يَسُوعَ أَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَى الصَّدُوقِيِّينَ، فِدْنَا مِنْهُ وَسَأَلَهُ" : "مَا هِيَ أَوْلَى
الْوَصَايَا كُلِّهَا؟ فَاجَابَ يَسُوعُ : "الْوَصِيَّةُ الْأُولَى هِيَ : اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلَ،
الرَّبُّ إِلَهُنَا هُوَ الرَّبُّ الْأَحَدُ. فَاحِبِ الرَّبَّ إِلَهُكَ بِكُلِّ قَلْبِكَ وَكُلِّ نَفْسِكَ
وَكُلِّ فِكْرِكَ وَكُلِّ قَدْرَتِكَ. وَالْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ : اِحْبِبْ قَرِيبَكَ مِثْلَمَا تَحِبُّ
نَفْسَكَ. وَمَا مِنْ وَصِيَّةٍ أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ" مَرْقَس
(12:32-28)

وبروح المسيح قال الرسول: "لِأَنَّ مَنْ أَحَبَّ غَيْرَهُ فَقَدْ
أَكْمَلَ النَّامُوسَ، لِأَنَّ "لَا تَزْنِ. لَا تَقْتُلْ. لَا تَسْرِقْ. لَا تَشْهَدْ بِالزُّورِ. لَا
تَشْتَه" وَإِنَّ كَانَتْ وَصِيَّةٌ أُخْرَى هِيَ مَجْمُوعَةٌ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ : "أَنْ
تَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ". الْمَحَبَّةُ لَا تَصْنَعُ شَرًّا لِلْقَرِيبِ، فَالْمَحَبَّةُ هِيَ
تَكْمِيلُ النَّامُوسِ" رومية (10:8-13). فروح الشريعة تسمو
على طقوسها، "فأذهبوا وتعلموا معنى هذه الآية : أريدُ رحمة لا
ذبيحة. وما جئتُ لأدعُو الصَّالِحِينَ، بَلِ الْخَاطِئِينَ" متى (9:13).
"عَامِلُوا الْآخَرِينَ مِثْلَمَا تَرِيدُونَ أَنْ يُعَامِلُوكُمْ هَذِهِ هِيَ خُلَاصَةُ الشَّرِيعَةِ
وتعاليم الأنبياء" متى (7:12).

* * * *

الفصل السابع جوهر الشرائع

نظرة على شرايع الشرق الأدنى القديم

ضم العالم القديم قبل المسيحية خمس منظومات من الشرائع والقوانين المدنية، مثلت القواعد التي من خلالها أدارت الجماعات البشرية القاطنة في الشرق الأدنى وضياف المتوسط طقوس حياتها اليومية، والمحافضة على بقائها. وقد انعكس هذا على مجموعة من التصورات الكلية والتي اتسمت تلك العلاقة التعاقدية بعدة جوانب مثلت المفارقة بين مفاهيم الحياة للجماعات الواقعة شرق وغرب المتوسط.

الشأن الأول - الإيمان بالآلهة:

تعتمد المعتقدات الدينية لحضارات الشرق الأدنى على إيمان الفرد بكونه جزءاً من عالم كوني كبير، أوجدته الآلهة وقامت على تنظيمه، وأن الخير والشر - لدى المصري القديم هو انعكاس للصراع بين النظام

والفوضى والظلام والنور، وعقد علاقته بها على إيمانه بقدرتها الكلية، وتعهد بعبادتها عبر إقامة المعابد، والمذابح، وتقديم النذور، والأضحية، والقرايين، وممارسة طقوس دينية كالطهارة، والصلاة، وحرق البخور.

ولأهمية الشرائع الدينية التي تعبر عن احتياجات الضرورة لدية جرى إضفاء القداسة عليها، وذلك بأن أصبحت الآلهة مصدرًا للشرائع، من غير مسموح للبشر. بخرقها، وإلا عوملوا معاملة الخارجين عن المجتمع حلت عليهم اللعنة، وعوقبوا عقاباً شديداً أثناء الحياة، أو بعد الموت.

وأن خضوع البشر. للشرائع الإلهية غير مشروط، لأن البشر. وكافة الموجودات الطبيعية مخلوقات للآلهة، فهي المنبع النهائي المطلق لكل قوانين الطبيعة، وهي التي ستتولى الحساب النهائي للسلوك البشري بالثواب أو العقاب، وفي هذه الحالة يتولى الكهنة تفسير الشرائع وتنفيذها.

بينما استمدت الشرائع أو القوانين المدنية اليونانية والرومانية قوتها من إيمان الفرد الحر بذاته وبكونه أساس الوجود، فضلا عن وجود سلالات تمييزية تؤمن بتفوقها وقدرتها على إدارة شؤونها اليومية، عبر إنشاء نظام سياسي يتكون من ثلاث سلطات:

سلطة يعبر عنها في مجلس تشريعي ينشأ من خلال انتخاب المواطنين الأحرار لممثلين لهم في مجلس الشيوخ، مهمته وضع وإصدار القوانين والتشريعات، التي تنظم الحياة اليومية للأفراد. وتحديد أطر العدالة

والعقاب، وسلطة قضائية ونظام قضائي يتولى الفصل في الجرائم والمنازعات، وسلطة تنفيذية ونظام يتولى تنفيذ القوانين والأحكام، وإدارة شؤون الحرب والسلم. وفي هذه الحالة يكون المواطن الحر هو صاحب السيادة في كافة الإجراءات السابقة.

الشأن الثاني - الحماية والمساندة:

في المقابل، يتوقع البشر. أن تقيهم الآلهة شرور الطبيعة القاسية وأخطارها في البر والبحر وداخل الغابات والبراري، وتحميهم من تقلباتها وتخفف من مصائبها المهلكة من سيول وفيضانات ومن الجفاف والحرائق والزلازل والبراكين، وكل ما هو غامض على الوعي الإنساني، كما يسعى البشر. باسترضاء الآلهة إلى جعل حياتهم اليومية أسهل، فتأتيهم بمحاصيل أوفر، أو تقدم الحماية لمن طلب منهم المعونة في الصراعات والفتن السياسية أو المساندة أثناء الحروب الجارية ضد جيرانهم حول موارد المياه، وفتح المدن ومعارك الغزو والسيطرة على القبائل والأمم.

الشأن الثالث - الشرائع:

يعد التعهد باتباع الشرائع والقوانين الوسيلة التي يحافظ بها البشر. على جماعاتهم ومجتمعاتهم من التفكك والانحلال، فيقومون بواسطتها على ضبط شؤونهم الاجتماعية كالزواج والأسرة والميراث والطلاق، ومعاملة الابناء واحترام الآباء، كما ينظمون المعاملات التجارية والعلاقات بين الأفراد والطبقات ومن بينها العبيد، ويسنون في سبيل ذلك القوانين والعقوبات.

الشأن الرابع - منظومة الأخلاق:

تضم الشرائع الخمسة قيماً أخلاقية عليا، ورغم ذلك يتفاوت المنظور الأخلاقي عند تناوله من داخل الجماعة البشرية أو خارجها، وتحدد منظومة الأخلاق صورة ونموذجاً للمواطن الصالح، داخل الجماعة.

وتعد المنظومة الأخلاقية تعهداً بشرياً أمام سلطة عليا إما أن تكون الآلهة، أو القانون، يقوم الملوك والكهنة والقضاة بإنابة عنها. وفي الشرائع الدينية يتعهد البشر بطاعة ملوكهم الذين أسبغت عليهم صفة القداسة، كالفرعون الذين عدوا كآلهة، وكلاهما بالضرورة (الآلهة والملوك) مهتم بالأمن الاجتماعي من خلال التكريس لنموذج الإنسان الصالح، الذي لا يمارس الرزية. بينما في الشرائع المدنية يتعهد المواطنون بطاعة القانون والسلطة السياسية.

والرذائل عدد من الأفعال الضارة مثل السرقة والزنا واغتصاب النساء والتعدي على الجيران وممتلكاتهم من أراضٍ ومحاصيل، وعدم سداد الديون، وتلويث المياه عند قدماء المصريين، والرشوة لكبار موظفي الحكومات النهرية ذات الطبيعة المركزية، والقضاء الفاسد، والظلم الذي يمارسه الولاة وطبقة النبلاء سادة الأراضي على العامة؛ هذه الرذائل الاجتماعية تثير غضب الآلهة وتوقع على مرتكبها أشد العقوبات، كأن يكون الموت مصيره أو سكن عالم الأشباح، وفي ديانات أخرى تكون النار مصيراً أدياً للظالمين ومرتكبي الشرور، وفي المقابل أصبح البعث بعد الموت والانتقال إلى الحياة في حقول البيلسان أو الفردوس السماوي أو جنة الرب المكان الذي يؤول إليه الأبرار

والأخيار الذين لم يرتكبوا شروراً أو معاصي للآلهة في حياتهم الدنيا .

* * * *

مغزى الشريعة

الجانب الميتافيزيقي

الماعت المصرية تقدم حياة مادية وإنسانية داخل كون ينطوي على نسق؛ فالعالم المادى والحى يشكلان وحدة منسجمة تسير في توازن، حياة البشر فيها مرهونة بالعمل الصالح. كان هناك بناء طبقى؛ فالملوك آلهة، يحيون في النظام الكوني المعبر عنه بالشمس. أما بقية الناس فمرد خلاصهم هو العمل الصالح فإما موتاً دائماً أو خلوداً في فردوس سماوى يشبه حياتهم الأرضية.

في الشريعة اليهودية، سوف نجد إلهاً غاضباً لشعب غاضب، وبغض النظر فسوف نجد الشريعة تتعلق أولاً بالجانب الإيماني الذي يتمثل في عهد من الرب بتحرير شعبه من العبودية. ووعده بأرض من اللبن والعسل، ومن جهة أخرى وبالمقابل هناك عهد من الشعب بالطاعة والإيمان والعبادة والطهارة وصلوات العبادة .

الجانب الموضوعي

الجانب السلوكي الأخلاقي في الشرائع المصرية القديمة تمثله حقيقة "الماعت"؛ فالعمل الصالح يعني أيضاً الحفاظ على أهم الموارد المادية للحياة، كمياه النهر، وضبط العلاقات الاجتماعية، فلا سرقة ولا قتل ولا زنا، ولا غضب، ولا اعتداء على علاقات الزواج

والأسرة والجيرة، وهو احترام وطاعة الآلهة، والملوك، والمعابد، والقرايين، والندور.. ضمير مغسول من كل خطيئة ومعصية، لمجتمع قائم على العمل الشاق والجدارة العملية والعلمية والتعاون والمشاركة. فإذا نظرنا إلى الشريعة اليهودية، وهو ما يتمثل في الوصايا العشر. نرى أنها تهدف إلى الحفاظ على لحمة الجماعة وترابطها، من العوامل التي تؤدي إلى التمزق والانحلال.

الجانب الحياتي

الحفاظ على الممتلكات والثروات المادية مثل قنوات الري، أو الماشية، وهو ما جاء في كل من التوراة والتلمود وبخاصة في المشناه، التي ضمت أقساماً ستة شملت فقهاً يخص الأعشار والتشريعات الزراعية والأعياد والصيام وأحكام يوم شبات وتقاليد وقوانين النساء وعلاقة اليهود بالوثنيين، أي بمن عداهم من الأمم، والتشريع المدني والجزائي وطريقة عمل المحاكم وتحليف الأيمان والأضرار والتعويض عنها، وشعائر التضحية والقرايين والهيكل وأحكام الصوم وسائر الطقوس الدينية، وأحكام الطهارة الشعائرية والنجاسة.

الجانب الرمزي

كانت الشريعة لدى العبرانيين دليل خلاص الشعب من أرض مصر وصحراء التيه، ويبدو هذا في رمزية تابوت العهد الذي قاد الشعب اليهودي إلى أرض فلسطين أرض اللبن والعسل، وقد تكلم التابوت سحابة أقام فيها الرب ذاته، وتقدمه غيمة سحاب نهاراً وعمود نار ليلاً، حتى بلغ نهر الأردن وعبر بهم إلى أرض الميعاد. وقد حظي التابوت الذي ضم التوراة

ولوحى الوصايا للذين كتبوا بإصبع الرب، ووعاء المن
وعصا هارون. بحماية الرب ورعايته، وتجلت سطوته
وحضوره في مواجهة أعداء الشعب وهزيمتهم.

لا تقتصر. قيمة قراءة التاريخ على التعرف على
جذورنا القديمة، وكيف تشكلت، ولكنها أيضا الطريقة
المناسبة للتعرف على ذواتنا الكائنة في الحاضر.

وحيث يتعين الإبحار في ذلك المحيط العاصف
المليء بالألغاز والأسرار فينبغي الحذر والتمعن؛ فكتاب
التاريخ قد يكون أكثر حقيقة أو أعمق زيفا.

فإذا فعلنا فيجب على المرء أن يتخلص من
المشاعر الشخصية، وانحيازاته المذهبية أو القومية
أو العرقية، وخاصة الدينية.

* * * *

الباب الثاني
الخروج من التاريخ

مقدمة : الوعي بالهوية

تتبلور أحد أهم معالم إشكالية الجماعة المصرية في الخطر الدايم الذي يهدد الوجود الوطني والقومي، من تمكن السياسات المهيمنة من إحداث زيوغ في القوى الاجتماعية المصرية، أطاحت بالتراكم الاجتماعي الذي نشأت بين أحضانه القوى الاجتماعية الحديثة في المجتمع المصري، خلال القرن والنصف الماضيين، وهو زمن قصير للغاية.

وقد ترتب على ذلك شيوع فوضى فكرية عامة، وحدوث تفكيك في الصراعات الكلاسيكية؛ الوطنية والطبقية والقومية والدينية إلى عشرات من الصراعات المذهبية والسياسية والطائفية والعرقية والمهنية والجنسية الطاحنة.

مظاهر تجليات الصراع

تجرى هذه الصراعات على قدم وساق داخل جسد الجماعة المصرية منذ هزيمة 1967 إلى حد الهوس المذهبي والطائفي، إنها حروب صليبية استئصالية تفتقد الحكمة وسعة البصيرة وأخلاقيات التسامح، هي لا تعرف التحالفات ولا التهادن، ولم تستسغ مفهوم "القبول بالآخر"، والاعتراف به، تغذيها عقائد مذهبية استبدادية تكبح الشكل الوحيد الذي يمكن أن يدير

هذا الجدل الاجتماعي والمذهبي بالوسائل السلمية، وهو الديمقراطي، وتظهر تجلياتها الصراع من خلال:

أولاً- الهويات المضمرة:

أحد تجليات الصراع هو الصراع المتواصل بين هويات مضمرة، تكشف عن نفسها على سطح وعي الجماعة، وتتجلى واحدة بعد الأخرى، وكأنها تتداول لعبة الكراسي الموسيقية، لكن الخاسر أو من ينتابه الضعف لا يغادر الحلقة أو اللعبة، بل يكمن في الظلال الاجتماعية واللا وعي الجمعي ليتحين الظروف المناسبة فيطفو على السطح، ويحتل أحد الكراسي الشاغرة من جديد.

ثانياً - استبداد الدولة البيروقراطية:

والتي بلغت شأنًا من التفسخ لدرجة خانت فيه مصالح وجودها، وشعبها، والمحيط الجيوسياسي الذي يحيط بها.

ثالثاً- الخطر الوجودي:

إن القوى المتصارعة قد بلغت شأنًا من الوعي يجعلها تقر بأن الخطر الذي يهدد الجماعة المصرية هو خطر وجود أو لاوجود، أن تكون أو لا تكون. وعلى الرغم من ذلك تظل متمسكة بحالة التمرس والرفض المتبادل.

عصر الاسترقاق الأعمى

لهذا ينبغي أن نقر أننا أمام "أزمة هوية"، لكن تفاعلياً للفهم المغلوط للمصطلح، سوف أستخدم عبارة "أزمة الشخصية المصرية" إزاء إشكالية الوعي بالذات وسوف يحيلنا هذا بالضرورة إلى التاريخ.

ذلك أن الذات الجمعية، ليست ذاتاً ميتافيزيقية، وأن ذات المصريين لم تتشكل في عالم الصور أو المثل الأفلاطونية؛ إنها ذات تشكلت بين ربوع الجغرافيا والتاريخ، بين دائرتي المكان والزمان، يشغل الفراغ الداخلي لتلك الذات وعى جمعى من الاستلاب، هذا الوعى الذي يشكل ويتشكل من المعتقدات والأديان ومنظومتى الأخلاق والسياسة، هو على حد ما جاء في النظرية الماركسية وعى فوقى وانعكاس لبنية اقتصادية واجتماعية تحتية.

لهذا سنعود إلى التاريخ سيد التشكيلات ورب النهايات الأساسية، سنعود إلى الفترة التي وضعت فيها الأسس المادية والمعنوية والشرعية والقانونية التي تضافرت جميعها لخروج الجماعة المصرية من التاريخ الإنسانى والعودة بها إلى ما قبل الحضارة، إلى الفترة التي دخلت فيها جماعة الفلاحين المصريين عصر- الاسترقاق الأسمى، ومنه إلى كهف الظلمة، الذي دخلته ولم تخرج منه إلا حديثاً، ونتيجة لتضافر عوامل كثيرة، مثل اكتشاف حجر رشيد وتعرف أبناء الفلاحون على تاريخهم القديم، وتبادل البعثات العلمية مع أوروبا، ومشروع محمد على الطموح لبناء إمبراطورية مصرية، لكن أهمها في رأبي وعلى الإطلاق، صدور اللائحة السعيدية في عام 1885 التي أتاحت تملك الفلاحين المصريين للأراضي، والدفع بأبناء العمدة ومشايخ القرى للترقى لرتب الضباط في الجيش، والتي

كان من نتائجها تكون قوى اجتماعية من أبناء البلاد
الأصليين⁽⁸⁸⁾.

* * * *

(88) وهو ما يدعو لإعادة التفكير مليا في التطور التاريخي الخاص للجماعة المصرية.

الفصل الثامن

جدل التاريخ

خلال الألف العام التي سبقت ميلاد السيد المسيح، شهد البحر المتوسط خمسة مكونات حضارية تاريخية كبرى، تحمل رؤى ميثولوجيه وبنى ومفاهيم ثقافية كلية، تحوي خصائص مختلفة أو متباينة هي انعكاساً لبنى مادية تحتية.

نشأت هذه الموجات الحضارية في أعقاب بعضها البعض، وذلك في عملية جدل تاريخية كبرى، انعكست في سلسلة من الصراعات والحروب والكبوحات المتوالية والتي لا تزال تعمل عملها في حياتنا المعاصرة حتى اللحظة الراهنة، وتأثرت كل منها بالأخرى تأثيراً عميقاً ومباشراً، كان في بعضه يأخذ سمات التماثل، والامتزاج، ومن ثم التوالد، أو الاستمرارية، ومن بعض آخر كان ذلك التأثير يتم بالمفارقة، والانحراف، والقطيعة والبتر والاستئصال، وفي ذروته العليا بلغ حد الكراهية والاشمئزاز والمقت.

وقد عملت هذه الثقافات في مجرى التطور التاريخي للمجتمعات الإنسانية الكائنة حول البحر المتوسط بفاعلية، ولا يزال وجودها العياني يؤثر تأثيراً مباشراً في تاريخ شعوب منطقة المتوسط وحاضرها، بل وحاضر العالم، حيث تبدو الصراعات والحروب الدموية وعمليات الاستئصال الجارية في اللحظة الراهنة بصورة تتجاوز كل معقول أو مفهوم، ليست سوى للاعبين قدامى يرتدون أزياء حديثة.

وفي كل الأحوال جاء ميلاد السيد المسيح، وكل من هذه الجماعات الثقافية في موقع بلغ شأنًا عظيمًا من تفاوت القوة، ومن بين هذه المكونات الخمس تربعت روما الإمبراطورية على مسرح التاريخ، أما البقية فقد وضعت رقابهم أسفل قدمها العسكرية الثقيلة، ودفعت بشعوب المنطقة وخاصة المصريين إلى كهف التاريخ بانتظار الطارق المجهول.

أسطورة العقاب

تجمع الأساطير المقدسة القديمة لدى شعوب العالم على قيام الآلهة بإنزال عقاب صارم على أولئك البشر. الذين يتحدون إرادتها، أو يقررون تغيير مصائر قدرت لهم سلفاً، كما تنبذ الجماعات البشرية وتوقع العقاب على الأفراد الذين يرفضون السائد والمألوف، وأولئك الذين يحاولون المساس بالنظام القائم أو القيم السائدة، يحدث هذا غالباً عندما يكون الخروج من أجل قيم جوهرية كالحرية أو العدالة أو طلب المساواة، لكن العقاب يكون عنيفاً وبالغ القسوة عندما يتعلق الأمر بصنيع إنسان يهدف إلى طلب "المعرفة".

برومثيوس الذي سرق النار المقدسة من الآلهة وأعطها للبشر.. والنار كناية عن "المعرفة" أو "الطاقة" التي غيرت حياتهم، وضعته الآلهة على إحدى قمم الجبال؛ كي تنهش كبده الطيور الكاسرة، وكلما نهش كبد تخلق له كبد ينهش من جديد.

سيريف الذي وقعت عليه الآلهة عقابا لجرأته على تحديها وخداعها بحمل صخرة يصعد بها من سفح الجبل إلى قمته، فما إن يبلغ قمته حتى تسقط من جديد، ليعود ويحملها مرة ثانية وثالثة ومائة تعبيراً عن لانهاية الشقاء الأبدى.

أوديب الذي تزوج أمه فكان عقابه أن يقق عينيه بيديه، وأن تعاقب ذريته بالموت الفاجع. ولم يشفع له أنه لم يكن يعلم شيئاً عن العلاقة الشائنة بينه وبين أمه.

آدم أبو البشر: يحيى سفر التكوين (الإصحاح الثالث من الكتاب المقدس العهد القديم)، قصة اللعنة الأشهر والعقاب الذي أوقعه الرب (يهوه)، على آدم وحواء بسبب تناولهما من شجرة المعرفة التي حذرهما من عدم الاقتراب منها، منذ تلك اللحظة انتهى عصر البراءة الذي عاشه كل من الأم والأب الأوليين فمارسا طبيعتيهما. فعوقبا على معرفتيهما بطبيعتيهما بالطرده من الجنة، وحلت عليهما لعنة الرب، وهي الحياة في الشقاء والموت الأبدى، فلا فردوس ولا خلود، يقول:

(1) وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الْإِلَهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» (2) فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ

ثَمَرَ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَاقِلُ، (3) وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللَّهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمْسَاهُ لئَلَّا تَمُوتَا". (4) فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا (5) بَلِ اللَّهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمْمَا وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرِ وَالسَّرِّ». (6) فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. (7) فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْزَاقَ تَيْنِ وَصَنَعَا لِأَنْفُسِهِمَا مَازَرَ. (8) وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَأَخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الْإِلَهِ فِي وَسْطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. (9) فَنَادَى الرَّبُّ الْإِلَهِ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟» (10) فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَأَخْتَبَيْتُ». (11) فَقَالَ: "مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟" (12) فَقَالَ آدَمُ: "الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ". (13) فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهِ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ» (14). فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهِ لِلْحَيَّةِ: «لَأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وَحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ وَتَرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. (15) وَأَضْعُ عِدَاوَةَ بَيْنِكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقْبَهُ». (16) وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: "تَكْثِيرًا أَكْثَرَ أَتْعَابِ حَبْلِكَ، بِالْوَجْعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجْلِكَ يَكُونُ اشْتِيَاقُكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ". (17) وَقَالَ لِآدَمَ: "لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الْأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالْتَعَبِ تَأْكُلُ

مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. (18) وَشَوْكًا وَحَسَا تَنْبِتُ لَكَ،
 وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. (19) يَعْزِقُ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خَبْرًا حَتَّى
 تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَخَذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى
 تُرَابٍ تَعُودُ". (20) وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَاءَ» لِأَنَّهَا
 أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. (21) وَصَنَعَ الرَّبُّ الْإِلَهَ لِآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً
 مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا. (22) "وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهَ: "هُوَذَا
 الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ
 لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ
 وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ". (23) فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهَ مِنْ جَنَّةِ
 عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا. (24) فَطَرَدَ الْإِنْسَانَ،
 وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنِ الْكُرُوبِيمِ، وَلِهَيْبِ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ
 لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ".

وللمصريين لعنتهم

لا تحكى لنا الميثولوجيا المصرية عن لعنات كبرى
 مؤثرة، فلم يكن في الديانة المصرية القديمة فرودس
 بدنى، ولا خلاف بين الرب وأبنائه، بل إنه خلقهما من
 دموعه هو؛ درءاً للوحدة التي كان يعيشها قبل خلقهم،
 ولا تحدثنا الأساطير المصرية القديمة عن معصية
 يعاقب عليها من قبل الآلهة، ولم تكن أرض مصر
 ملعونة؛ فالحياة لدى المصريين نسق من وفرة شروط
 الحياة، وهم يعملون بكد فيثابون بالحياة الطيبة، فما
 اللعنة المصرية؟

هرب من أجل الخلود

على عكس العبرانيين الذين اكتفوا بقبول الموت،
 حارب المصريون من أجل الخلود، وكان آدم قد فعل ما
 نهاه الرب عنه، وأكل من شجرة المعرفة فأنزل عليه
 الرب عقابه، وطرده من الجنة حتى لا يأكل من شجرة

الْخُلُودِ فَيَصِيرُ خَالِدًا مِثْلِهِ. وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهِ: «هُوَذَا
الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِّنَا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالْآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ
وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ.» (تكوين
3:22)

فبعد عالم مستقر نشأ المصريون في رحابه، عشقوا
في أثنائه حياة الجدارة التي عاشوها، وبسبب من فرط
جمال الحياة التي قدمتها لهم الطبيعة الأم، وجهاوا كل
طاقاتهم لحرب وجودية لم تشهدا البشرية من قبل
ولن تشهدا فيما بعد، وإن كان ذات أثر بليغ على
التصورات الدينية التالية.

البعث بعد الموت

منذ زمن مبكر أمن المصريون من خلال مشاهداتهم
اليومية بفكرة "البعث" بعد الموت، فجعلوا من الموت
خصماً لدوداً لهم، وجندوا كل طاقاتهم المعرفية
والعملية في الحرب ضده، فعكفوا يستعينون بوعيمهم
المعرفي، وخبراتهم العملية العريقة والطويلة، في تأكيد
عالمهم الميثولوجي، وطبقاً لمفهومهم الميثولوجي
حول ثنائية الروح والجسد، وحيث إن العقل الإنساني
لم يستوعب قط روحاً بلا جسد، وإنساناً بلا حواس،
وأعضاء تفتى بعد الموت، وجدوا أن عليهم الحفاظ
على الجسد الذي كان كساء للروح أثناء الحياة، كي
تجده الروح عند البعث، فبلغوا شأناً عظيماً عالياً في
أسرار الكيمياء وتحنيط الجسد وعلومه. ولما تمكنوا
من الحفاظ على الجسد من التحلل والفساد بصورة لا
تزال مجهولة، حتى شيّدوا على امتداد الوادي آلاف
الأهرامات المصنوعة من الأحجار الثقيلة الضخمة
كمقابر تحفظ فيها الجثث، وعلامات تسترشد بها

الروح على الجسد عند البعث، حتى بلغوا معجزتهم الكبرى في الدولة القديمة في أهرامات الجيزة الثلاثة.

في بداية الدولة القديمة كان الامتياز الخاص بحق الخلود حكراً على الملوك، غير أنه مع حلول الدولة الحديثة، أصبح لجميع الطبقات الاجتماعية الحق في الحصول على حياة أبدية طبقاً لشروط المحكمة الأوزيرية⁽⁸⁹⁾ وأصبحت الغاية النهائية لدى الملوك والفقراء على السواء بلوغ عالم الخلود.

صنع الملوك والأثرياء من الطبقة العليا توابيت من أفضل أنواع الرخام والجرانيت، وكتبوا على جدرانها الحجرية الصلدة -وهو أمر شاق- رقيات كثيرة لتحمي الميت من الأشرار الذين سوف يعذبون بجثته، وهو مسافر عبر نهر الظلام وعالم الموت في طريقه إلى العالم الأخرى، وحفروا ورسموا علامات وإشارات تستدل عليها الروح عند البعث.

وأعقب الدولة القديمة انهيئات واسعة، وبدا بالخبرة العملية أن الأهرامات الإعجازية التي لا تشيخ لا تجيب عن سؤال الوجود. وبعد عصر بناء الأهرامات اكتفى الملوك بالمقابر الملكية المحفورة في قلب الجبل، وكان الجمال ودقة الألوان تعبيرين عن التحول التدريجي من المفهوم المادى للخلود إلى مفهوم تجريدي، روى وقيمي. وكلما صعد الزمن بالمصريين، كانت الشواهد المادية العملاقة التي صنعوها بأيديهم تتحول إلى لغز لا يجيب عما ظنوه يقيناً، وإن كان

89 (أنا رويز Ana Ruiz روح مصر- القديمة - The Spirit of Ancient Egypt ترجمة :
إكرام يوسف -مكتبة الشروق 2006 - صفحة120.

النسق الكوني لا يزال باقياً في "الماعت" ومنظومة الأخلاق في الديانة الأوزيرية؛ ليبقى سؤال الوجود حائراً بلا إجابة.

ويبدو أن بني إسرائيل الذين عاشوا في ربوع مصر قروناً عديدة، تعلموا الدرس جيداً، ومن خلال رؤيتهم من الخارج للمصريين كجماعة، ربما تبين لهم عدم جدوي المفاهيم المصرية حول الموت والخلود والبعث والحياة الأخرى، فأسسوا ميثولوجيا دينية أقل تعقيداً، وأكثر بساطة مؤسسة على مفهوم يقع في ثنائية المعصية والعقاب، والعقد المؤسس بين الشعب المختار مقابل العبودية للرب، وهو ما كان يعنى ترسيخ مفهوم عرقى يقوم على تميز سلالى منحه الرب لشعبه الذي اختاره، وتميز به على القبائل والشعوب والأعراق والسلالات الموجودة في منطقة الشرق الأدنى القديم.

أما المعصية فهي قضية ضبط السلوك الجنسى. الأبوى، مقابل المشاعية السابقة. وأما العقاب فقد كان موجهاً لسادتهم من المصريين، وهو الأمر المرجح كحقيقة أشد سطوعاً من تخاريف الكهنة الفكرية، ومن الصروح الحجرية للتوابيت العملاقة المشيدة في الأنحاء ولا تخصصهم. أما مفهوم التمييز المتمثل في الشعب المختار فهو الطريقة الوحيدة للحمة الجماعة العبرانية وضمها بعضاً إلى بعض، إنها الإسمت الذي يربطها ويعصمها من التفكك أمام قوة وجبروت الحضارتين المصرية والبابلية وانسحق الشعب اليهودي بينهما.

الخلود رغبة المصريين...

والموت خصم لا يقهر...

كان للنسق الميثولوجي الذي كونته الحضارة المصرية القديمة دور خالد في تاريخ الحضارة الإنسانية؛ فعلى المستوى المادى تركوا آثارا خالدة وإعجازية، تماثل المهابة والجلال للتاريخ الاجتماعى والثقافى لهذه الحضارة، وعلى المستوى الفكرى وهبوا الحضارة البشرية مفهوم البعث بعد الموت والعالم الأخرى، وربطوه بدقة كاملة بالسلوك البشرى الصالح، فى منظومة أخلاقية كانت طبقاً لعالم الإيجيبتولوجى (هنرى بريستند) فجراً للضمير الإنسانى، وهو لا يزال يعمل عمله فى الأديان اللاحقة وحتى الآن.

وفى الوقت نفسه، قدموا دليلاً عملياً فى أهراماتهم الإعجازية ومعابدهم الهائلة وكدهم ودأبهم وبراعتهم فى النقش على الحجر ببنية تثير الإعجاب والحيرة، وفن التحنيط وحربهم المستميتة ضد "الموت" يكشف عن لغز عالم الوجود الإنسانى الذى ينبغى تجريده من الشواهد المادية كافة، التى عمل المصريون جاهدين فى الاستدلال بها على الخلود، حتى لو كانت الأهرام نفسها، حتى لو كان الجسد الذى يقاوم الفناء.

يقول أدولف أرمان Erman A: "لئن كان الشعب المصرى يختلف فى شيء عن غيره من الشعوب فإنما ذلك فى العناية بموتاه، فقد كان اليهود أو الإغريق لا يتحدثون كثيراً عن مصير موتاهم، على حين كان المصريون يفكرون فيهم بغير انقطاع، ولا يدخرون وسعاً فى العناية بهم، والاهتمام بسعادتهم. ويودون ألا تفى ذكراهم... على أن الأمر لم يقف عند حد العناية

البسيطة بالموتى، بل بلغ حد المغالاة... كبناء مقابر تماثل الأهرامات العظيمة، أو المحفورة في الصخر... وما كان الشعب المصري يبذل هذا المجهود على مدى ثلاث آلاف سنة لو لم تكن قد نشأت عوامل أخرى تتجلي فيما تصوره المصريون عن العالم الثاني (الأخر)⁽⁹⁰⁾.

لقد عبث القدر بالمصريين، عندما عملت معاول الدهر في الكشف عن مواطن الضعف في تصوراتهم عن الموت، لكن هزيمتهم في حربهم التاريخية لبلوغ حالة من اليقين بوجود عالم ما بعد الموت قد باء بالفشل الذريع، وبدا أنها غير ذى بال.

وفي جدل التاريخ، كان انهيار تلك التصورات المصرية حول الموت والخلود، طاقة سالبة أطلق العنان فيما بعد لكل من الفكر المادى والميتافيزيقي، في الفلسفة اليونانية، وفي الأديان السماوية لتتجاوزه.

التصور المادى انفجر بثورة من الشك في نهاية الدولة القديمة حول عالم الخلود ذاته، وتذكر البرديات تساؤلات حول "أن أحداً لم يأت من العالم الآخر ليخبرنا عنه".

التصور المثالى تحرك إلى مفهوم آخر، وهو أن القوة الكلية القاهرة التي تخلق الكائنات من العدم، قادرة على بعث أجساد تلك الكائنات بعد موتها من دون حاجة للاحتفاظ بها، لتلقى أرواحاً في الجحيم أو ترسل أخرى

(90) أدولف أرممان A. Erman ديانة مصر- القديمة - ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر - د. محمد أنور شكرى - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997 صفحة 286 - -

إلى الفردوس، كلُّ طبقاً لما فعله في دنياه. من الرماد إلى الرماد، ومن يرحل إلى الطين يبعث من الطين. 19 "عَرَقِي وَجْهَكَ تَأْكُلْ خُبْزاً حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَخَذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تَرَابٌ، وَإِلَى تَرَابٍ تَعُودُ" تكوين (3:19).

أقول الماعت

شكلت "الماعت" أساس الهوية الثقافية المصرية، والنسق الرؤيوي لأيديولوجية الحضارة المصرية، تربط ما بين العالم المعرفي الكوني، والعالم المعرفي للحياة وبخاصة إذا وضع في الاعتبار أن المصريين شكلوا مجتمعهم قبل التاريخ الميلادي بآلاف السنين، الماعت هي النسق الكلي للعالم الذي ولدوا وعاشوا وماتوا على ترابه، مجتمع منغمس في ديمومة من أنساق علائقية منظمة ومنتظمة في انسجام وتوازن معادٍ للفوضى. وهي نظرة ذات قيمة كبرى في الفكر الإنساني.

هذا العالم على قدر اتساعه كان له حدود طبيعية قاسية صارمة، وما بعده بيئة مترامية من الندرة تنعدم فيها الشروط الطبيعية للحياة؛ بيئة تكتسي. مظهر الموت، وتنطوي عليه، في الشمال البحر المتوسط، وفي الغرب صحراء تترامي حتى المحيط الأطلسي، وفي الشرق سلسلة جبال البحر الأحمر، وخلفها البحر الأحمر ثم صحراء شبه الجزيرة العربية الشاسعة الأطراف. أما الجنوب فكان مفازات من الصحراء ومراعي السافانا والأدغال المدمجة بالخطر. الجماعات البشرية التي كانت تقيم ما بعد تلك

المساحات الشاسعة كانت جد بدائية، وأغلبها لم يكن موجوداً.

وقد شكلت أسوار الطبيعة واقعاً لدى المصريين يجعل الوجود الكوني والحياتي داخل وادي النيل هو الوجود الوحيد في الكون، وأنه ليس ثمة حياة خارجه. لكن الصدمة التي جاءت مع التغيرات الكبرى على الجانب الشمالي من المتوسط أدت إلى اهتزاز العالم الذي عاشوا داخل جدارنه آلاف السنين، وعندما ارتفع صليل السيوف، ودقت سنابك الخيل القادمة من المجهول أبواب الوادي، كان المصريون قد سبق لهم خسارة معركتهم مع الموت من أجل الخلود، وتبين بوضوح أن العالم الجديد ليس مجرد هجرات قادمة من الشمال أو من الشرق، سوف تهضمها معدة وادي النيل العملاقة، فقد جاء الرومان الذين وضعوا نير العبودية في أعناق المصريين ومعهم رؤية ثقافية مغايرة، وضعت المصريين في ارتباك وحيرة، زعزعت معتقدات المصريين القديمة، فليس ثمة نظام ولا نسق، ولا توازن، ولا انسجام، ولا عدالة في عالم العبودية الجديدة.

أخذت صورة العالم لدى المصريين من سمات مادية، تتشكل من ثلاثية جوهريّة؛ المكان الجغرافي والزمان التاريخي، وخواء العالم خارج الوادي، وهو ما جعل الثقافة المصرية تركز عليه بيقين مطلق، لكن القرون الخمسة التي سبقت ميلاد السيد المسيح أخذت تفعل فعل التآكل في مصداقية هذا المفهوم وزعزعتة وخلق حالة من التشوش والاضطراب والضباب من حوله، ومع الوقت بدا أن اعتلال الماعت

ووهنها أمران حادثان لا محالة، وأن الفوضى قادمة لا ريب فيها.

في كتاب مدينة الرب للقديس أغسطين⁽⁹¹⁾ عنوانه (الحديث الكامل) للإله توت هرmez، إله الحكمة الصوفية، والذي تعود جذوره إلى عرف أدبي محلي مغرق في القدم، يحمل رؤيا لنهاية العالم، يتنبأ فيها هرmez (صورة السماء) و(معبد العالم قاطبة):

(يأتي زمن يبدو فيه لأبناء مصر أنهم عبثاً مجدوا آلهتهم بقلوب خاشعة وعبادة لا تكل، وحين يغادر الآلهة الأرض ويعودون إلى السماء، ويهجرون أرض مصر حينذاك هذه الأرض المقدسة، وطن المقامات والمعابد، سوف تغطيها القبور والأموات، إيه يا مصر لن يبقى من عبادتاك إلا الخرافات، وابتاؤك أنفسهم فيما يأتي من الزمن لن يؤمنوا بها، إنها القوة الإلهية تصعد مجدداً إلى السماء، أما البشر الذين تركوا لشأنهم فيموتون جميعاً، وحينذاك دون إله ودون بشر، لن يبقى من مصر سوى صحراء خاوية، وأنا إنما أخاطبك أنت أيها النهر المقدس، ولك أذيع ما تحمل الأيام المقبلة تخضم مضطرب من الدماء ترتفع في مجراك حتى الضفتين، ويكون الأموات أكثر بكثير من الأحياء، وأما من يُكذب له البقاء، فلن تدل على أنه مصري إلا لفته، وأما سلوكه فيكون سلوك ابن عرق آخر).

عجز المصريين عن فهم سنن التغيير

هذه نبوءة عراف تعبر عن أحوال المصريين قبل الغزو الروماني، لكن من المهم الإشارة إلى أن المصريين القدماء عندما حلت بهم سنن التغيير لم يفهموها، بل إنهم لم يستسيغوها، كانوا عاجزين عن أن يستوعبوا أحد أهم قوانين الحياة وهو التغيير، وكيف لهم أن

(91) نص قديم جاء في كتاب أواخر الوثنيين لبير شوفان.

يفهموا أن التغير سنة الكون، بينما كل شيء أمامهم هو حالة إعجازية من التكرار والديمومة. وأن ثقافتهم ظلت لمئات السنين أسيرة ثنائية تكرارية؛ نيل يحل في زمن معلوم، وشمس تبعث من الشرق كل يوم وتسبح في مركبها السماوي لتموت في الغرب.

العودة للكمون في رحم البقرة حتحور

كان عالمهم الجغرافي والميثولوجي وكل ما سطره التاريخ في وادي النيل من مفاهيم سامية، مثل النظام والحق والحقيقة والاستقامة والتوازن والانسجام، تحول إلى نسق كوني يحتوى المصريين القدماء داخله، مثل رحم البقرة السماوية المقدسة "حتحور". ومن ناحية أخرى سكنت الديمومة والأنساق العلائقية المرتبطة بالخير والعدالة روح المصريين. وعندما تناولتهم الخطوب، ونزعت عنهم ذاكرتهم اللغوية، أنزلوا بأنفسهم أشكالاً عقابية مثيرة. فتحولوا في العصور التالية لجماعة بشرية تحمل كرها شديدا لكنوزها ولتراثها المادى والروحي الذي صنعه على مر العصور، ولم لا؟ فقد خانهم العالم، ولم يبق أمامهم سوى الانغلاق عنه، والغياب في كهف اللاوعي.

من النظام إلى الفوضى

عندما فشل المصريون في فهم العالم الجديد خارج حدود ثنائية (الماعت - الوادي)، ولما كان من المستحيل على المصريين القدماء أن يتخلوا عن مفهومهم حول الكون بسهولة، أو أن تصبح محل شك وريبة، فلا شك أن العالم أصبح لغز كبيراً يصعب على الفهم. ومن المنطقي أن حالة كهذه من الوعي تخلق نوعاً من الارتكاس، والانطواء على الذات، حالة

جمعية من الارتكاس الجمعي. لقد خلقت وضعية الارتباط والالتصاق الشديد بين البشر. والوعي الفوقي، جبانة نفسية ثقيلة تحمل ثقل المكان والزمان والمعرفة، تدهور داخلها المصريون وتفسخوا، وقد حلت بعالمهم الفوضى، وبعد الكون صار التحلل والفساد.

العبرانيون

لم يكن العبرانيون في حاجة إلى أهرامات تزن أحجارها عشرات الآلاف من الأطنان يحملونها من أقاصى العالم لأدناه، وكان قد مر على بناء أهرامات الجيزة أكثر من ألف عام. لقد تعلموا الدرس، فلا مقابر ملكية ولا توابيت من الجرانيت والبازلت الصلب، يتم نحتها في صخور صلدة، في أرض ليست لهم، وجميعها أعمال شاقة يصعب على العشائر العبرانية تنفيذها، كقوة عمل غير مستقرة، وبسبب العجز لأسباب اقتصادية. كان العبرانيون في العالم الدنيوى قبائل رحلاً وقوماً بلا أرض، ليس لهم مستقر، ولا أرض تاريخية، ولدوا بها ونشأوا عليها، كي يدفنوا بها؛ فمصر. أرض "عبودية"، وبابل أرض "السي". فليس ثمة حاجة لمقابر، ولا للأهرامات تستدل عليها الروح عند البعث، ولا التعرف على علوم التحنيط لتحنيط جثثهم. فحياتهم عقاب على الخطيئة التي ارتكبتها المرأة الأولى عندما عصت الرب فحكم على نسلها بالموت، لذا كان الموت عقيدتهم، فليس ثمة بعث لفردوس في العالم الأخرى، ولا جنة يعود إليها الصالحون، وكل عهدهم مع الرب أرض ميعاد يثابون بها بعد العبودية في أرض مصر لقاء الطاعة وعبودية الرب ..

لهذا اكتفوا من الحضارة المصرية بتابوت وحيد من خشب السنط وهو نوع من الخشب الضعيف، وكسوة من ذهب خالص سرق بناء على أوامر الرب من عائلات المصريين الذين كانوا يعملون لديهم عبيداً، وربما يكون هذا له ما يبرره، جزاء عملهم بالسخرة، ويجب ألا نتجاهل المعنى المجازى لثورة تحررية من العبودية.

وفي تابوت العهد؛ هذا الرمز البسيط القيمة الكبير المعنى، وضع العبرانيون خليطاً من رموز مقدساتهم ورموز الحياة. أما بقية الشعب فقد اختصروا كل الميثولوجيا المصرية القديمة، واكتفوا بمفهوم الموت كعقاب إلهي لشعب مارس أجداده الخطيئة وعصوا إلههم.

حتى فكرة إقامة الرب في تابوت العهد، ليست بعيدة عن الثقافة المصرية القديمة، ففي توابيت أكثر فخامة حوت جثامين الملوك الآلهة، ولأنه لم تكن هناك جنة في العالم القديم سوى مصر، فمن المفهوم أن يكون الخروج العبراني من مصر. يعنى الخروج من الجنة المصرية؟ فهل كان الإله الذي حكم على بني إسرائيل بالنفي والطرده من الجنة فرعوناً مصرياً جرى نقضه بإله يحمى شعبه، كما يفترض أن يفعل الآلهة؟

على أي حال، جاء السيد المسيح والعبرانيون أيضاً في حالة تفسخ وانهيار، حاول آباؤهم الواحد تلو الآخر أن يعيدوا للعشيرة الصراط الصالح، لكن كل شيء تحول بين الكهنة إلى سلسلة لا تنتهي من تفاصيل.

الحضارة اليونانية هرب من أجل المعرفة

كرس الإغريق هزيمتهم لطرودة بتطور فكري وفلسفي وحضاري عميق، جعل الحضارة اليونانية من أهم الحضارات التي شهدتها الإنسانية، واستعانت الحضارات التالية بمنهجها العقلي في فهم العالم وعقلنته، وكان أهم الأفكار التي تأسست مبكراً والتي تقلب أساس الرؤية المصرية القديمة للكون والوجود قول بروتاغوراس (إن الحقيقة المطلقة لا وجود لها... والحقيقة كلها والخير والجمال، أمور نسبية وشخصية، وأن كل ما يوجد هو حقائق يعتنقها بعض الناس في ظروف خاصة، قد تكون متناقضة وتمثل في الوقت نفسه) حقائق متساوية في القيمة يعتقدها أشخاص مختلفون، أو في أزمنة مختلفة. فالإنسان هو المقياس الذي تقاس به جميع الأشياء، فهو الذي يقرر أن الأشياء الكائنة كائنة، وأن الأشياء غير الكائنة غير كائنة⁽⁹²⁾.

الحرب من أجل الحياة

وقد ترك اليونانيون القدماء موضع الخلود والموت جانبا، وشنوا حربهم من أجل الحياة. حرباً من أجل المعرفة الإنسانية، حتى إن سقراط جعل الفضيلة هي "المعرفة" وقال مقولته الشهيرة: "اعرف نفسك" التي غيرت مجرى الفكر الإنساني من النظر إلى العالم والوجود الخارجي، إلى النظر في الذات الإنسانية بوصفها وجوداً مستقلاً عن العالم المادي، "إنه فطام الطفولة البشرية عن الطبيعة الأم".

92 (ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- اليونان- المجلد الثاني -الجزء الثاني -ترجمة محمد بدران -دار الجيل - بيروت 1988 صفحة 214.

الأمر الأول- مفهوم مادي طبيعي:

وكما أشير قبلاً أن اليونانيين أزاحوا نظرة المصريين إلى الكون والوجود الإنساني جانباً، وانكبوا على وضع الحياة الواقعية نصب أعينهم من خلال مفهوم مادي طبيعي، وهو السمة التي جعلت الحضارة اليونانية تؤسس رؤية مختلفة عن الحضارة المصرية، فقد: اتخذت الفلسفة اليونانية موقفاً معادياً من الدين، وقللت من تأثير الآلهة في الأحداث الكونية، والظواهر الطبيعية، وأرجعتها إلى علل طبيعية يتصورها العقل، وهدمت مفهوم "الإيمان"، فكافحت ضد التقاليد الدينية، ونجحت في هدم "الخرافة" مستندة إلى ما أسمته "الحس والإدراك السليم". بعد أن أصبح النظر العقلي القائم على مفهوم السببية مدخلاً لفهم الظواهر الطبيعية، وجعلت العقل المدخل الوحيد للنظر إلى العالم.

الأمر الثاني- الطبيعة: التي أصبحت تمثل الأساس المادي للحياة.

الأمر الثالث- الفرد الحر:

في بلاد اليونان ارتفعت قيمته بصورة هائلة، فعندما أزيح الدين والآلهة جانباً، جاء الإنسان والنظم السياسية الديمقراطية ليشغلا الفراغ الذي تتضاءل فيه قيمة كل منهما، وتمكنت الفلسفة اليونانية من إدراك التناقض بين الفرد والدولة، وأن حقوقه كمواطن حر، تجعله يمارس نصيبه من النفوذ في الحياة العامة.

ولا شك أن النتيجة المباشرة عن هذا المفهوم انعكست على كل من فاعلية البشر. في العالم المحيط،

ومسئوليتهم المباشرة عن أفعالهم الخاصة، وعن النظم الاجتماعية والسياسية التي تمثلهم.

كان أهم مبدأ إنساني وجودي وضعته الحضارة اليونانية هو مبدأ الحرية الإنسانية، الذي يعنى فصل الذات الإنسانية عن الطبيعة والكون، وهو أمر مخالف لصورة المصرى القديم لذاته، إنه كل جزء من نسق عام، ونظام يرتبط فيه العالم الوجودى للبشر. بالعالم المادى للكون.

الأمر الرابع- نظام سياسى:

نجم عن هذا نظام سياسى لمجتمع من الأفراد الأحرار، يشكلون فيما بينهم وحدة اجتماعية بحكم أو بواقع الطبيعة، مؤسس على مبدأ سيادة الشعب، وقد حدد الفكر اليونانى أن هدف الدولة رفاهية مواطنيها.

الأمر الخامس- القانون فوق السلطة:

إن سمو بالقانون ليصبح فوق السلطة، أحد الإنجازات الكبرى فى تاريخ الحضارة اليونانية؛ فالقانون يعنى المساواة بين الناس، وإقرار العدالة فيما بينهم بغض النظر عن ثروتهم، وهو الأداة التى تكبح جموح السلطة، فالسلطة تخلق الطغاة عندما تكون فى يد أفراد، وتصنع الاستبداد عندما تكون فى يد ملوك.

لكن أهم سمات القانون اليونانى أنه قانون وضعى ليس للآلهة ولا الدين دخل فى تكوين مفاهيمه الرئيسية، وكانت الحضارات السابقة على اليونانيين تدمج القانون بالدين، فوجدت الشريعة، وأسبغ هذا عليها سمة القداسة، وهو أمر جدلي بين الشيء ومنتجه فى صورة الوعي به، وإذا أسبغت القداسة على

القانون بغرض حفظه؛ لكونه قادماً من قوى علوية، فهو أيضاً مرتبط بعقاب الآلهة لمن يخرق الشريعة.

ولأن القانون مثله مثل الشريعة في حاجة ماسة لقوة تحميه، فقد وجدت النظم الديمقراطية والمؤسسات النيابية المنتخبة من المدنيين الأحرار لتشريع القوانين وحمايتها.

الأمر السادس- الوعي بالحرية:

كان امتلاك اليوناني القديم لمفهوم الوعي بالحرية أثراً بالغاً على الحياة اليومية للناس؛ ولهذا شديد المواطنين دولتهم للتعبير عنهم كجماعة متساوية في الحقوق والواجبات. وكان هذا دافعاً لانخراط المواطن اليوناني في الشأن العام. ويرجع إلى الحضارة اليونانية صك غالبية التعابير السياسية المستخدمة حتى اليوم، وربما من أهمها مفهوم حكم الشعب، أو "الديمقراطية" الذي وهبته الحضارة اليونانية للجنس البشري، وهو أمر مختلف اختلافاً كلياً عن مفهوم "الماعت" المصري، أو مفهوم "الخطيئة- العقاب" العبراني.

وإذا كان العبرانيون أسسوا عباداتهم على التعهد بالطاعة والقبول الإيماني مقابل أرض الميعاد، وما خلا ذلك هو عقيدة الموت، فقد شنت الحضارة المصرية القديمة واليونانية كلاهما حرباً من أجل الحياة، على صعيدين مختلفين. فقد وضع المصريون القدماء كل طاقتهم العملية في هزيمة ما لا يهزم وهو الموت، في سبيل حياة خالدة. فأنشأوا المعابد والأهرامات والمقابر والتوابيت الحجرية، وحنطوا الجثث كي يحفظوها من

الفناء بانتظار البعث والحياة الأخرى الخالدة،
وأعادوا تشكيل الحجارة الصماء، ونقشوا بعناية فنية
فائقة رسوماً وكتابات تُساعد الروح في العثور على
الجسد الذي تم الاحتفاظ به، وتُمكن الميت من عبور
برزخ الموت إلى الفردوس الواقع في حقول إيارو؛ حيث
حياة الخلود التي سعوا بكل طاقاتهم المادية والروحية
والسلوكية إلى الولوج إليها بعد الموت، وكتبوا الرقي
والأشعار ونصوص البراءة من السوء والشرور، في سبيل
الكفاح من أجل الخلود وطلباً له. ولكن كان لليونانيين
شأن آخر.

أقام اليونانيون في مصر. عبر الرحلات أولاً ثم
الاستقرار ثانياً على ضفاف وادي النيل، والانخراط في
الحياة المصرية، واطلعوا على الرؤى الميثولوجية،
وشاهدوا عظمة آثار الحضارة المصرية المادية،
ودرسوا في جامعتها، وتعلموا على يد كهنتها عقائدها
ورؤاها الكلية حول العالم والوجود البشري ومفهومها
حول الفضيلة والخير والعمل الصالح وارتباط ذلك كله
بالآلهة والدين والبعث، في جنة يحيا فيها الإنسان
حياة كريمة خالدة. إن الأصل في استحقاقه الوجود في
ذلك الفردوس هو عمله الصالح في الدنيا، وطاعته لكل
من النظام والملك والآلهة. قال كبار ومشايخ حكمائهم
(إنى تكبر سني، وما فتت أتعلم)⁽⁹³⁾، ثم بعد ذلك بكل تقدير
واحترام بالقاء ذلك جانبا؛ ليؤسسوا عالمهم المبني على
حرية الإنسان في علاقته بالوجود، واستقلاله عن قوى
ما وراء الطبيعة. لكونهم اعتبروا أن تلك الحضارة

93 (ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- اليونان- المجلد الثاني -الجزء
الأول -ترجمة محمد بدران -دار الجيل - بيروت 1988 صفحة219.

تفتقد ما يعتبره اليوناني (جوهر الحياة وأعلى ما فيها، وهو الحرية-حرية الحياة والتفكير، والقول والعمل، فقد كانوا يرون أن الشعوب التي تحيط بهم تزرع تحت حكم الطغاة المستبدين، ويسلمون أرواح بنينهم إلى الخرافات والأوهام، ولا يعرفون القليل عن بواعث الحرية والحياة العقلية، وهو ما حدا بهم بأن يطلقوا عليهم اسم البربري (brabaroï) أي الهمج، فالهمج في اعتقادهم هو الذي يرضى بالاعتقاد دون تفكير، والذي يعيش مسلوب الحرية⁽⁹⁴⁾.

وعندما طرقت الجيوش الرومانية مصر، كانت طاقات المصريين الروحية والاجتماعية والاقتصادية والمادية قد استنزفت، وكانت جيوش الجمهورية الرومانية لم تأت في زمن مماثل لقدموم الحيثيين إلى مصر، أو جيش قمبيز، ولم يرفع قادتها أناشيد التقديس والتكريس في المعابد لآلهة المصريين التي قدمها الإسكندر المقدوني للديانة والآلهة المصرية.

ومنذ ذلك الحين سوف يتباين الاتجاه الذي سوف يسلكه التطور التاريخي، ووعي المصريين بالحياة، بصورة سوف تلقى بالمصريين إلى عالم الظلام الأبدى.

* * * *

الفصل التاسع

أنماط العبودية

التاريخ الاجتماعي هو تاريخ منتجي المواد الضرورية لوجود المجتمع... ولهذا لا تقتصر. علة التاريخ الحقيقي على دراسة أعمال الملوك وقواد الجيوش والغزاة؛ لأن التاريخ هو تاريخ الشعوب. ومفتاح تاريخ المجتمعات هو تغير طريقة الإنتاج. فالإنتاج دائم التحول والتطور، ولأنه لا يقف فترة طويلة في الوقت نفسه، وموضوع علم التاريخ هو العلاقات المتبادلة بين الطبقات التي تتمثل فيها علاقات الإنتاج ولاسيما السياسية. وليس هناك علم تاريخي لا يتساءل دوماً عن طابع علاقات الإنتاج وطابع الملكية، والطبقات الاجتماعية والربح الطبقي⁽⁹⁵⁾.

الإنتاج وبزوغ الطبقات

95) أجورج بوليتزر-جى بيس، موريس كافين-أصول الفلسفة الماركسية - الجزء الثاني - المادة التاريخية- ترجمة: شعبان بركات- المكتبة العصرية صيدا-بيروت صفحة (17 - 17).

الإنتاج أساس الوجود البشري، فهو الذي يسمح بإعادة إنتاج الذات أولاً، ومن ثم المجتمع. ففي المجتمعات البدائية تدفع الضرورة البشر كي يتمكنوا من إعادة إنتاج ذواتهم إلى البحث عن الغذاء، فعليه تتوقف قدرتهم على البقاء أو الفناء، لكن خلال البحث عن الغذاء، يجرى التأسيس لنشوء ثنائية العمل والملكية؛ فالإنتاج مرتبط بالعمل، لكنه يستجلب الملكية بالضرورة، وينشأ التناقض بين العمل والملكية، حين يستولى الملاك على فائض عمل الأجراء، ذلك أن "من يفتقد ملكية وسائل الإنتاج لا يمكنه العيش إلا إذا قبل سيطرة من يمتلكها"⁽⁹⁶⁾.

ظهور الملكية الخاصة

يعرف التاريخ ثلاث صور للاستغلال: المجتمع العبودي، والإقطاعي، والرأسمالي، وكان عمل الإنسان الأول هو النضال ضد الطبيعة، وبالأحرى الخروج من مملكة الحيوان ليخوض صراعاً ضدها بالصيد أولاً مستخدماً القوس والنشاب. والتدجين ثانياً، وبعد أن جرى تقسيم العمل بين الرعاة والصيادين، تم الانتقال إلى الزراعة بفضل الآلات المعدنية وبخاصة الفأس الحديدية وسكة المحراث. وبينما جرى التفريق بين المهن والزراعة، ظهرت صناعة الفخار والخزف التي مكنت الإنسان القديم من الاحتفاظ بالمؤن. وبهذا وفرت تربية الحيوان والزراعة مصدراً أكثر انتظاماً وغزارة مما يوفره الصيد البري. وجرى الانتقال من المجتمع الأمومي إلى المجتمع الأبوي الذكوري. وفي

(96) المصدر السابق. صفحة 14.

ظل هذه الظروف، ظهرت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ومن ثم انقسم المجتمع إلى طبقات⁽⁹⁷⁾.

اغتصاب الإنسان

الإنسان الذي بدأ التعرف على ذاته بالفطام من مملكة الحيوان عالمه الأول، شرع في صيد "الحيوان" رفيق عالمه القديم، وتدجينه واغتصابه واستخدامه لصالحه، ومع ظهور حرفة الرعي، عمل بعدها الإنسان في الطبيعة، باكتشاف الزراعة. لكن الزراعة كانت أيضاً تعبيراً عن اغتصاب الإنسان للطبيعة، وبعد ذبوع تدجين الحيوان والزراعة لم يعد العمل يتوقف عند تلبية الحاجات الضرورية المباشرة، بل أصبح ينتج فائضاً أعلى من حدود الاستهلاك الدنيا، فأصبح التبادل السلعي ضرورياً وممكناً، كما توافرت إمكانية تجميع الثروات في أيدي فئة قليلة. ولهذا أصبح من الضروري ضم قوى جديدة للعمل. وقد استلزم اغتصاب الطبيعة وزيادة الفائض العائد منها أمرين:

- **التوسع** وضم الأراضي والاستيلاء على الدول والممالك.

- **حاجة الأراضي إلى يد عاملة**، فقام الإنسان بثالث عملية اغتصاب في تاريخه، فبعد اغتصابه للحيوان ثم الطبيعة، قام باغتصاب صنوه الإنسان، ونزع عنه حرّيته، وارتكس به من مستوى البشر. إلى الشيء المنقول. وقد جاءت الحرب بهذه القوى الجديدة والتي تمثلت في أسرى الحرب، الذين تحولوا إلى أرقاء؛

(97) المصدر السابق (36-37).

فبدلاً من القضاء على القبائل المعادية بالموت والإبادة، جرد أسرى الحرب من السلاح وأصبحوا عبيداً، وأصبح عملهم يوفر فائضاً، ونشأ عن ذلك تقسيم المجتمع إلى طبقتين: الأسياد والعبيد، وأصبح بعض الأرقاء ملكاً جماعياً للذين أسروهم، وبعضهم ملكاً خاصاً⁽⁹⁸⁾.

في ظل هذه العلاقات لم يكن للأرقاء أن يملكوا شيئاً، وليس لديهم غطاء قانوني سوى قانون السيد الذي يملكهم، ويحق للسيد أن يشتري ويبيع ويجلد ويقتل العبد مثل الحيوان الذي يملكه. ولم تقبل القبائل من تلقائها الرق، ولم يذهب العبيد إلى أسواق النخاسة بمحض إرادتهم. وإنما تم تجريد الأسرى من السلاح، وأصبحت ملكيته مقصورة على السادة، وتولدت الأفكار الميتافيزيقية وكرست حق الأسياد المطلق على العبيد، حق المنتصر. على المهزوم. وأوحى للناس خشية الآلهة التي تعلم كل شيء إذا ما فكروا في خرق القوانين. وتم تكوين جماعات من رجال مسلحين "الشرطة" لمعاقبة الأرقاء الفارين.

وقد بلغ الواقع التاريخي ذروته مع ظهور "روما" الإمبراطورية العالمية. والتي كانت ذروة المجتمع العبودي وتمظهره. وفي المقابل، كان نضال الرقيق بدائياً، وانحصر. في السلبية أمام السخرة، والفرار من سلطة السيد، وتشكيل عصابات الطرق، وأخيراً الهبات الجماعية. ولم تحرم الكنيسة الرق فوجد في

(98) المصدر السابق 37.

المستعمرات حتى عام 1848، وفي الولايات المتحدة حتى عام 1864 .

الدولة

مع تشكل الطبقات يتحول الفرد إلى جزء في إطار الكل العام، الذي هو المجتمع؛ فالملاك يشكلون طبقة تتضمن تبلورهم الذاتي على مستوى مصالحهم الخاصة، والوعي بها والبنى الثقافية والدينية المترتبة عليها، وتؤكددها، وكذلك الطبقات الفقيرة، وفي هذه الحالة يتسع التناقض ليشمل كل البنية الاجتماعية، ويأخذ شكلاً أعلى هو المستوى السياسي، والمعبر عنه في الدولة. وكما تعمل الظروف التي تسود الجماعات البشرية على "نشوء علاقات بين البشر، أي تكوين وضبط البنية الاجتماعية، يفترض السلطة والقوانين"؛ حيث تتم السيطرة على الصراع بواسطة تعميم وعي الطبقة المسيطرة، ومع تطور المجتمعات تظهر الدولة.

مهمة الدولة التاريخية

ولدت الدولة لمواجهة المشكلات التي ظهرت مع ظهور المجتمعات وتطورها، وبغرض التقوية من سيطرة الطبقات المستغلة ونظام الملكية الذي يقوى امتيازاتهم. يقول إنجلز: "إن مهمة الدولة تخفيف النزاع بين الطبقات، وأن تحصره ضمن حدود النظام"⁽⁹⁹⁾.

الدولة بين يدي الطبقة المستغلة هي وسيلة إضافية لاستغلال الطبقات المضطهدة، ولهذا كانت

الضرائب والجزيات ومصاريف العدالة إلخ. وسيلة لحمل المضطهدين على دفع مصاريف اضطهادهم. وتكتسب الدولة من محتواها الاجتماعي الطبقي، إذا ما كانت دولة رقيق أو إقطاعية، وكل دولة هي ديكتاتورية طبقية.

الإمبراطوريات

مع الزراعة نشأ الاستقرار، وأصبح ممكناً نشوء الفائض، وبالتالي الملكية، وحيث إن كمية الإنتاج الزراعي وظهور فائض كبير مرتبطان بإعادة إنتاج البشر، وبالتالي كان التوسع في السيطرة على الأراضي الزراعية والمراعي ضرورياً. كان الصراع على الأرض ينتهي بسيادة قبيلة على القبائل الأخرى، وهو مقرون بتمييز فئة داخل القبيلة المنتصرة، وتشكل الطبقة الأرستقراطية التي تربع على قمة الدولة والإمبراطورية، التي تعلن تفوقها السلالي، وعبر نمو بطيء تتشكل الإمبراطوريات.

على أن التاريخ لا يتوقف، ذلك أن عوامل الهدم تفعل فعلها في الدولة - القبيلة أو المدينة- ويتم تدميرها عبر آليتي التفسخ والضعف والوهن الداخلي، كما حدث في مصر. واليونان، وقيام القبائل الواقعة خارج إطار الدولة بتدميرها، وكانت الدولة تدمر دائماً، ليعاد تشكيلها من جديد، وفي صيغة مختلفة باستمرار. وسوف ينعكس هذا تلقائياً في التصورات الدينية للحضارات المختلفة.

جاءت الجمهورية الرومانية مسلحة بكل النتائج المعرفي اليوناني الذي سبقها، وبعد أن نزعته عنه الطابع الفلسفي، مكثفية بالديمقراطية كنظام سياسي

متاح للقلة التي مثلت أرستقراطية العشائر الطروادية واللاتينية المستقرة على نهر التير. وأقاموا جمهورية جعلت من صرامة القانون أداة لتكريس التميز بين السلالات والطبقات، ولإدارة الشعوب، ولجمع الفائض من الولايات التابعة لروما، ولقمع الثورات والهبات، واستئصال شأفة التمرد. ومن الطبيعي أن نعرف أن القانون لم يعد تعبيراً عن العدالة، بأى وجه من الوجوه، بل كان أداة قهر إمبراطورى للشعوب المقهورة.

وينتمي هذا التفسير لقوانين الجدل الماركسي، وتصوره الأيديولوجى عن المادية التاريخية، لكن هذا لا يفسر. عديداً من حالات الشعوب التي وقعت تحت السيطرة الرومانية، وبخاصة الحالة المصرية، التي انتهت بجماعة الفلاحين المصريين إلى كهف التاريخ. ذلك أن بنية التفسير المادى لتطور المجتمعات تنحصر في كشف علاقات الرق في المجتمع العبودى في إطار (نبيل/رقيق)، أو (حر / عبد) .

لكن ما لم يشر. إليه، وهو النمط العبودى المصرى؛ ذلك أن روما وهي تعيد إنتاج المجتمع العبودى، لم تقتصر. على نمط واحد، بل أنتجت نمطاً آخر على الأقل لم يتم تفسيره بواسطة الفلسفة المادية التاريخية، (ربما لأن حدود معرفة ماركس ودراسته كانت مقتصرة على المجتمعات الأوروبية).

* * * *

أنماط العبودية

النمط الكلاسيكي

كان إنتاج العبيد إحدى السمات الرئيسية للجمهورية ومن بعدها الإمبراطورية الرومانية، وكان الجيش الروماني الأداة الرئيسية للإمبراطورية لإنتاج هذا النوع من السلع البشرية.

هذا وفي كل مكان من البلقان وآسيا وإفريقيا وغاليا وإسبانيا، باع قضاة المالية من الرومان بواسطة "الدلالة"⁽¹⁰⁰⁾، أسرى الجيوش التي انهزمت غنائم بشرية، كانوا ينقلونهم في مراكب كتيبة. وفي عام 167 ق.م، أصدر بولس أميليانوس⁽¹⁰¹⁾، أوامره باختطاف مائة وخمسين ألف شخص من سكان الأرض المحتلة وبيعهم "رقيق"، وقد أمر قيصر ببيع مليون من الغالين، وكانت لدى الرومان مصادر أخرى للتجارة السوداء، مثل قرصنة البرابرة واستيرادها، وعبودية الدين، وهي أمور لم ينج منها سوى المواطن الروماني، ولم تتضاءل تغذية الأسواق بالعبيد ما دامت روما قادرة على خوض حروب ظافرة، ويعتقد أن الذين دخلوا شبه الجزيرة الإيطالية بلغوا ملايين⁽¹⁰²⁾.

100 (الدلالة: مرافقو الجيوش من التجار.

101 (بولس أميليانوس: قدم لروما ذهباً مسكوكاً وفضة يناهز سبعين مليون درهم من الحروب التي خاضها في الفترة من (194 إلى 166 ق.م.) داخل شبه الجزيرة اليونانية.

102 Andre AYMARD et Jeannine AUBOYER أندريه إيمار -جانين أوبوايه HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS ROME ET SON EMPIRE تاريخ الحضارات العام- المجلد الثاني -روما وإمبراطوريتها -إشراف موريس كروزيه - ترجمة : فريد م. داغر - فؤاد ج. أبو ريحان- منشورات عويدات بيروت - باريس- الطبعة الثانية 1986صفحة178.

تدمير قرطاجنة

يتضح هذا النمط في إنتاج العبيد بوضوح في استئصال الجمهورية الرومانية الكامل لمدينة قرطاجنة من الوجود، والذي لا يقل عنفاً ووحشية عن أعمال هتلر في إبادة اليهود، أو قصف الولايات المتحدة النووى لهيروشيما ونجازاكي، أو أعمال الإبادة التامة التي يقوم بها الكيان الصهيوني في أرض فلسطين والشعب الفلسطيني. روما هي النموذج الكلاسيكي في حده الأقصى. للإبادة، وإنتاج رقيق كلاسيكي من الحالات الشائعة، حيث قامت روما بتهشيم جماعة بشرية منافسة، تملك وجوداً بحرياً وتجارة وحضارة وقوى عسكرية تمثل خطراً على الجمهورية، وتحويل النثار الناجم عن تهشيم قرطاجنة من أبنائها بالجملة إلى رقيق، لا مكان لهم ولا مأوى سوى سفن العبيد للبيع الجسدى والتلاشى المعنوى.

في 248 ق.م، وبحجة أن قرطاجنة تجرأت فتصدت لمشروعات "مسينيستا" أحد حلفاء روما التوسعية، اتهمها مجلس الشيوخ الروماني بأنها انتهكت معاهدة الصلح، وأعلنت الحرب، وتوجه مفوضون بونيون ومعهم كل الصلاحية بوضع مصير مدينتهم بين يدي روما، لكن روما توالى مطالبها، فقام القرطاجنيون بتسليم ثلاثمائة من أبناء قرطاجنة الأشراف تم اختيارهم من أبناء المجلس الكبير، وعصبة المائة رهائن، وعلى الرغم من ذلك "أبحر قنصلا الجمهورية على رأس جيش بلغ تعداده ثمانين ألف جندي وأربعة آلاف فارس إلى أوتريكا التي كانت

تحت الحماية الرومانية، وهناك طلب القنصلان من قرطاجنة تسليم عتادهم العسكري، فقبلت قرطاجنة صاغرة، وسلمت مائتي ألف قطعة سلاح، وكان هذا إعلاناً بالانتحار⁽¹⁰³⁾، وكان "ماركوس بورسيوس كاتون"⁽¹⁰⁴⁾ لا يفتأ القول: "العدو قريب من أسواركم. والآن أكرر عليكم أن قرطاجنة يجب أن ينالها الدمار". بعدها وجه قنصلا روما إنذاراً حازماً إلى مفوضي قرطاجنة» اخلوا قرطاجنة، انقلوا سكانها إلى أي مكان تريدون؛ شرط ان يبعد خمسة عشر كيلومتراً عن شاطئ البحر؛ لأننا عازمون على تدمير مدينتكم"⁽¹⁰⁵⁾.

وأمام ذهول المفاوضين قدم أكبر القنصلين سناً
أيضاحاً لسبب الحكم،

فقال: "إن منظر البحر لا يمكن إلا أن يذكر قرطاجنة بمصير عظمتها ويجرها إلى الأخطاء القديمة التي ارتكبتها في غزوها لصقلية وسردينيا وإسبانيا وإلى أنواع جديدة من الأسى. وأضاف: "إن الحياة الزراعية تقدم لروما طمأنينة أكبر من القوة البحرية. وبما أن التفوق البحري أصبح مقتصرًا على روما فإن من الأفضل لكم أن تتركسوا أنفسكم بهدوء لأعمال الحقول داخل إفريقيا"⁽¹⁰⁶⁾. وكانت النتيجة رفض قرطاجنة للشروط المستحيلة التي طلبتها روما.

103 (نجيب إبراهيم طراد - تاريخ الرومان - مكتبة ومطبعة الغد 1997 - صفحة 158.
104 (ماركوس بورسيوس كاتون: أحد وجهاء روما. قفرانسوا دوكره Carthage ou l'empire de la mer قرطاجنة الحضارة والتاريخ ترجمة يوسف شلب الشام دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر 1994 صفحة 189.
105 (نجيب إبراهيم طراد - تاريخ الرومان - مكتبة ومطبعة الغد 1997 - صفحة 159.
106 (فرانسوا دوكره Carthage ou l'empire de la mer قرطاجنة الحضارة والتاريخ ترجمة يوسف شلب الشام دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر 1994 صفحة 191.

دامت الحرب أكثر من عامين، وخاض الجيش الروماني حرباً داميةً حول قرطاجنة وقد ووجه بمقاومة شديدة، وفي ربيع 146 ق.م. استطاع القائد الروماني سيبو أميليانوس اقتحام أحد أسوار المدينة⁽¹⁰⁷⁾؛ حيث دارت الحرب عشرة أيام متواصلة قام خلالها ثمانون ألف جندي روماني باقتحام أسوار المدينة؛ حيث جرت معارك مخيفة في الشوارع التي كان يحيط بها أبنية من ستة طوابق، وسكانها يدافعون عنها من بيت لبيت، ومن الأقبية حتى الأسطح العالية، وخلال انهيار المدينة ببطء، كانت زمر من الجنود الرومان يحملون المعاول والرفوش ويسحبون الجثث من الأنقاض لرميها في حفرة، وبها جرحى لم يموتوا بعد. كانت قرطاجنة تضم سبعمائة ألف نفس، لم يسلم منها سوى خمسين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال، غادروا قلعة "بيرسا" في اليوم السابع، وسلموا أنفسهم بعد أن هزمهم الجوع والحصار، لرحمة العدو، فبيعوا مع من بقوا على قيد الحياة عبيداً في أسواق النخاسة.

آخر المقاومين لجأوا إلى معبد أشمون الذي كان يسيطر على الأكروبول، وألقوا بأبنائهم إلى النار، ثم أشعلوا النار في أنفسهم، وقد اختاروا الموت في الحرية على الحياة في العبودية.

"حين استولت روما على المدينة أمر مجلس الشيوخ الروماني بهدمها تماماً، وهدم كل المدن التي حاربت معها، وإعطاء أراضيها إلى حلفاء روما "أرض بلا

107 (نجيب إبراهيم طراد - تاريخ الرومان - مكتبة ومطبعة الغد 1997 - صفحة 160.

بشر." وجعل البلاد الخاضعة للجمهورية الإفريقية ولاية رومانية. أما سيبو "سكيبون" المنتصر الذي لقب بالإفريقي، فقد بكى مصير قرطاجنة الذي صنعه بيده، وبعد أن تاه طويلاً كما يذكر أبيان مفكراً في المدن والأمم والإمبراطوريات، أنها كلها من صنع الإنسان، وهي منذورة للزوال على يد الآلهة، وكأنه يبرئ نفسه ومجلس شيوخ روما من مذبحه جماعية للآلاف من البشر. واستئصال شعب من فوق البسيطة، وأضاف ما رددته من أبيات شعرية :

سيأتى يوم تهلك فيه إلبون المقدسة
ومعها بريام وشعب بريام برؤوس الحراب.

استمرت النيران تأكل قرطاجنة عشرة أيام، وعندما بلغ الأمر روما، نظمت احتفالات كبرى وسارع مجلس الشيوخ بإرسال لجنة تتولى تحويل الأراضي البونية في إفريقيا إلى ولاية رومانية⁽¹⁰⁸⁾.

يعتمد هذا النموذج القائم على تدمير القبيلة، أو محو المدينة؛ على استئصال هوية وكيونة الأسير، وهو عندما يباع في الرق، لن يعود هناك ما يشير إلى هوية العبد المباع والمشتري، والذي سوف يتلاشى أثره خلال عقود قليلة. سواء بالموت أو بالزمن، لهذا تظل العلاقة الكلاسيكية داخل المجتمع العبودي على النطاق الفردي بين نبيل يحفظ سلالته ويورثها ثروته ومجده وثقافته ومكانته وملكيته وأرضه واسمه

(108) فرانسوا دوكرية Carthage ou l'empire de la mer قرطاجنة الحضارة والتاريخ ترجمة يوسف شلب الشام دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر 1994 صفحة 193.

وجنسيته وسلالته وحريته، وبين عبد بلا هوية ولا ملكية و لا حقوق ولا انتماء تاريخي أو جغرافي ولا جنسية، وسوف يتمحور وعى العبد حول عالم سيده، وستكون الطاعة العمياء، والتبجيل المطلق هو جوهر السلوك العبودي، وسوف تتلاشى كينونته الذاتية لتتماهى في ذات سيده، بعد أن جرى سلب العبد هويته وتاريخه، وبعد أن نزع عنه أهم قواعد الحياة وهي حرية الاختيار بين الأشياء والقيم، ليصبح كل شيء مرهوناً بالسيد.

* * * *

النمط الثاني: عبودية الأمم (مصر)

كانت الحروب بين الأمم والقبائل على مراعى الكلاء، هي الطريق لإنتاج أسرى الحرب، ومن ثم الرقيق؛ حيث يحول المهزوم وعشيرته إلى أسرى حرب يباعون في سوق النخاسة؛ في مصر. اكتفت روما بالقانون، فكما قال القنصل الروماني إلى كبار قرطاجنة إن عليكم ترك البحر وتعملون بالزراعة؛ فالحياة الزراعية تقدم لروما طمأنينة أكبر، كان المصريون فلاحين منذ البداية. كما أن الأرض تحتاج من يزرعها، والنيل في حاجة لمن يروضه، والفلاحون المصريون أمهر من يفعل. والآن جاء وقت طرح السؤال: كيف حولت روما الفلاحين المصريين إلى أمة من عبيد؟

في شهر أغسطس من العام 30 ق.م. أي قبل ميلاد المسيح بثلاثين عاماً، وعلى الأراضي المصرية، دار الصراع الأخير الذي سيحول روما من جمهورية إلى

إمبراطورية عالمية؛ ففي معركة أكتيوم هزم أكتافويس قنصل روما الجيش المصرى المكون من التحالف القائم بين الدولة البطلمية ومارك أنطونيوس، انتحرت الملكة كليوباترا السابعة، عقب الهزيمة التي انتهت باحتلال روما لمصر، وكانت مصر جائزة الإمبراطور.

ومع ميلاد السيد المسيح، أصبح الرومان المحصلة التاريخية للمأزق الذي وقعت فيه الحضارة الفرعونية القديمة عندما اكتشف المصريون القدماء أن هناك عالماً واسعاً خارج ثنائية النهر والشمس "الماعت"، التي كان تضم في رحمها وادى النيل، وأن من فرض نفوذه على وادى النيل قادر على استبعاد بل استبعاد الشعب الذي أسس أول حضارة عظمى من التاريخ.

ومنذ تلك اللحظة، كان من الصعب على المصريين أن يدركوا أن قرار الإمبراطور أغسطس أكتافويس سوف يصبح قدراً ومصيراً ملعوناً، سيأخذ أعناقهم في كهف الاستلاب، وأنهم تحولوا نتيجة للترعة العنصرية المغالية للتطرف، وحتى منتصف القرن التاسع عشر. إلى أمة من العبيد، وملكية خاصة وعبيد جسد لكل الغزاة والفاحين الذين حكموا مصر. من بعد أغسطس أكتافويس إلى ما هم عليه الآن...

* * * *

الفصل العاشر قانون الفتح الرومانى

"يسلم للمنتصر كلاً من ذاته "الشخص
الاعتبارى والنفس" وكل الممتلكات العينية
الفردية والجماعية من وطن وأرض وأودية
ومراعٍ وأنهار وينايع مياه، وألهته وألهة
الجدود والمعابد التى تخص ديانتهم، وكل ما
ملكته يمينهم من نساء وأولاد عبيد"
ما يراه البعض خيراً مطلقاً، قد يكون لدى
الآخرين الشر ذاته:
قانون الفتح الرومانى: هو الشفرة السرية التى
حولت الجماعة المصرية من فلاحين أحرار إلى عبيد
أمم.

يذكر المؤرخ الكبير وول ديورانت صاحب الموسوعة الكبرى (قصة الحضارة): إن القانون كان أخص خصائص الروح الرومانية، وأبقى مظهر من مظاهرها، وكما أن اليونان أورثت المجتمع البشري أساس الحرية الفردية، فكانت مضرب المثل في الحرية، والتي تمثلت في الفلسفة وعلم السياسة والنظم الديمقراطية، فإن روما كانت مضرب المثل في النظام وأورثتنا شرائعها، وتقاليدها الإدارية لتكون هي أساس النظام الاجتماعي.

واعتبر ديورانت أن هدف الحضارة المعاصرة هو (الجمع بين التراثين اليوناني والروماني المختلفين المتنافرين والتوحيد بينهما، وتحقيق التآلف بين نعماتهما المتعارضة كي نحصل على نغم مؤتلف منسجم".

الضمير لدى ديورانت عائد على الحضارة الغربية بوصفها الوريث الطبيعي والشرعي للحضارتين اليونانية والرومانية؛ ذلك أن التقصى التاريخي سوف يكشف أن القانون الروماني كان الأداة التي أخرجت الجماعة المصرية وأعنى الفلاحين المصريين من التاريخ، وكان المطرقة والطاحونة الحجرية الصلدة التي سحقت بها الشخصية المصرية، وحولتها إلى رماد.

لم يكن الأمر يتوقف على الخسائر المادية التي عادة ما تنجم عن استعمار دول قوية لدول ضعيفة، كأن تصبح مصر. سلة غلال الإمبراطورية الرومانية، ولكل الإمبراطوريات التي تبعتها على مر العصور؛ كي يأكل العالم وتجوع هي وأبنائها، وإنما كان القانون الروماني حفار قبور دفن روحها في سكون وصمت، بلا

احتفالات جنازية، ولا طقوس ملكية، ولا شواهد
لقبر يستدل عليه من المكان الذي أودعت فيه جثتها
الفقيرة وروحها المهانة.

الأثار المترتبة

علمه قانون الفتح الرومانه

أنزل القانون الرومانى المصريين وإلى الأبد، من مرتبة
البشر. وصناع الحضارة إلى مرتبة أدنى من العبيد أى
"الوحوش والأنعام" وهو الذى يعنى فى القانون
الرومانى إنسانا غير شخصى. لا يتجاوز وضعهم القانونى
الشيء المنقول. إنه شكل يصعب فهمه أو استيعابه،
لكن هذه الأوضاع القانونية أسست لمصر. وظيفتها
التي ستكون قدرها ولعنتها منذ ذلك التاريخ وحتى
منتصف القرن التاسع عشر، وقد نص قانون الفتح
الرومانى على الآتى:

يسلم المهزوم للمنتصر كلاً من:

- ذاته "الشخص الاعتبارى والنفس"
- كل الممتلكات العينية الفردية والجماعية من
وطن وأرض وأودية ومراع وأنهار وينابيع مياه.
- كل ما ملكت يمينه من نساء وأولاد عبيد.
- كل من آلهته وآلهة الجدود والمعابد التي تخص
ديانته.

عهد التسليم الرومانى لا يكتفى بوضع يد الغازى
المنتصر. على كل ما تنتجه الأرض وما عليها من دواب
وبشر، هو لا يقبل بأقل من ملكية الأصول المادية

للشعوب المغلوبة؛ مياه؛ أنهار، عيون ماء، ينابيع،
أراضٍ، مراعي، حقول، جبال، غابات، سواحل شواطئ،
بحار.

مصر ملكية خاصة بالإمبراطور

جعل الإمبراطور أوغسطس من مصر ملكاً أو إرثاً
خاصاً به (patrimonium)، وتحولت الدولة ذات
التاريخ العريق إلى حساب خاص بالإمبراطور، وقرر
الإمبراطور كي لا يتم التلاعب بأوامره، أن لا ينزل مصر
من طبقة النبلاء "السناتو" وألا يتدخل مجلس
الشيوخ في أمر من أمورها. يقول المؤرخ الروماني
تاكيتوس (Tacitus): "إن أوغسطس أحاط مصر.
بسياج خاص وانتحى بها "مكاناً قصياً" ووضعها في
جعبته وفي طي جلاببه. ويضيف: "إن مصر كانت
مفتاح البر والبحر...."، وربما لأسباب استراتيجية أو
من مبدأ الجشع، وحسبما قال المؤرخ تاكيتوس فقد
"جعل الإمبراطور أكتافيوس أوغسطس من مصر.
"إيالة" (eparchia) تابعة له وليست ولاية رومانية
(provincia)⁽¹⁰⁹⁾، وبناء عليه؛ أصبحت مصر. والبشر.
القاطنون فوقها ملكاً للإمبراطور كشيء منقول، ومعه
أصبحت كذلك إرثاً خاصاً يتناقله الأباطرة والخلفاء
الأمويون والعباسيون، والسلاطين والملوك من
المماليك والعثمانيون، ومن بعدهم رؤساء
الجمهوريات الوراثية، حدث هذا واستقر، سواء كانت
مصر. وفلاحوها الفقراء تحت الحكم الروماني الوثني أو
المسيحي البيزنطي، أو دولة الخلافة الإسلامية أموية

109 (تأليف وترجمة د. زكي على - أستاذ التاريخ اليوناني الروماني ورئيس قسم التاريخ
جامعة القاهرة سابقاً - مقننة الإيدولوجوس 1998 - صفحة 2.

أو عباسية أو ما تلاها وحتى قدوم الحملة الفرنسية عام 1798.

ومن المثير للدهشة أن تتضاءل مصر. بكل حجمها كي تقع أخيراً بين يدي تاجر دخان ألباني جاء مصر. بصحبة أربعة آلاف عسكري لا يتوفر لديهم الانضباط والسلوك الكافي ولا الكفاءة العسكرية، وعلى الرغم من ذلك كان الشاب المقدوني "محمد علي" يحلم مثله مثل الفاتحين الكبار؛ الإسكندر المقدوني، ويوليوس قيصر، وأكتافوس، وعمرو بن العاص، ونابليون بونابرت، فأين كان الفلاحون المصريون آنذاك؟ كانوا مستلبين منومين في ظلام التاريخ.

ويضيف العالم الإيطالي "كاردينالي": "إن أغسطس استهدف أن يجعل من مصر. مورداً لا ينضب من الغلال؛ من أجل جلبها إلى روما كخراج عيني لا غنى عنه. ولذلك اتخذ جميع الوسائل الفعالة، التي تكفل الارتفاع بمستوى الإنتاج الزراعي في مصر، فعنى بنظام الري، وانتقص السلطات السياسية والاقتصادية التي يتمتع بها رجال الدين، فقلّم أظافرهم وصادر أملاك المعابد، وأخضعهم لرقابة الدولة. وقام بتشجيع الملكية الرومانية، وتوزيع الأراضي الخصبة على المحاربين القدامى من الرومان، وحث كبار الرومان وشخصيات من الأسرة الإمبراطورية وكل من كانت له حظوة لدى الإمبراطور على امتلاكها، وعلى امتلاك الضياع الكبيرة من الوسيات (OUSIAC) (والشفالك)"⁽¹¹⁰⁾.

الإدارة الرومانية

استن الرومان لحكم مصر. مجموعة من القواعد الإدارية ستصبح الطريقة التي سيحافظ عليها الغزاة والفاثون في حكم مصر. ونهبها، طوال ألفي عام، وحتى سقوط الدولة العثمانية، وبزوغ الدولة الوطنية.

الوالي

يمثل السلطة الأولى في إدارة البلاد بوصفه ممثل الإمبراطور ويلقب بالوالي (Praefectus)، وكانت سلطاته مطلقة غير مقيدة⁽¹¹¹⁾، تماثل سلطة ملوك البطالمة؛ فهو الرئيس الأعلى للإدارة والعدالة والجيش والشؤون المالية، ومهمته الرئيسية جباية الضرائب التي يحددها الإمبراطور ونقلها إلى روما، والإشراف على إنفاق الدخل المخصص لمصر، وهو القائد العسكري للحامية الروماني في مصر، المكونة من ثلاثة فيالق، وكان ينظر في القضايا الخاصة بالجنود، ويعتبر القاضي الأول للولاية، وأحكامه نهائية، وله الحق في النظر إلى القضايا المدنية، وأحياناً إلى الجنائية.

القاضي الأعظم (Archidicastes) : ويمثل السلطة الثانية وهو المختص بشؤون القضاء.

الأيدولوجوس: يمثل السلطة الثالثة، وهو الموظف المنوط به مسؤولية المصادرات، وتحصيل مستحقات المطلوبات، وجباية ضرائب بيت المال.

111) ظلت وظيفة الوالي ونظام الالتزام في كل العهود وتحت كل الإمبراطوريات مص دماء الفلاحين المصريين. المؤلف.

نظام الالتزام: هو نظام لجباية الضرائب استخدمه الرومان بعد أن سيطرت الإمبراطورية على مصر. قامت بفرض نظام اقتصادي أساسه الاحتكار والاقتصاد الموجه، وفرضت ضرائب متعددة تركز على تعداد السكان، والمراقبة الشديدة التي أمنت للرومان مثل هذا الغنى الذي رفلوا فيه. وللإمبراطورية الرومانية مصدر عامر بالأموال والثروات، وهذا الاستغلال المنظم الذي خضعت له مصر. لم يمكن تطبيقه في كل مكان، فقد اقتبست الإمبراطورية النظام المعمول به من قبل البطالمة في وادي النيل ورأت فيه نفعاً، ومن ذلك الضرائب غير المباشرة على المبيعات بالمزاد العلني أو الخراج، وفرضت رسماً قدره 4% على عمليات بيع الرقيق، ووسعت هذا المبدأ وطبقته في تحصيل الضرائب وجباية الرسوم، ولعل أهمها الضريبة على العقارات.

ولذلك قامت روما بعملية مسح لتعداد السكان، ووضعت ضريبة على الأعناق، وأنشئت مصلحة الأحوال الشخصية التي كان معمولاً بها في مصر. منذ عهد بعيد، وطورت جباية الضرائب من خلال جمعيات الجباة والعشارين القوية، وقامت الدولة بـ"تلزيم" الخراج الخاص بالضرائب غير المباشرة، ثم اعتمدت الطريقة المتبعة في مصر. البطلمية وهي تلزيم الخراج، واستعانت من أجل ذلك بجباة من الطبقة المتوسطة والسفلى⁽¹¹²⁾.

André AYMARD et Jeannine AUBOYER (112) إندرية إيمار -جانين أوبوايه
HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS ROME ET SON EMPIRE
تاريخ الحضارات العام - المجلد الثاني - روما وإمبراطوريتها - إشراف موريس كروزيه - ترجمة :

تطبيق نظام الالتزام: بعد أن أحكمت الإدارة الرومانية قبضتها على الشؤون الاقتصادية المصرية كافة، قام الرومان بتطبيق نظام الالتزام في مصر، والذي تتولى إدارته جمعيات الملتزمين (Publicani) ، وهم أولئك الذين يعنون بشؤون الدولة المالية، وتلزمهم الدولة بجباية وارداتها، واستثمار أملاكها، وتنفيذ مشاريعها، وتأمين جيوشها، طبقة الممولين، وترادفها كلمة "الفرسان" وهي هيئات تتولى أعمال الجباية في الولايات الخاضعة للإمبراطورية، ويتم ذلك بقيام هيئة الممولين بشراء عملية جمع الضرائب والجزية المقررة على المستعمرات من الحكومة الرومانية، على أن تقوم الهيئة بجمعها على طريقتهما مع إضافة نسبة خاصة بهم، وهذا هو النظام الذي استخدم في استنزاف مصر- وخنقها عبر عشرات القرون.

جمعيات الملتزمين: ويقصد بهم أولئك الذين يعنون بشؤون الدولة المالية، أى أولئك الذين تلزمهم الدولة بجباية وارداتها واستثمار أملاكها وتنفيذ مشاريعها وتأمين تموين جيوشها، إلخ. ويقوم كبار الملتزمين بإيجاد جهاز كامل من المساعدين والقبول بتسليف أموال لهم، يقع على رأس هذا الجهاز "جمعيات الملتزمين" وتعد كلمة فرسان مرادفة للملتزمين الحقيقيين المنتسبين إلى هذه الطبقة الاجتماعية.

وكانت هذه الهيئات تعتمد على جهاز قوى خاضع للرقابة من الموظفين الرومان واليونانيين برئاسة الوالى

لتنظيم الأعمال الزراعية كافة والإشراف عليها، وتنظيم مقدار ما يزرع منها، وتقدير قيمتها، وطبق نظام احتكار توزيع البذور، والاستيلاء على المحاصيل وإيداعها في مخازن حكومية؛ حيث يتم تصدير حصة روما، واقتطاع الضرائب عيناً، وبيع ما يتبقى في السوق. واحتكرت زراعة القمح والكتان من البذور إلى البيع؛ وكذلك كان شأن الطوب، والعطور وزيت السمسم. أما مصادر الثروة المعدنية فقد كانت جميعها ملكاً للإمبراطورية الرومانية، بينما الرخام واستخراج الحجارة الكريمة كان امتيازاً خاصاً للحكومة.

وكانت مصر. تقدم لروما في عصر. أغسطس من خلال نظام الالتزام طبقاً لما ذكره المؤرخ الروماني أوريلينيوس فيكتور 370م "سنة ملايين أردب سنوياً، بواقع أردبين إلى ثلاثة أردب لكل فدان. وارتفعت الجزية إلى حوالي سبعة ونصف مليون أردب سنوياً في عصر جستنيان (113)".

السخرة: كانت الإدارة الرومانية تتولى تنظيم أعمال الأشغال العامة "السخرة" التي يقوم على تنفيذها بالسخرة الفلاحون التعساء كإقامة السدود، وحفر الترع وتطهيرها، وإقامة المباني العامة. أما أوضاع العمال "الأحرار" فقد كانت سيئة، ولم تتجاوز أجورهم ما يستر عوراتهم. وفرضت ضرائب فادحة على جميع المنتجات، وعمليات البيع، والتصدير والاستيراد، وامتدت إلى القبور ودفن الأموات؛ وكثيراً ما تم فرض قروض إضافية، وكان من أثر الخراج الذي

(113) د. مصطفى كمال عبد العليم - مصر- الرومانية - مكتبة سعيد رأفت 1972 - صفحة

لم يُعرف له حدود، والضرائب الفادحة، انتشار الكساد ونضوب موارد البلاد، والميل المتواصل إلى التراخي والإهمال.

* * * *

قانون الملكية الرومانية

كانت الملكية في القانون الروماني مقصورة على الأموال المنقولة والعبيد والدواب، ثم أضيف إليها كما ظهر في قانون الألواح الاثني عشر- ملكية منزل العائلة، والأرض الملحقة به، والتي تبلغ نصف هكتار. أما الأراضي الزراعية والخاصة بالرعي الواقعة خارج روما فقد كانت ملكاً للعشيرة، توزع على الأسر لاستغلالها بمعرفة رب الأسرة، وبمعاونة أولاده وعبيده. ثم تحولت إلى ملكية مستديمة بعد أن استقلت الأسر بنصيبها، يتوارثه أعضاؤها جيلا بعد جيل. وكانت تعود إلى القبيلة فقط في حالة انقراض الأسرة.

قواعد اكتساب الملكية الرومانية (114)

لم تكن جائزة لكل شخص، ولا شاملة لكل شيء، بل كان لقيامها من توافر شروط ثلاثة: وقد حدد "قانون المواطن" الروماني حقوق الملكية طبقاً لثلاث قواعد ينبغي أن توفرها كشرط للملكية:

114 (د. محمد عبد المنعم بدر. أستاذ القانون الروماني - كلية الحقوق - جامعة القاهرة - القانون الروماني - الكتاب الثاني في الأموال - لجنة التأليف والترجمة والنشر - 1938 - صفحة 142.

القاعدة الأولى- الشخص المالك : يجب أن يكون رومانيا، فغير الروماني محروم من حق التعامل وبالتالي محروم من اكتساب الملكية.

القاعدة الثانية- (الملكية) الشيء ذاته:
يجب أن يكون المال (إذا كان من الأموال الثابتة) رومانيا أي موجود في روما، أو إيطاليا، أي موجود في إيطاليا، فتخرج بذلك الأراضي الإقليمية.

الأراضي الإقليمية: لا ينطبق حق الملكية على أراضي المستعمرات، وهذا يعني أن الأشخاص المقيمين في الأراضي التابعة للجمهورية لا يحق لهم التعامل على أراضي أو منقولات أو أموال تقع داخل روما، وفيما بعد سمح بالتعامل مع الملكية الواقعة داخل إيطاليا طبقاً للحق اللاتيني.

القاعدة الثالثة- طريقة اكتساب الملكية:
يجب أن تكون الملكية قد اكتسبت بإحدى الطرق المقررة في القانون الروماني (jus civile) كالأشهاد والدعوى الصورية، (قانون المواطن) والذي يركز على مبدأ حق المواطنة، وإذا اكتفى المتعاقد بمجرد تسلم أو تسليم ملكية رومانية فإن الملكية تظل لصاحبها الأصلي.

صور الملكية⁽¹¹⁵⁾: وبناء على القواعد الثلاث السابقة، ظهرت ثلاث صور للملكية في الدولة الرومانية، كان لها تأثير بالغ في الشعوب المغلوبة.

(115) المصدر السابق (143-147).

الملكية البريتوري: تظل داخل نطاق النوع الأول من الملكية الرومانية، ولم تكن خاضعة للضرائب "الجزية".

الملكية الإيطالية: لم يكن ممكناً حتى القرن الأول ق.م. للمواطنين "اللاتين" القاطنين في شبه الجزيرة الإيطالية إنشاء حق ملكية على عقار بإيطاليا أو في الأقاليم الرومانية، ومع اتساع الجمهورية ومد سيطرتها إلى مناطق شاسعة من حوض البحر المتوسط، وجدت السياسة الرومانية ضرورة توسيع حق المواطنة للقاطنين في شبه الجزيرة الإيطالية وهو ما سمي بالحق اللاتيني، والذي تم بناء عليه تسوية العقارات الإيطالية عام 101 ق.م بالعقارات الرومانية؛ حيث جرى الاعتراف بالمواطنين الإيطاليين بحق للملكية يشبه وضع اليد. وقد تم رفع الضرائب "الجزية" عنها.

الأراضي الإقليمية:

صودرت أراضي الأقاليم والمستعمرات الخاضعة، وأصبحت مملوكة للدولة. وعليه أصبحت وحدها خاضعة للضرائب "الجزية" والمصادرة. أما العقارات الإقليمية فقد ظلت خاضعة لنظام آخر خاص بالملكية، طبقاً لمجموعة من القوانين الجائرة، عبارة عن حق غامض يعبر عنه بحق الاستعمال، وأحياناً بوضع اليد. ولا تنتقل ملكيتها بطريق نقل الملكية المقرر في القانون المدني. ولكن طبقاً لقانون الأمم، وهو "التسليم"، والذي يخضع لقانون حماية الملكية

الرومانية. وهكذا نزعت ملكيتها من أبناء الشعوب المغلوبة الذين كانوا حائزين لها بحق الملكية الوطنية، والتوريث، والذين كان يحق لهم البيع والتصرف تصرف المالك فيما يملكه، وتحولت علاقاتهم بما كانوا يملكونه إلى حق غامض أو ما يسمى بحق الانتفاع أو "وضع اليد".

الملكية الأجنبية أو ملكية الأجنبي

وسبب ظهور هذا النوع من الملكية أن الأجنبي لم يكن متمتعاً بحق التعامل في روما، وبالتالي كان محروماً من اكتساب حق الملكية الرومانية، فكان ما يمتلكه لا تحميه قواعد القانون المدني، بل تحميه إما قواعد قانونه الوطني، وإما قانون الأمم الذي يطبقه قاضي الأجنبي في روما.

ومع تطور الدولة الرومانية واتساعها، أحكمت السياسة الرومانية سيطرتها ووسطوتها على الشعوب المقهورة عبر قانون الملكية التي جعلتها مقصورة على من يملك حق المواطنة الرومانية، غير جائزة لكل شخص، ولا تشمل كل شيء.

وإذا كانت القواعد القانونية العامة للقانون الروماني قد وضعت بناء على الأساس الذي يحمي كلا من حق المواطنة الروماني الذي سيّجه، أو القانون المدني ومنه قواعد قوانين الملكية الرومانية، وشكلت أساس التمييز العرقي لحقوق الرومان على الشعوب المغلوبة وهيكلها، فإنها انعكست بأوضاع مأساوية. لقد خلخل الرومان الجذور العميقة لأقدام الفلاحين المصريين

المنغرسَة في أرضها منذ آلاف السنين، وبدلاً من أن تكون صلبة معمرة وارفة كأشجار التين والجميز، أصبحت أعشاباً تنمو على سطح الأرض، تجف سريعاً وتنمو مثل الحشائش بلا مكان ولا زمان. وسوف تؤدي النتائج المترتبة على تلك القوانين إلى تدمير الذات الجمعية للجماعة المصرية وهم الفلاحون، بما سوف ينتهي إلى شيوع الاغتراب المبكر عن الوطن الذي ولدوا فيه وترعرعوا.

* * * *

الفصل الحادي عشر

الدستور الذي وضعه الرومان لمصر

وثيقة "الجنومون" (116)

وجدت وثيقة "الجنومون" في بردية نادرة محفوظة في متحف برلين تم اكتشافها قرب قرية ثيادلфия المعروفة الآن ببطن هاريت. ومن المرجح أنها كتبت بين عامي (169 - 176 م) أو في بين عامي (150 - 161 م)

وتمثل "الجنومون" والتي تسمى "مقننة الإيديولوجوس" (117) أي "المرشد أو الدليل" الدستور الذي سنه الإمبراطور أغسطس لإدارة مصر. ثم نقحه الولاة والأباطرة فيما بعد، وتضم التعليمات واللوائح والقوانين والتشريعات التي طبقها الحكم الروماني على مصر، وقد تناولت شتى مناحي الحياة السائدة،

116 (د. زكي على أستاذ التاريخ اليوناني الروماني - جامعة القاهرة سابقا - مقننة الإيديولوجوس 1998.

117 (الإيديولوجوس: هو الجهاز المنوط به مسؤولية المصادر وتحصيل مستحقات والمطلوبات وجباية ضرائب لبيت المال. وقد وضع الدكتور زكي على اسم "الدستور" على الكتاب الذي قام بترجمته، والأكثر دقة هو "قانون الحساب.

وخصت أهم شؤون حياة المصريين؛ كالعلاقات الزوجية بين الأجناس والمواريث والإرث وإبرام الوصايا".

تضمنت الوثيقة (115 بنداً) تضم المهام المنوطة بجهاز "الإيدولوجوس"¹¹⁸ الذي يمثل السلطة الثالثة في إدارة الولاية المصرية،

وتفويض الوثيقة بروح الإصرار والعزم على عدم إغفال أى مورد من موارد الدخل والحرص على الاستيلاء على كل ما يمكن من أجل الوفاء بالاستحقاقات المادية، والمالية، ومنها القواعد الخاصة بقانون الإرث وشؤون الدولة والقانون الكهنوتي، والفائدة على القروض والعقود ونظام الإحصاء وغيرها، وفي فهرس العالم بيكر (Bekker) نص جاء فيه أن "الجنومون" هو "عقد الترام يضم الشروط الموضوعة التي ينبغي بمقتضاها تحصيل الضرائب من الولاية المصرية بطريق الالتزام"⁽¹¹⁹⁾. وتضمنت الوثيقة الموضوعات التالية:

البند (4 - 36) الملكية والتركات والمواريث.
البند (37) عقوبة مخالفة الوالى.

118) كانت السلطة الأولى هو ممثل الإمبراطور والملقب بالوالى (Praefectus) ، والسلطة الثانية هى القاضى الأعظم (Archidicastes) المختص بشؤون القضاء. أما الأيدولوجوس فهو الموظف المنوط به مسؤولية المصادرات وتحصيل مستحقات والمطلوبات وجباية ضرائب لبيت المال.

119) د. زكى على- أستاذ التاريخ اليونانى الرومانى - جامعة القاهرة سابقا - مقننة الإيدولوجوس 1998 صفحة 57.

- البند (36 - 57) ضبط التمييز العرقي، ووضع
الفواصل بين الأعراق، عقوبات جرائم الزواج المختلط.
البند (58 - 63) نظام الإحصاء.
البند (64 - 69) عقوبات جرائم هرب العبيد
والمصريين من البلاد.
البند (71 - 97) النظام الكهنوتي.
البند (98 - 101) قواعد إبرام العقود.
البند (102 - 115) قواعد المعاملات.

* * * *

غايات الدستور

- أعمال الجباية للحساب الخاص بالإمبراطور
1. تغذية خزنة بيت المال لحساب الإمبراطور الذي جعلها تحت كنفه، واعتبرها حساباً خاصاً به وحده، ومع الوقت اتسع اختصاصها، وادعت لنفسها صفة الأفضلية وحق الأسبقية في التنفيذ.
 2. العمل على تحصيل الديون والاستحقاقات الخاصة بالإمبراطور، والبحث عن الأموال السائبة، التي لا صاحب لها من أراضي الوسيات وتوقيع غرامات تبلغ آلاف الدراخمت، والتي يكون مآلها خزنة الإمبراطور الذي كان دائب الاستيلاء على الأموال المصادرة، ووضع اليد والتنفيذ العاجل والمباشر على المدينين.
 3. تنفيذ العقاب الأكبر والسيف المسلط على الرقاب، وهو حق مصادرة ربع الأملاك والأموال أو نصفها أو كلها من "وسيات" وأملاك وعقارات وموجودات، لحساب خزنة الإمبراطور حتى أصبحت الخزنة فاهماً فاغراً على الدوام، لاقتناص كل الفرص التي تسنح لأعمال القصاص والمصادرات تطبيقاً للأحكام الواردة في لائحة "الجنومون".
 4. حق الأيلولة في المواريث والتركات الشاغرة والهبات المضافة والباثئات التي تقرر بطلانها بصفة كلية أو جزئية وليس لها صاحب، فكان

يستولى على الأموال كلها أو بعضها بحق النصف أو الثلث أو الربع حسبما تقتضى الظروف طبقاً لحالتهم التمييزية ومن حيث عرقية النسل والإنجاب أو العقم، وكان يتم تعقب كل المنتحلين لصفات أو حقوق المواطن الروماني وإنزال عقاب صارم بهم، يتمثل في مصادرة أملاكهم وثرواتهم أو أجزاء منها.

5. الفصل في المنازعات المالية أو الجنائية التي تكون فيها الخزانة الإمبراطورية طرفاً فيها.

* * * *

نصوص الدستور

أولاً: الضرائب والعقارات والأيلولة والمواريث

- بند 1: تباع الأراضي والحدائق المحيطة بالمقابر وتصادر لحساب بيت المال.
- بند 2: غير مسموح ببيع المقابر فهي خارج التعامل. أي أنها مصادرة لحساب الإمبراطورية.
- بند 3: توضع تحت الحراسة ربع أملاك من قدمت أسماءهم إلى ديوان الأيدولوجوس قبل البت في أمر القبول بتسجيل أسمائهم.
- بند 4: تؤول إلى بيت المال أموال من يموت من دون ترك وصية، وليس لهم وريث شرعي.
- بند 7: تعتبر كل وصية لم تبرم بالصورة القانونية لاغية وتؤول إلى بيت المال.
- بند 8: أي وصية رومانية تذيّل باللغة اليونانية لا يعتد بها؛ فالروماني لا يحق له كتابة وصية يونانية.
- بند 9: إذا مات عتيق من دون عقب ولم يترك وصية، فإن إرثه يؤول إلى مولاه أو أبناء مولاه، أما البنات فلا يجوز لهن الإرث وتؤول التركة إلى بيت المال.
- بند 10: إذا أوصى عتيق لشخص ليس من مرتبته أو منزلته نفسها، يصادر ما أوصى به.
- بند 11: أي امرأة من كرنيا⁽¹²⁰⁾ لا حق لها في أن ترث ولدها.

120 (قرية قرب مرسى مطروح -المصدر السابق).

- بند 13: الأولاد الذين يولدون من مواطنة حرة وزوج أجنبي (مصري)، يعتبرون أجنب أي "مصريين" ولا يحق لهم وراثة أمهم.
- بند 14: لا يجوز لأي مواطن حر أن يوصي لعتقائه بأكثر من خمسمائة دراخمة أو خمس دراخمة كراتب شهري أو معاش مدى الحياة.
- بند 15: عتيقات المواطنات الأحرار محرومات من حق الإيضاء بأموالهن.
- بند 16: إذا ما تضمنت الوصية لعتيق روماني شرطاً به ما يوجب أن تؤول الوصية لأبنائه (العتيق) تتم مصادرة جميع ما أوصى به.
- بند 17: تصادر الأموال التي رصدت للإنفاق على القربان والأضاحي للموتى "أموال الأوقاف"، حال عدم توافر من يمكنه الاضطلاع بها.
- بند 19: تصادر الأموال الموصى بها للعتيق الذي لم يكن قد حصل على العتق القانوني.
- بند 20: تصادر الأموال التي جرى الإيضاء بها لقن أو عبد إذا ما تبين أنه قد سبقت إدانته، أو وقعت عليه عقوبة القيد بالأغلال، ثم أعتق بعد ذلك، أو لم يبلغ الثلاثين من عمره عند عتقه.
- بند 34: يصرح للجنود أن يوصوا بوصية رومانية أو يونانية، على أن يتوخوا أن تكون الوصية لصالح أحد أبناء العشيرة التي ينتمون إليها.
- بند 35: الجنود الذين لقوا حتفهم في أثناء الخدمة العسكرية يحق لأبنائهم أو أقربائهم وراثتهم؛ شرط أن يكون المطالبون بالإرث من الجنسية نفسها، أي لا ينطبق الحق على الابناء من أم مصرية.

بند 36: تصدر أموال الأشخاص الذين ارتكبوا جرائم قتل وآثروا النفي بمحض اختيارهم، ويحق لأبنائهم الحصول على 10% من التركة.

بند 37: يصادر ربع أملاك أو نصفها أو كلها من يخالف أوامر وتعليمات صادرة عن الولاية.

البند 112: إذا توفي خصي أو عنين تصدر أمواله عقب وفاته، وإذا ترك وصية يصادر ثلث أمواله ويؤول الباقي إلى بني عشيرته.

ثانياً: الإحصاء الدوري:

كان الإحصاء يتم بشكل منتظم للسكان كل أربعة عشر عاماً لضرورات الجباية والمصادرة، وكان يتوخى الدقة، ويلزم أرباب البيوت إثبات ما ملكت أيماهم وما تحتوي عليه بيوتهم من أفراد وأبناء وعبيد وعقارات وماشية وأغنام، مع بيان صريح بأوصاف السكان وحرفهم ودرجة قرابتهم لرب البيت.

وقد اشترط الشارع ضرورة التدوين الدقيق لهذه البيانات الدورية الإحصائية؛ لتفادي التعرض للعقوبات المصادرة المنصوص عليها في اللائحة، وأهمها مصادرة ربع الأملاك أو النصف أو الكل، أو فرض غرامات باهظة، وكان القانون يمنع الموظفين القائمين على الإحصاء من عقد أي صفقات، يمكن أن ينتفعوا من خلالها عبر نقل الديون، أو الممتلكات وإخفائها عن بيت المال.

بند 58: الأشخاص الذين لم يسجلوا أنفسهم، أو قصرروا في إحصاء السكان، يصادر ربع أموالهم. ومن يقصر في التسجيل في إحصاءين متتاليين يصادر ربع آخر، أو ربعان.

بند 60: الأشخاص الذين يقصرون في تدوين ما لديهم من الرقيق يجردون من هؤلاء العبيد.

القروض وجمع الحاصل

بند 104: لا يجوز بيع الثمار قبل جنيها، ولا يجوز تصديرها دون بيان كتابي بمواصفاتها.

بند 105: كل من أقرض بفائدة يزيد مقدارها على دراخمة واحدة في كل شهر، يصادر نصف أمواله وأملاكه، أما المقترضون فيصادر ربع أملاكهم.

* * * *

الفصل الثاني عشر الاغتراب المادي

التطور المكبوح

وإذا كان نشوء المجتمعات طبقاً لمفهوم المادية التاريخية يستند إلى "دور العمل في استجلاب الملكية". ففي الحالة المصرية ظل "العمل" لا يتجاوز حد البقاء على قيد الحياة، بينما الملكية لشخص غامض، يدعون له في المعابد، والكنائس والجوامع، يجلس على عرش خارج الحدود، في روما أو أنطاكية أو دمشق أو بغداد أو حتى القاهرة أو الآستانة، وفائضها الربيعي يتقاسمه كل أجلاف العالم.

وبينما كانت أدوات الإنتاج ومن ثم علاقاته وقواه تتطور وتتغير في العالم، وتخلف وراءها المجتمع العبودي كي تنتقل للمجتمع الإقطاعي في أوروبا ومن ثم الرأسمالي، فقد ظلت مصر. ترزح تحت الثقل المقيت

لتلك الظروف الاجتماعية التاريخية التي عاصرت ميلاد السيد المسيح. وقد أجهض القانون الروماني أي إمكانية لتكوين قوى اجتماعية حقيقية في مصر، تتمكن من أن يكون لها وجود اقتصادي ومادي مستقل يتعين في صورة قوى اجتماعية. ولهذا ما كان يمكن لمصر. أن تتطور اجتماعيًا، وقد استقر الواقع على ما هو عليه لمئات السنين دون تبديل ولا تطوير، وظلت جماعة الفلاحين المصريين على ما هم عليه، عبيد أمم، لا طاقة لهم بالتأثير في متغيرات التاريخ، وحركة القبائل التي تجرى على قدم وساق على القوس الذي يدور من وسط آسيا وشبه الجزيرة العربية والأناضول وشبه الجزيرة الإيطالية.

لقد انقطعت العلاقة بين العمل والملكية، كيف يمكن للجماعة المصرية أن تنشئ. قوى اجتماعية تتطور في داخل المسرح الجيوسياسي لمصر، وينتج عنه وعي جمعي وثقافة كلية، يشكلان هوية فاعلة في التاريخ العام والخاص، تخص المكان والجماعة اللذين يقيمان على مسرحه؟

وما دام أن تغيرات اقتصادية لم تتم، وأن العلاقات الاجتماعية ظلت ساكنة لا تتحرك، فلن يكون هناك تبلور سياسي. ولهذا أصبح قدر مصر. المادي، القدر الذي أوقعه الإمبراطور أوغسطس عليها، إيالة (إيلولة) في جيب الأباطرة والخلفاء والملوك والسلاطين. وفي المقابل، ظل الفلاحون في ظروف اجتماعية ومادية معدمة، لا تتجاوز حقوق الرقيق الجماعي وحالهم.

فلاحون بلا ملكية

بتطبيق قانون الملكية الرومانية الذي لا يتيح لغير المواطنين الروماني الحر حقوق الملكية، وتحويل مصر. إلى إيالة خاصة بالإمبراطور، استطاع القانون الروماني تحويل الفلاحين إلى معدمين، لا يملكون ولا يحق لهم أن يملكوا، وأصبحت الأراضي التي طالما زرعوها لآلاف السنين، وأقاموا فوقها حياتهم وحضارتهم وثقافتهم، ملكاً لرجل يجلس على عرش في بلاد بعيدة وراء البحر، الذي كانوا يظنون منذ القدم أن لا شيء وراءه.

مجتمع بلا قوى اجتماعية

وتحولت البنية الاجتماعية المصرية إلى نظام اجتماعي واقتصادي يقوم على الجباية. وفي قاع تلك البنية، قبع الفلاحون المصريون في نوع من عبودية مختلفة ذات طبيعة ونتائج تتباين مع طبيعة الرق الفردي السائدة في تلك المرحلة، فإنهم يصبحون عبيد أرض.

العبودية لدى المصريين وعى وثقافة اجتماعية

والفارق بين العبودية والرق الفردي والعبودية الجماعية، أن الطابع الأول يتلاشى بتلاشى أفرادها، وتتلاشى هويتهم السابقة، بالموت أو العتق، وهو ما لا يؤثر ولا ينتج ثقافة سوى ثقافة المجتمع والطبقة والدولة المسيطرة.

بينما في الحالة الثانية تتحول عبودية الجماعة إلى وعى وثقافة اجتماعية، تترسخ عقوداً بعد عقود، وتتحول من مجرد لحظة ألم واغتراب شخصي. إلى

حالة استلاب كلية وعامة، ومستمرة، مثلها مثل الديمومة التي صنعت الماعت المصرية، وها هم المصريون يعانون من ديمومة أخرى هي ديمومة الاستلاب المادى.

* * * *

وشعب بلا قوء، عسكرية

كانت آخر معارك المصريين الحربية معركة رفح التي جرت في 22 يونيو عام 217 ق.م. وكان الجيش مشكلاً من فيلق مصري من المشاة بلغ 20 ألفاً تمكن من تحقيق النصر. للملك بطليموس الرابع. تصاعد بعده شعور المصريين بكيانهم وأخذوا يطالبون بحقوقهم، وقد حمل النصر. في طياته تدمير المصريين، وكان هيرودت المؤرخ اليوناني الشهير يطلق عليهم من يرتدون السراويل المهلهلة ويحملون العصي- والبلط"⁽¹²¹⁾.

كان تخلى الفلاحين عن مهنة الجيش قد بدأ منذ خمسة قرون ق.م.، عندما شرع الفراعنة في استخدام مرتزقة من اليونانيين للعمل في الجيش المصري، وقد كان لهذا نتائج وخيمة على الدولة المصرية، الذي لم يكن موجوداً عندما حلت الواقعة وهزم كل من التحالف البطلمي الروماني الذي يضم كليوباترا السابعة ومارك أنطونيو.

(121) ه. آيدرس بل- أستاذ شرف علم البردى بجامعة أكسفورد - مصر- من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي - ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - 1973 - صفحة 79.

تأسس المجتمع العبودي على الحرب، والقرصنة، وكاننا المصدر الرئيس لإنتاج العبيد، وكان هم روما الرئيس الذي تمكنت من تنفيذه طوال تسعة قرون وحتى انهيارها، نزع سلاح القبائل والأمم، وإحلال سلام القبور، وكان الجيش الروماني الأول الذي تأسس عام 500 قبل الميلاد، يتكون من مليشيات عمادها المواطنين الأحرار من الذكور الذين هم في سن الخدمة العسكرية، ويعتمد على تكتيكات تعكس موقفه الدفاعي. وبحلول القرن الثالث قبل الميلاد، اعتمد الرومان نظاماً أكثر مرونة يتكون من مجموعات تضم (120 رجلاً) وتدعى شُرذمة رومانية يمكنها القيام بمناورة أكثر استقلالاً على أرض المعركة. وتشكل الجيش من ثلاثين شُرذمة مرتبة في ثلاثة خطوط، وبلغ تعداد الفيالق⁽¹²²⁾، ما بين 4,000 و 5,000 رجل. وحتى أواخر فترة الجمهورية، كان تسليح الفيالق النمطي يتم تمويله من قبل المزارعين الملاك، من المواطن الذي يقيم في الريف والمسؤول عن توفير معداته العسكرية الخاصة من أمواله، وجواده الخاص إذا كان من الفرسان، ولقاء ذلك كان يتم توزيع الغنائم والهبات من الحملات الناجحة، وقد بلغت حصة بولس إميليانوس حوالي نصف مليون درهم من الغنائم، وكان كثيراً ما توزع أراضي المستعمرات، على القادة والجنود وقد خصصت منحة عند التقاعد للجنود.

ويبطل الجيش الروماني المؤسس على قواعد المجتمع الروماني الزراعي العسكري أكذوبة اقتصر الفصائل الحربية على المجتمعات الرعوية دون

(122) مماثل الفيالق اللواء وأحياناً الفرقة في الجيوش الحديثة.

الزراعية كسبب مناسب لزروح مصر- تحت الاحتلال
قراية ألفى عام متواصلة، وعلى العكس أسس الرومان
الأوائل مجتمعهم على فضائل الشجاعة والتكشف
والعمل اليدوى الزراعى. وتملك من خلاله المواطن
الرومانى الحر القدرة على بناء أكبر إمبراطورية فى
التاريخ القديم اهتمت بالفتح والغزو والسيطرة
العسكرية على البحر المتوسط وشمال أوروبا، من دون
أن تهتم بنشر. سطوتها الدينية أو الثقافية على
الشعوب المقهورة، ليس لكونها لم يكن لديها إنجاز فى
الفكر أو الأدب أو الفلسفة، أو لكونها لم تكن تلقى بالا
للأمر، بل لأنه لا توجد حضارة ولا ثقافة فى العبودية،
ففى ظل هذا الواقع كما يقول هيجل: "ظهرت مصيبة
الوعى" والتي انعكست على انقسام الإنسانية إلى
جماعات متناحرة، يحل الاستلاب فى وعى المقهورين،
والكذب فى وعى السادة والأمم المنتصرة.

وقد كان القانون الرومانى صارماً فيما يخص عدم
السماح بدخول العنصر المصرى الجيش الرومانى،
وكان يتم عقاب كل من يتحايل على انتحال الشخصية
الرومانية بغرض دخول الجيش، وتصادر كافة الحقوق
والأموال التى حصل عليها لهذا الغرض، وهو ما سيأتى
ذكره لاحقاً.

ولن يسمح محمد على بدخول الفلاحين جيشه إلا
بعد فشل مشروعاته فى إنشاء جيش حديث، اعتماداً
على شراء المماليك أو استجلاب السودانين، وخاصة
بعد إحكام الدول الأوربية والدولة العثمانية الحصار
عليه، وقطع المصدر الرئيس للجيش الشرقى التى
اعتمدت على العبيد والأرقاء المجلوبين من وسط آسيا

وشرق أوروبا، حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر.
الميلادى.

القدرة على الحرب والنزال

وعندما نزعَت روما حق ملكية المصريين لأراضيهم،
لم يعد ممكناً للفلاح المصرى أن يتحمل تكاليف عدته
الحربية؛ "سيف أو درع أو رمح أو مزاريق"، ولا حتى
الاحتفاظ بجواد يمكنه من الذهاب إلى الحرب.

* * * *

وفى المرتبة الأدنى عرقيا

الفصل العرقى

وضع الدستور الذي وضعه الرومان لمصر. الفواصل
الصارمة بين الأعراق، للتأكيد على التميز العرقى
وضبطه، ووقر الحماية من التلوث الناتج عن
الاختلاط العرقى، عبر مجموعة من القواعد
والإجراءات منها:

1. النص صراحة على تحريم الزيجات بين
المواطنين الرومان والمصريين أو المصريين، واعتبار
هذه العلاقة علاقة زنا خارج القانون، وحدد القانون
العواقب التي تترتب على الوقوع فيها عن جهل أو
ادعاء، والعقاب إزاء عدم مشروعية هذا النوع من
المعاشرة. وحدد وضع أبناء هذا النوع من المعاشرة
فجعل الابناء ينتمون إلى المرتبة الأدنى مكانة وحدود
أحقيتهم في المواطنة والإرث طبقاً للجنسية الأقل
شأناً سواء من الأم أو الأب، وهي على الدوام الجنسية
المصرية.

2. وضع الحدود الخاصة بحماية الجنسية الرومانية من التلوث العرقى الناجم عن الاختلاط الجنسي. بينهم وبين المصريين، وكان القانون الروماني يتخذ بشأن ذلك أقصى عقوبة، ومنها إسقاط حقوق المواطنة لمن يحاول ارتكاب جريمة التلوث السلالى وخلط الأعراق. وكانت معنية على وجه الخصوص بحالات الزواج أو المعاشرة الجنسية بين المواطنين أو المواطنات الأحرار من الرومان، وكذلك العتقاء من أسرى الرومان أو اليونانيين من جهة، وبين المصريين من الذكور والإناث من جهة أخرى. وهو الأمر الذي كان يكرس الحط من مرتبة المصريين والمصريات العرقية، والهبوط بهم إلى المرتبة السفلى من الأعراق، بوضعهم خارج السلم الاجتماعى، حتى أنهم كانوا أقل شأنًا من العبيد المعتوقين.

بين الأمة المصرية والأمة القرطاجنية

لم يكن عزم الرومان على التعامل مع الفلاحين المصريين أقل قسوة من استئصال قرطاجنة، وبيع شعبها عبيدًا، والفارق بين معاملة الرومان لقرطاجنة ومصر. هو مصالح روما، فالأولى كانت تشكل منافسًا تجاريًا شرسًا، وخطراً عسكريًا داهمًا، بلغ مشارف روما وهدد وجودها، وخطوط مواصلاتها البحرية؛ مما يستوجب اجتثاثها واقتلاع جذورها من المتوسط، حتى لو كانت النتيجة محوها من الوجود، أما بالنسبة للفلاحين المصريين فقد كانت في حاجة لهم كعبيد للأرض التي كانت لهم سابقًا، وأصبحت ملكًا لإمبراطورها.

وتضمنت المقننة (الدستور) البنود التالية:⁽¹²³⁾

بند 38: أبناء الزواج من مواطنة حرة ورجل مصري يظلون مصريين.

بند 39: المعاشرة الجنسية بين مواطن روماني أو مواطنة رومانية مع امرأة مصرية أو مصري عن جهل، فإن أولادهما يتبعون الجنس الأدنى منزلة.

بند 41: إذا تبنى مصري لقيطاً من أكوام القمامة يعاقب بعد موته بمصادرة ربع أمواله لبيت المال.

بند 42: كل من ينتحل لنفسه جنسيات كاذبة يعاقب بمصادرة ربع أملاكه، وتسري العقوبة على من شارك في الجريمة.

بند 43: المصريون الذين قيدوا أباهم عقب وفاته على أنه روماني، يعاقبون بمصادرة ربع أملاكهم.

بند 44: كل مصري يعمد إلى قيد ابنه على أنه انخرط في الشبيبة⁽¹²⁴⁾، يصادر ربع أملاك الاثنين.

بند 45: إذا تزوج أحد مواطني المدن الحرة من مصرية ثم مات من دون عقب منها، تصادر أمواله التي اكتسبها عقب الزواج لبيت المال، وإذا كان له منها أولاد يصادر ثلثا الأموال لبيت المال.

بند 46: الرومان والمواطنون في المدن الحرة الذين ارتبطوا مع مصريات برباط المعاشرة، دون علم منهم بحالتهم القانونية، يباح لهم تصحيح نسب أولادهم وجعله تابعاً لجنسية الآباء.

123) د. زكي علي - أستاذ التاريخ اليوناني الروماني - جامعة القاهرة سابقاً - مقننة الإيدولوجوس 1998 صفحة 195.

124) الشبيبة مرحلة تسبق الانضمام لمعاهد الجمانيزيوم ويحق للملتحقين بها بعد عام الحصول على مواطنة الإسكندرية أو اليونانية.

(ويعنى هذا أيضًا أن عقوبة الابناء الناجمين عن الزواج المختلط بين المواطن أو المواطنة الرومانية الحرة من مصرية أو مصرى هم أطفال غير شرعيين أو أبناء سفاح)⁽¹²⁵⁾.

بند 48: المواطنون الأحرار الذين تزوجوا من ساكنات الجزر⁽¹²⁶⁾، يطبق عليهم ما يلحق بأولئك الذين ارتبطوا بمصريات في معاشرة زوجية، ويصبح

الأولاد في المنزل الأدنى، وهو ما يعنى عدم شرعية الزواج .

بند 49: غير مسموح لعتقاء الإسكندرية "العبيد الذين أعتقوا" الزواج من مصريات. وتعتبر بذلك تلك الزيجات محرمة وباطلة وغير شرعية. ويصبح الابناء أولاد زنا وأبناء حرام، حتى لو كان الزواج من عبيد.

بند 50: عتيقة المواطن الحر التي أنجبت من مصرى تصادر أموالها، كما نص "توربانس".

ويتناول البند العلاقة الجنسية بين عتيقة ومصرى بوصفها زنا؛ ولذلك يصادر أموالها.

بند 51: ابن السورى من مواطنة حرة يعاقب بالغرامة إذا ما تزوج مصرية.

بند 52: الزواج بين الرومان والمصريات أمر غير جائز ولا مستساغ.

125 (المؤلف.

126 (الجزر الواقعة بين الإسكندرية وبرقة.

بند 53: تعاقب المصريات اللاتي انتحلن لأنفسهن صفة الجنسية الرومانية وتزوجن من الجنود المسرحين بالعقوبات التي تحرم انتحال الصفات والألقاب.

بند 54: ابنة الجندي المسرح وقد أصبحت رومانية لا يحق لها أن ترث أمها المصرية.

بند 55: إذا أدى مصرى الخدمة العسكرية في فرقة رومانية من دون أن يكتشف أمره فإنه يعود بعد تسريحه إلى حالته الأولى مصرياً. وينطبق الأمر على من التحقوا بسلاح المجدفين. يستثنى منهم الذين يخدمون في الأسطول الروماني في "ميسينوم" جنوب إيطاليا.

(لم يكن مسموحاً على الإطلاق للمصريين الالتحاق بالفرق العسكرية الرومانية)⁽¹²⁷⁾.

بند 56: الجنود الذين أدوا الخدمة العسكرية ولم يسرحوا طبقاً للقانون يعاقبون بمصادرة ريع أموالهم إذا ما انتحلوا لأنفسهم صفة المواطن الروماني.

بند 57: أهل بارايتوينوم⁽¹²⁸⁾ الذين ارتبطوا في معايشة زوجية بنساء مصريات "أجنبيات" يصبح أولادهم تابعين للجنس الأدنى مرتبة.

بند 65: العبيد الذين قام سيدهم بتصديرهم خارج البلاد عن جهل باللوائح، يتم بيعهم في مزاد عام.

بند 66: الأشخاص الذين حصلوا على الإذن بمغادرة البلاد بطريق البحر وقاموا بالسفر من دون حمل تصاريح تراخيص السفر، يغرمون بمصادرة ثلث

127 (المؤلف .
128) مرسى مطروح .

أملاكهم، فإذا قاموا بتصدير عبيد مملوكين لهم من دون ترخيص بالسفر تصادر كل أموالهم.
بند 67: العبيد الذين ولدوا في بيوت مصريين حتى لو كانت الأم غير مصرية (أى أعلى مرتبة) فإنه لا محل للبحث في أصل نسبهم من ناحية الأم.
(يعقب تاوبتلاج في كتابه عن القانون أن بيع العبيد المولودين في مصر، كان أمراً محرماً ومن خالف كانت توقع عليه عقوبات صارمة).

وتفيد النتائج الناجمة عن هذه السياسة التي حولت مصر. إلى أرض قفر خالية من السكان، بعد أن فر سكانها إلى البرارى نتيجة مباشرة لسياسة رومانية ولولاة جعلوا وظيفتهم الوحيدة كما قال الوالى "أفيدوس هليودورس" عام 139م : "إن أهم الواجبات الملقاة على عاتقى، بل أشد هذه الواجبات ضرورة وأكثرها إلحاحاً وأحوجها منى إلى العناية الفائقة هي تحصيل المطلوبات لبيت المال" وهو ما لم يختلف في ذلك عن أى والٍ أموى أو عثمانى. بل على العكس يمكن القول بأن أساس العلاقة بين الفلاحين المصريين وسلطات الغزو جرى تأسيس ملامحها كافة في العصر الرومانى، وهي لم تتغير كثيراً منذ ذلك الحين، سواء باعتناق الفلاحين المصريين المسيحية أو الإسلام.

* * * *

شعب بلا ملكية، وفي المرتبة الأدنى وبلا آلهة...
وجماعة بشرية بلا شريعة...

الفصل الثالث عشر الاستلاب الرومى

السياسة الدينية للرومان

قسم التسليم للمهزوم

"إني أعطيت عن يد شخصي ووطني وأرضي والماء الذي يجري خلالها وآلهة الجدود والمعابد وما ملكت يميني، أعطيت ذلك كله للرومان".

لفرط التصاقهم بعالمهم اكتشف المصريون على حين غرة، أن مركز النسق الكوني أصبح خارج ثنائية النهر والشمس، وأن العالم يمتد خارج النسق "الماعت" الذي أسسوا عليه مفهومهم عن الوجود، وعبدوا ملوكهم وآلهتهم، وجرت المياه في النهر والوادي وفي الروح والجسد على أساسه، فأصبح كل شيء وعلى حين فجأة محض هراء.

وفي عام 332 ق.م، دخل الإسكندر الأكبر مصر. وذهب إلى معبد آمون، فنادى به كهنة آمون ابناً

للآلهة، ليصبح فرعوناً على أرض مصر.. لكن صدمة الغزو المقدوني بدت حانية؛ فالفاتح المقدوني أظهر احتراماً لاثقاً بالآلهة المصريين، وعدّ نفسه ابناً للإله آمون، وهو ما أثّج صدور الكهنة والمؤسسة الدينية، وجعلهم يشعرون بفخر زائف، وفي الأوضاع الجديدة ظلت مصالحهم تحت سلطة الاحتلال الوافد من الخارج كما هي في السابق لم تمس.

أما البطالمة خلفاء الإسكندر، فاستوطنوا الإسكندرية وجعلوا منها عاصمة ملكهم "مصر" التي أصبحت وطناً لهم، والديانات التي عبدها تحولت إلى خليط من الديانتين الفرعونية والهلينية القديمة. لكن مع الفتح الروماني تغير الأمر تماماً.

الكهنوت

مارس الرومان سياسة متشددة إزاء رجال الدين المصريين، بهدف إخضاعهم مادياً ومالياً وإدارياً ومعنوياً، بحيث تتوارى عنهم هالة القدسية التي لم يعيروا لها أهمية أو احتراماً، فضلاً عن تحويلهم إلى موظفين يعملون لدى الإمبراطور الروماني الذي أصبح إلهاً يعبد في مصر، وبالأحرى لخدمة مصالحه الشخصية والمصالح الإمبراطورية. فانتهج سياسة حازمة لتطويعهم وتحويلهم من خدمة دين اجتماعي يمثل ضرورة حياتية لجماعة بشرية، وشرعية للوجود الاجتماعي والأخلاقي للجماعة، إلى خدمة أغراض السياسة الرومانية، فقام بتقليم أظافر المؤسسة الكهنوتية، فانترعت مساحات واسعة من الأراضي التابعة "الوقف" للمعابد والكهنة، لصالح الممولين الرومانيين واليونانيين. ووضعت الأراضي المصادرة

تحت إشراف الولاة وموظفي الدولة وإداراتهم، المقيمين في الإسكندرية، والذين أصبحوا طبقة مضافة على رقاب الفلاحين المصريين، وامتلك الرومان واليونانيون ضياعاً واسعة يعمل فيها الفلاحون، حيث يستغلون بلا رحمة. وأبقى للكهنة ما يكفي لسد الحاجة وبلا زيادة، وقد مهر ذلك التكوين الطبقي الجديد كلا من الحق الروماني والحق اللاتيني، والذي جعل من اليونانيين المقيمين في الإسكندرية يلعبون دور "خولي الوسية" الذي يمسك بكرابيج وسياط كبار الملاك وينهال بها على ظهور الفلاحين المصريين. وهو دور استمر عقوداً طويلة، كان سببا في توافر قدر كبيراً من العداة والكرهية بين الكنيسة المصرية والنخبة اليونانية في ذلك الوقت.

وانتقل الإشراف المالي إلى الموظف المدعو "الأديولوجوس" والمسؤول عن الحساب الخاص بالإمبراطور، والذي منح في عام 123 م. لقب الكاهن الأعظم للإسكندرية وسائر أنحاء مصر. من دون علاقة له بأى صفة دينية، وتضمنت مسؤوليته سلطة الإشراف على كل شؤون العبادة، وهو إشراف طبقاً لمقننة الإيدولوجوس بالغ الدقة من قبل إدارة مدنية على وظائف دينية؛ مما يخرج بها عن السياق الديني إلى السياق السياسي أو الإداري للدولة، والانتقال بها من خدمة الرب إلى خدمة الإمبراطور، وكانت المعابد المصرية ترسل كل عام إلى مديري الإقليم قائمة بأسماء كهنتها وممتلكاتها وحساباتها؛ كي يتم إنجاز رقابة مشددة، وتحصيل الرسوم عليها.

وتبين وثيقة الجنومون قواعد مسؤولية ديوان الأديولوجوس التابع للإمبراطور التامة عن الجوانب المالية والإدارية والقانونية، في كل أمر يتصل بالمعابد المصرية، من تحصيل الرسوم اللازمة، لإتمام عمليات فحص واختبار طائفة رجال الدين، واختيارهم وإتمام مراسم التنصيب. واعتباره المكلف ببيع وشراء وتوريث الوظائف الكهنوتية القابلة للبيع، ومباشرة الإجراءات اللازمة لذلك، وحسم النزاع حول انتقال أو تنازع الوظائف الكهنوتية. وكانت بعض الوظائف تباع في مزايدات لمن يدفع أسعارًا أعلى.

وشملت مسؤولية ديوان الأديولوجوس ترتيب المناصب الكهنوتية وأسلوب قيام الكهنة بأعمالهم، وتحديد طبقاتهم من كهنة، وحملة مقدسات، وعرافين، ومشرفين على حفظ الأردية والملابس المقدسة، وزمارين، وتحديد الرواتب، وموارد الدخل والأنصبة التي يحصل عليها الكهنة من الأضاحي، ووجوب ختم عجول الأضحية بختم خاص؛ حتى تتمكن الخزانة الرومانية من اقتطاع ضرائبها، وهي السلطة المراقبة لسلوك الكهنة وتنفيذهم للواجبات المفروضة عليهم، والملابس التي يرتدونها من دون سواها، وحظر الاشتراك في أعمال لا تتصل بالخدمة الدينية، وتزويدهم بالطعام، وتوفير سائر المؤن بعد عملية الاختيار، ومعاقبة من يعجز عن أداء وظائفه، وحرمان من ليست لديه الأهلية⁽¹²⁹⁾. وانتهى الأمر بالسيطرة التامة على المؤسسة الكهنوتية.

129 (الأهلية ويمكن تفسيرها بالولاء السياسي للإمبراطور أو الخليفة أو السلطة الحاكمة... المؤلف.

ومنع الكهنة من ارتداء شارة العدالة "الماعت" وهي شارة القداسة التي تسبغ على حاملها قيمة معنوية، وأصبحت مقصورة على الكاهن الأكبر.

النصوص الخاصة بالمؤسسة الكهنوتية

بند 71: غير مسموح للكهنة تكريس جهودهم لأى عمل آخر يصرفهم عن توقيير الآلهة. وينبغى ألا يلبسوا غير الكتان "الملابس الدينية". وعليهم أن لا يطلقوا شعورهم أو يسدلوها حتى لو كانوا بعيدين عن موكب الآلهة أو الطقوس الدينية؛ ذلك أن كرامتهم من كرامة القيصر (الإله المصرى الجديد)⁽¹³⁰⁾.

بند 72: غير مسموح بتقديم أى ذبائح غير مختومة على سبيل القرابين، ومن يخالف توقع عليهم غرامة قدرها خمسمائة دراخمة.

بند 73: لا يجوز إقراض إيرادات المعابد بضمنان عقار سبق رهنه.

بند 74: الكاهن المكلف بالإشراف على الملابس والأردية المقدسة يعاقب بالحرمان من راتبه وإيراده، إذا ما تراخى فى واجباته الدينية أو تخلى عنها.

بند 75: الكاهن الذي يتخلى عن واجباته وأعبائه الدينية أو يخالف اللوائح يعاقب بالغرامة، وتشدد الغرامة إلى ألف دراخمة إذا تعددت المخالفة.

بند 77: وظائف الكهان والعرافين الآيلة بطريق التوارث يحتفظ بها داخل نطاق الأسرة.

بند 78: وظائف الكهان العرافين التي تكتسب بطريق البيع ينبغى أن تباع بطريق مباشر أو بالممارسة، وليس بطريق المزاد العلنى.

بند 79: يجب أن يتوافر في كل معبد محراب ويكون به كاهن عراف، ويكون من حقه أن يستولى على الإيرادات.

بند 80: وظائف الكهان المسؤولين عن حفظ الملابس المقدسة قابلة للبيع.

بند 81: لرئيس الكهنة وحده الحق في حمل شارة العدالة "الماعت".

وبعد أن تحولت الدولة ذات التاريخ العريق إلى أرقام وحسابات خاصة بخزائن الإمبراطور، أو بيت المال، وجعلت المورد الذي تستمد منه روما والإمبراطوريات التي خلفتها ما يلزمها من الغلال، جرد الكهنة المصريون من كل امتيازاتهم، ولم يسلموا من القيام بالأعمال الإلزامية والسخرة. وكان الأيديولوجوس يرسل مفتشيه إلى المعابد لتفقد أحوالها، وكانت مخالفة التعليمات تعرضهم للعقاب الشديد، وأرسل المخالفون مقبوضاً عليهم إلى الإسكندرية؛ وكانت الأوضاع المادية قد تدنت إلى الحد الذي جعل الكهنة يتطلعون إلى الإعانات التي تقررها الإدارة الرومانية والتي ضمنت بها خضوعهم لها.

وقد حققت هذه السياسة الرومانية إزاء الكهنة أهدافها، ونجحوا في إبداع صيغة أو "عهد" على الطريقة التوراتية، أو "عقد" يماثل مفهوم روسو⁽¹³¹⁾، عن العقد الاجتماعي، وإن كان بصورة محافظة، ستصبح إحدى سمات المؤسسة الدينية المصرية، ومهمتها تقديم الغطاء الشرعي للغزاة.

(131) جان جاك روسو أحد فلاسفة الثورة الفرنسية وعصر التنوير.

عبادة الأباطرة في مصر

أسس الرومان سياستهم الدينية بالارتكاز على مبدأ تأليه المصريين لملوكهم، لكن ما جعل الأمر أكثر سهولة هو مفهوم المصريين عن الدولة النهرية ذات الطبيعة المركزية، والذي ظل سائداً لأكثر من ثلاثة آلاف عام؛ حيث تتمثل الدولة في شخص الملك الإله، الذي يعد جوهر النظام الكوني وأساسه؛ ومن ثم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وقبل كل ذلك الديني.

لهذا تابع الرومان سياسة البطالمة؛ فاتخذ أباطرة الرومان صفات الفراعنة، ونصب الإمبراطور الروماني من نفسه فرعوناً على مصر، ورسمت صور الأباطرة الرومان على جدران المعابد المصرية والنصب الرسمية التقليدية في هيئة الفراعنة وأزيائهم. وكان من الطبيعي أن يقوم الرومان لتأكيد شرعيتهم، بالحفاظ على الديانة المصرية القديمة بعد تفرغها من مضامينها القديمة، وإذا كان احتلال مصر. قد صاحب انتقال روما من الجمهورية إلى الإمبراطورية، فلا شك أن الأباطرة الرومان ما كانوا ليحلموا على المستوى الشخصي، أن يجدوا مكاناً يعاملون فيه كآلهة كما حدث لهم في مصر.

سخرية أم مسأخر العقيدة الدينية

ومن المثير للسخرية أن أباطرة الرومان الذين أسسوا عقيدتهم على انخفاض الوازع الديني وعدم المغالاة في عبادة الآلهة، أقاموا في مصر. معابد جديدة، وأصلحوا المعابد القديمة وأدخلوا عليها التحسينات،

بعد أن أصبحت الديانة المصرية القديمة، إحدى وسائل استقرار الحكم الروماني واستعباد المصريين.

وقد عبد أباطرة الرومان في المعابد من خلال طقوس موعلة في القدم كتاريخ الديانة المصرية القديمة، وقد وجدوا لذواتهم مؤسسة كهنوتية عميقة الإرث تعمل على تقديسهم وتأليههم، مؤسسة تمتد جذورها في أعماق الحضارة المصرية، وتنتشر جغرافياً على امتداد وادي النيل.

وبالرغم من ذلك لم يقلل هذا احتقار الرومان للمصريين، ولم تعترف روما بهذا التأليه (وإن حافظت عليه) لا على المستوى الروماني الرسمي ولا الشعبي. ذلك أن الرومان لم يقوموا على تأليه إنسان على قيد الحياة، وهو ما يوضح سخرية الأمر.

وظيفة آلهة مصر القديمة

كان الملك الإله هو الحامل لإشارة الماعت لدى المصريين القدماء الحافظ لسنة الكون، القائم على الحفاظ على الديمومة، وكان يمثل نسقاً من غائية تعني الخير والنماء؛ فالديمومة لدى المصريين القدماء مفهوم استقوه من طبيعة الوفرة، من صيرورة الضوء والمياه المحملة بالخصب، النهر والشمس، وكلاهما جوهر الزراعة، وجوهر الخصوبة، وجوهر العمل الإنساني، وجوهر الخير، وجوهر الحياة.

كان الإله المصري يعد الفلاحين إذا ما كانوا صالحين وعملوا بكد وعرق، وإذا مارسوا حياة اجتماعية مبنية على الفضيلة، بالخلود في فردوس أبدي على الأرض الذي أوجد فيها الإله أنوم ذاته،

فاحترموا نساءهم ونساء جيرانهم، ولم يسرقوا ما يملكه جيرانهم، ولا شك أن الوعد كان يعنى أن حياتهم ملك لهم، وأن فائض قيمة عملهم المادى هو لهم، وراث يهبونه لأولادهم وأحفادهم من بعدهم، وأن البناء الأسرى الذي أسس عليه المجتمع المصرى، كان شديد الثراء، قائماً على المودة والمحبة، والمشاركة والتعاون الذي تتطلبه الأعمال الزراعية، ومن ثم الترابط بين أعضاء الأسرة الواحدة، وأن الأسرة التي تأسست على مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة، والثنائية التي هي منشأ المجتمع الصالح وأساسه، والذي ترشده وتمثله الربة إيزيس الأخت والعاشقة والزوجة والأم، التي دافعت عن زوجها الإله أوزوريس، وجمعت أشلاءه من أقاصى أقاليم البلاد الأربعة عشر، وحملت منه بعد موته في مستنقعات الدلتا وهي على هيئة طائر الرخ، وجاءت منه بحورس المنتقم، ولما صارت أمًا دفعت الابن لقتال العم الظالم الشرير الإله "ست" بغرض الانتقام للأب إله الحساب والبعث والعالم الأخرى والنيل، والذي قاد أول ثورة مساواة بين البشر. الفانين البسطاء، والملوك الآلهة الذين كان لهم وحدهم "حق الخلود". وهو أمر سيكون شبيهاً، وربما للصورة التي استقت منها المسيحية معانيها العامة. عندما تجعل حق الصعود إلى السماء، لجميع البشر من المؤمنين بالرب، مثلهم مثل أباطرة روما.

وعندما يصبح الأباطرة الرومان آلهة يعبدون، سوف تتخلق فجوة ستظل تزداد اتساعاً بين الطقوس والعبادات اليومية، والمعنى الروحى الذي تعنيه، ولا شك أن المصرى القديم تعذر عليه فهم المرجعية

الأخلاقية لذلك الإله الجديد الذي يتعين عليه عبادته، وتقديم البخور والقرايين من أجله، وهو الذي اقتحم بلاده، وعملت قوانينه الصارمة على الاستيلاء على أراضيه، ونزع شرعية علاقات النكاح، وترك عوراته مكشوفة بلا شريعة تسترهم، ووضعهم موضع الذل.

المؤسسة الكهنوتية

وعندما حلت عبادة الأباطرة الرومان الذين يمثلون سلطة الغزو محل عبادة الملوك الفراعنة، بلغت أزمة المجتمع المصري ذروتها. وظهر تناقض على مستوى الوعي والهوية، بين مستعمر يرسخ في مستعمراته مفاهيم عرقية ويطبق سياسات دامية، وينظر إليهم باستعلاء واحتقار، وبين جماعة مستعبدة عليها أن تعبد وتؤله قاهرها وغازيها، الذي أنزلها من مرتبة بشرية سامية إلى مستوى أدنى بكثير من مستوى الحضارة التي قطعوا شوطاً طويلاً وهائلاً في تأسيسها وبنائها.

وعلى الرغم من ذلك قامت المؤسسة الكهنوتية بالدور الذي سوف يلتصق بها طويلاً، وهو التسبيح بحمد الأباطرة الرومان، وتورطت دون وازع أخلاقي في التخلي عن دورها الوطني، وكرست عبادة الأباطرة الغزاة والفاثحين، يرسمون صورهم على جدران المعابد، والخراطيش، وعلى رؤوسهم التاج المزدوج للوجهين القبلي والبحري، وحفرت أسماؤهم الرومانية داخل خراطيش باللغة الهيروغليفية، وخلعت عليهم في شكل إيماني الألقاب الفرعونية المألوفة. وأمام المذابح وقفوا يرتلون باسمهم التراتيل، ويذبحون لهم القرايين، ويحرقون البخور، وتسبح مواكبهم بأسمائهم.

آلهة التناقض أم عبادة المسوخ

فمن هو ذاك الإله الذي لا يلقي أهمية كبيرة للدين، حتى يصبح إلهاً يكرس له الكهنة في المعابد، ومن هم أولئك الآلهة الذين أوقعوا على رعاياهم كل ما هو مناقض لمعنى الربوبية، والمتمثل في أشكال الظلم والعسف والاضطهاد العرقي والديني.

وإذا كانت هذه السياسة قد مثلت خدعة زائفة من كل الوجوه، فإن الأباطرة الرومان الذين لم يؤمنوا بالدين، ولا بالتحكم في مسار النظام الكوني، قدر ما كانوا يؤمنون بقدرة جيوشهم على الانتصار في المعارك، وعظمة قادتهم على ذلك الحصون وتدميرها، وفتح المدن، والموانئ والأمصار وإخضاع الأمم لروما المضفرة، في عالم تراجع فيه دور الدين لديهم تاركاً المجال لفضائل المواطن الشجاع القادر على القتال وقت الحرب، المزراع المجد وقت السلم، في تعظيم لعالمه الدنيوي من دون إسراف.

وسوف يفسر. هذا موقف المصريين المسيحيين الأوائل من المؤسسة الكهنوتية الوثنية، وكراهيتهم للحضارة المصرية القديمة ورموزها، وذلك في القرون الأولى من دخول الدين الجديد، والتي قامت بفعل العار وهو القبول بالغزاة، والتخلي عن دورها الجوهري في خدمة المفهوم الثقافي والاجتماعي الديني. ذلك أن الدين تحول لدى المؤسسة الكهنوتية الوثنية من التزام بواجبات إنسانية في جانبها الديني نحو الجماعة الاجتماعية، بوصفها أوامر إلهية أخلاقية، إلى طقوس من خدمات وعبادات وشعائر لاسترضاء الإمبراطور الغازي.

وإذا كان رب بني إسرائيل له غائية كبرى، وهي تحرير شعبه من العبودية في أرض مصر، فقد حثهم على الخروج من أرض الأسر، بوعدهم إلى أرض اللبن والعسل، وقادهم إلى أرض الميعاد عبر متاهة سيناء، مسلحين بشريعة تحمي علاقات العشائر الاجتماعية، وهو أمر له مغزى كبير ومعنى يحوى كلية البحث عن طريق للحرية وأرض للتوطين ومعنى للخلاص، على الرغم من انعدام الطابع الأخلاقي لهذا الوعد الإلهي إزاء السكان الأصليين، ولا يبرره سوى أنه إله عشيرة، وليس إلهاً كونياً كما سيرتفع مع الديانة المسيحية، سقط المصريون أمام الآلهة الرومان الذين ارتدوا مسح الفراعنة في حالة انسحاق كلية، في المقابل لم تسع المؤسسة الكهنوتية المصرية القديمة لمقاومة المفاهيم الزائفة للسياسة الدينية للرومان، أو تقوم بكشف الخداع الكبير، الذي بدا مثيراً للسخرية.

انهيار المفهوم الدينى القديم لدى المصريين إزاء

العالم

ولما كان الإنسان لا يملك دليلاً لفهم العالم سوى الحقيقة الإيمانية أو الحقيقة العقلية، فلم يكن لدى المصريين ما يبرر لهم الإيمان بالعالم الجديد، الذي يتنافى مع كل وقائع الدين الاجتماعى وطبيعة الآلهة التى سبق وآمن المصريون القدماء بها.

فلا الدين الجديد يتطابق مع أى نظرة ممكنة إلى العالم، بعد أن أصبح النظر إلى العالم حقاً خالصاً مقصوراً على المواطن الرومانى ودولته، وليس من نظرة بديلة إلى الشعوب المغلوبة سوى القبول بالرق

والعبودية، فكان من نصيب المصريين أن يكونوا عبيد
أمم.

لقد فقد الدين الجديد غائيته نحو نظام يجنح نحو
الفضيلة والعدالة، وليست لدى العبيد غاية سوى
القبول بمنتهمهم والتماهي مع قيمهم، وتحقيق كل ما
يعود بالسعادة على سادتهم الجدد، والفضيلة الوحيدة
الممكنة هي القبول القهري بكل ما يقع عليهم من قبل
سادتهم من شرور.

ولا يقدم الدين الجديد نظاماً أخلاقياً، بعد أن
أصبح غير أخلاقي بالمرّة، فلا أخلاق للعبيد سوى
القبول باغتصابهم وانتهاكهم الجسدي والروحي، وكل
ما يحلو لسادتهم أن يفعلوه بهم من ضرب وأذى وقتل
واغتصاب.

لقد تحولت اليد العليا للرومان على الشعوب
المقهورة إلى طاغوت مدمر للمصريين، فلا يترك قسم
الاستسلام الروماني للمهزوم القدرة على النهوض من
جديد، ولا يكتفي بانتزاع ما هو إنساني، وألا تشبع
نزوته ركوعه النهائي، وإنما يحوله عن تصميم وإرادة إلى
عدم؛ فهو لا يكتفي بالاستيلاء على ملكية الأصول
المادية و الرأسمال المادي للأمة المهزومة، أو نزع
التحضر. الإنساني الذي بلغته شعوب المتوسط
المقهورة، لكنه يجنح إلى سحق رأسمالها المعنوي؛
فعلى المغلوب أن يسلم للمنتصر. آلهته ومعابده، وآلهته
أجداده، أي يننازل للمنتصر. عن دينه وشريعته، وبمعنى
آخر، إن على المغلوب أن يخسر. كل شيء؛ ماضيه
وحاضره ومستقبله. ولا شك أن هذا شكل للمصريين
ذهولاً، وقد مر الأمر على رقابهم كشفرة سكين حادة،

ولم يتمكنوا من أن يجدوا وقتاً كافياً لاستيعاب مثل هذا النوع من اللعنات.

إنها حالة انتهاك جسدى وروحي واغتصاب متواصلة لا تؤدى سوى إلى فقدان الذاكرة، أو الوقوع في حالة من انفصام الشخصية، أو حالة أكبر من وضع الاغتراب، إنها حالة استلاب جمعى.

* * * *

الاستلاب الروحي

عندما تحولت معابد المصريين القدماء إلى مكان تمارس من خلاله عبادة المستعمر والقاهر الروماني، كان هذا إيذاناً بظهور الشعور بفقدان التقدير للذات، ومن ثم السقوط دون توقف في حالة الاستلاب الروحي؛ فتقدير الذات وليس تفضيلها هو مبدأ كل الواجبات. وهذا معناه أن أفعالنا يجب أن تحافظ على تقدير الإنسان وقيمه.

لذا يمكن من هنا فهم الميل الشديد لدى المصريين لدخول الديانة الجديدة، "المسيحية" التي انتشرت بينهم في النجوع والقرى، ويمكن فهم السبب الذي تحولت فيه المسيحية في وقت قصير إلى "هوية" للمستضعفين الذين لم تعد لهم "هوية".

وتعد تلك اللحظة فارقة في التاريخ المصري، عندما شاركت المؤسسة الدينية الغزاة في تسويق المصريين كقطيع نحو عالم الاستلاب، فتولى القانون الروماني تكريس الاستلاب المادى، وتولت المؤسسة الدينية تكريس الاستلاب الروحي، ومنذ تلك اللحظة سيفقد

الدين المصري القديم مصداقيته الاجتماعية، وإشباعه الروحي للذات وسيتحول مع الدولة الرومانية إلى مسخ يمثل قانون بقاء المؤسسة الدائم، في كيفية التعامل مع الغزاة، حيث تتولى تقديم الغطاء الديني لشرعية سلطة الغزو، تماما كما لعبت نفس الدور مع الحكم المملوكي الذي كان تمثيلا مباشرا لحكم العبيد والمجلوبين وسلع النخاسين المفضلة والذي دام ستة قرون متواصلة، مقابل الحصول على قدر معقول من التميز الذي يشتمل على كل من حياة طيبة، لايعاني أعضاؤها من شظف العيش، وربما صعود رؤسائهم إلى حياة الطبقات العليا، وقدر معقول من النفوذ.

* * * *

الاستلاب الجمعه

يقول وول ديورانت:

(أن القانون هو أساس التاريخ الروماني وجوهرة).

نعم، هو محق في ذلك، لكننا يجب أن نعرف أيضا أن القانون الروماني كان الآلية التي أخرجت الفلاحين المصريين من التاريخ. والقانون الروماني هو الذي جعل مصر مطية لكل الغزاة والفاحين، فتطبيق القانون الروماني كبح أي أساس مادي لنمو قوى اجتماعية، قادرة على الوعي بمصالحها السياسية والدفاع عنها؛ ومن ثم امتلاك قوة عسكرية في عصر سادته حروب القبائل والأمم، والحقيقة، لم تتوقف الصراعات والحروب على مر العصور، وكان من الطبيعي أن لا يتيح

مثل هذا الوضع سوى تمظهر بنية فوقية تعكس ثقافة العبيد، والتي تتمحور بين وعى استلابي منسحب من العالم، أو تبنى ثقافة سادتها.

من النادر أن نجد بين زوايا التاريخ إنجازًا ثقافيًا أو حضاريًا أو اقتصاديًا لطبقة العبيد. لقد أسقطوا من التاريخ الإنساني، تاركين للمواطنين الأحرار في الدولة اليونانية والرومانية الإبداع في العلوم الإنسانية والتجريبية، وفي شؤون الحكم والسياسة.

لن يقتصر الأمر على إجهاض قدرة المجتمع المصري على التطور، بتحويل المصريين من مواطنين على أرضهم إلى جماعة من العبيد في وطنهم، إذ كيف يصبح الفرد المصري فاعلاً في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية من دون أن تكون لديه ملكية وطنية؟ وكثيراً من يحكم على أعداد كبيرة منهم بالعمل بالسخرة، كيف يمكن أن تتشكل بنية من القوى الاجتماعية الإقطاعية أو التجارية إذا كانت الأراضي ملك الإمبراطور أو الخليفة أو السلطان أو الأمير المملوكي، وكيف يمكن للجماعة المصرية تكوين قوات عسكرية عندما تكون تكلفة جندي المشاة وعدة الفارس والخيول الذي يمتطيه في أثناء ذهابه إلى الحرب لا يقدر عليه سوى لوردات الأراضي وسادتهم، إذا كانت الدولة المسيطرة تحتكر الأراضي والتجارة والمكوس والمناجم والثروات المعدنية، وعندما يمنع إلحاق أبناء البلاد الأصليين بالجيش.

داخل هذا السجن المغلق، والذي سيتحول فيما بعد لهاوية بلا قرار، سيتشكل الوعي الثقافي للجماعة المصرية، والذي سيكون انعكاساً لبنية اقتصادية

تراتبية لمؤسسة من الجباة داخل نظام الالتزام الذي أسسه الرومان وأخذ به خلفاؤهم من الغزاة؛ حيث يجلس على قمة الهرم الرومان، ويحتل أسفلهم طبقة من اليونانيين والمعتوقين، تحيط بهم طبقة هشة من التجار ورجال الدين، يعملون جميعا في همة ونشاط على مص دماء الطبقة الدنيا والمعذمة من الفلاحين؛ قطعان هامشية، عاشوا أوضاعاً لا ترقى إلى الحيوانات المدجنة التي تستخدم مثلها مثلهم، قوة إنتاج لعلاقات زراعية. عبید على أرض لا يباعون ولا يشترون، ولكن ملقون في الدساكر والقرى والكفور، تمر بهم السنون بلا تغير ولا تطور.

هذا ما اكتشفه محمد بك الألفي أحد أمراء المماليك بعد ألفي عام، عندما رحل إلى بريطانيا مع الحملة الإنجليزية التي شاركت في حصار الحملة الفرنسية عام 1801، ثم عاد إلى مصر. مع حملة فريزر في 1807، وألقى عظته المضحكة المبكية إلى أعوانه من بقايا المماليك، عن سوء الأحوال التي تسببوا فيها، لأقرانهم للفلاحين طوال ستة قرون، ونصحهم بأن عليهم معاملة الفلاح المصري كما يعامل الفلاح بهيمته، يحافظ عليها، ويعمل على تغذيتها، فهي ثروته، وقوة عمله ورأسماله، وكان أقصى ما تفتق به عقل هذا العبد المملوك وأمير الحرب من خلال إطلالته السريعة على أوروبا في مطلع القرن التاسع عشر. هو أن يرتقي بالفلاحين إلى مرتبة البهائم، فماذا كان عليه الفلاحون المصريون البؤساء؟

هذا أمر ينبغي دراسته بالتفصيل، وبخاصة كما ذكرت قبلا أن ظاهرة المماليك، وهم العبيد

المجلوبون حكموا مصر. ستة قرون، وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ويبدو أن وجودهم لم يكن نتيجة فقط لموقف الشريعة الإسلامية من الرق. الآن نستطيع أن نكتشف وجود سابقة واضحة في مصر الرومانية، والتي يمكن أن تفسر. على الأقل من الناحية القانونية أن علو طبقة المماليك "العبيد المجلوبين والمعنوقين" على أبناء البلد من المصريين، كان له سابقة في الحكم الروماني، حيث نص الدستور الذي وضعه الرومانيون لمصر. على علو مرتبة العبيد المعنوقين على أبناء البلد الأصليين.

سوف تفقد مصر استقلالها السياسي والروحي لألفي عام، وإذا كان هناك شيء يمكن فهمه، فهو أن تاريخ الجماعة المصرية من الفلاحين استمرت في وضعيتها الاجتماعية والعرقية التي شكلها القانون الروماني، وسيطرة محكمة من الإدارة الرومانية التي طبقت القانون من خلال نظام الولاية والالتزام، الذي أصبح القلب الذي سوف تحكم من خلاله وتتقوّلب فيه مصر، بعد أن يؤسس الرومان العقد الذي ستعتمده كل الإمبراطوريات اللاحقة على حكم مصر، والذي سوف يبقى مصر. نائمة في سكون شبيه بالموت، من دون أن يتحسن وضعها كثيرا بعد اعتناق الفلاحين المصريين المسيحية التي كانت طوق النجاة لكل شعوب المتوسط بعد قرنين من الحكم الروماني لمصر، واعتناق الإسلام بعد عدة قرون من الفتح العربي،

هذا العقد غير المعلن والموقع بين سلطة الغزو وبين المؤسسة الدينية، سيترك للمصريين حرية المعتقد الديني، مقابل عبودية غير معلنة، وهي

عبودية الأمم، وسيضمحل مفهوم الوطن ومفهوم الهوية، ومع الزمن سيتلاشى كلية ليحل مفهوم الجماعة الدينية، وهو ما سوف يكون السبب الثاني في ذيوغ الهوية العامة للمصريين. ففي كل الأحوال ظل المصريون في صميم الأمر لكل الغزاة والفاحين عبيد أمم وإن ظل الدين صورة الحياة.

وقبل عام (27 ق.م) من ميلاد السيد المسيح بلغت روما أوج مجدها، وكان المواطن الروماني يجلس وحده على سقف العالم لا يزاحمه فيه أحد، بينما شعوب المتوسط تتحول تحت سنابك خيله وفيالقه الرومانية إلى شظايا من رقيق، وشعوب من عبيد. وبشر. يسعى بائساً على الأرض الخراب، وقد تأكلت ذاته وتهدمت، ويعيش فراغاً قيمياً وأخلاقياً.

لنترك لروما ملكوت الأرض، ونتبع المسيح إلى ملكوت السماء: عندما بشر. السيد المسيح بملكوت السماء، كانت شعوب الإمبراطورية المهانة في أمس الحاجة إلى شريعة تستر عورتها، وكان من الطبيعي أن يتلقى المصريون والشعوب المقهورة دعوة السيد المسيح في مصر. وحوض البحر المتوسط مثل عراة يطلبون كساء الكرامة واستعادة التقدير للذات، وانتشرت المسيحية انتشار النار في الهشيم، واعتنقها الفقراء والمعدمون، وآمنوا بها؛ طلباً لتحقيق عالم العدالة والسعادة، حتى لو كان هناك في ملكوت السماء وجوار الرب وفي فردوسه.

تحت ضغط من ظهور للمسيحية وانتشارها، منح الإمبراطور كاراكالا في 212 م حق الجنسية الرومانية لجميع الذين ولدوا أحراراً في الإمبراطورية، إلا أن

مرسوم المواطنة جاء متأخراً كثيراً، ومنقوصاً، فلم يكن مسموحاً لهم التصويت أو المشاركة في الحياة السياسية. كما أن الهدف لم يكن يخلو من شبهة جمع مزيد من الضرائب، بينما ظلت أعمال القسوة والاضطهاد على ما هي عليه، ولم تكن الشعوب المقهورة تغفر لروما فعلتها الشنعاء.

المحبة سريعة عيسى

السيد المسيح جعل من الحب شريعته؛ فجوهر نزوله من عرش السماء أن يرفع عن البشر. التعساء الخطيئة والأحكام الربوية المترتبة على ارتكاب الأب الأول والأم الأولى من عصيان وخطيئة أوقعت بنسلهما آلام ومتاعب ومشاق، وفقدان نعمة الخلود في الفردوس، وهذا ذروة في التعبير عن محبة الرب لأبنائه، وهو البعث بعد الموت وعودة الأبرار والأخيار من المؤمنين بملكوته إلى الفردوس السماوي.

كيف يفعل السيد المسيح كل هذا إذا لم تكن شريعته المحبة؟ ولو كانت المحبة هي كل ما جاء به السيد المسيح وحده، لكفاه ذلك سموً ومجداً.

"فَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هَذِهِ وَيَعْمَلُ بِهَا أَشْبَهُهُ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ بَنَى بَيْتَهُ عَلَى الصَّخْرِ،" متى (7: 24)

* * * *

الباب الثالث

تطور الصراع بين المفهومين المادى والدينى

مقدمة

أشرنا أن البحر المتوسط شهد خلال الألف عام التي سبقت ميلاد السيد المسيح خمس موجات حضارية، تحمل رؤى ميثولوجية وبنى ومفاهيم ثقافية كبرى، عملت في مجرى التطور التاريخي، وأن هذه الحركات الثقافية نشأت في أعقاب بعضها البعض، وتأثرت كل منها بالأخرى تأثيراً عميقاً ومباشراً، كان في بعضه يأخذ سمات التماثل، وأحياناً الامتزاج ومن ثم التوالد، والبعض الآخر كان ذلك التأثير يتم بالمفارقة، والانحراف، أو القطيعة.

وإن ميلاد السيد المسيح جاء وكل من هذه الجماعات الثقافية في موقع بلغ شأناً عظيماً من تفاوت القوة، ومن بين هذه الحركات التاريخية تربعت روما الإمبراطورية على مسرح التاريخ. وقد سحقت تحت أقدامها شعوب المتوسط رقيقاً مباعاً، أو عبيد أمم. وكانت تستند على عدد من المبادئ، منها أن الطبيعة مبدأ الكون، والمرجع الذي يستقى منها الإنسان أفكاره ومفاهيمه عن الوجود والحياة. وأن العقل الإنساني هو الأساس الذي ينظر منه الإنسان إلى الكون والنفس

معا. وعليه فإن الإنسان الذي وعى ذاته كوجود منفصل عن العالم هو أساس المجتمع. وهو ما يعنى أن الدولة الصالحة التى تهدف للخير العام هى مؤسسة على نظام سياسى يستند على ديمقراطية المشاركة للمواطنين الأحرار، المنتمين إلى قبائل وعشائر مميزة عرقيا عن بقية الأجناس.

وبهذا يمكن القول بأن المتوسط شهد صراعاً عالمياً حول حقوق الأفراد والشعوب، التى جرى تدميرها بفعل القوة الرومانية الساحقة؛ ما يمكن القول معه بأن الصراع القائم على ضفاف المتوسط قد انتهى قبل ميلاد السيد المسيح مباشرة إلى هزيمة الرؤى الميثولوجية الدينية، التى خسرت المعركة ضد روما المدنية صاحبة القانون المدنى.

وأن ليس ثمة قوة مادية على ضفاف البحر المتوسط، كانت قادرة على إلحاق الهزيمة بالإمبراطورية الرومانية التى تستند على حضارة مادية الأصول.

إزاء هذا الواقع المأزوم، خرج الدين ليقود معركة الشعوب المقهورة، وبدا أن الصراع بين قيصر- والمسيح، سيمرغ أنف روما فى التراب وسوف يقهرها، ويجعل من اسمها شيحا يهرب منه الأباطرة، ويغادرونها؛ لينشئوا مدناً جديدة لا تحمل ما حملته روما من تراث سوداوي مظلم افتقد القيم الإنسانية والشرعية الأخلاقية.

* * * *

الفصل الرابع عشر المعنى الاجتماعي للدين

صورة العالم بين الكمال والنقصان
ليس العبرانيون من كانوا شعب الله المختار، رغم أن كافة الديانات والثقافات التالية قد أمنت بذلك، وهو أمر يمكن التشكيك في حقيقته الآن، فعبّر آلاف السنين كانت الرموز التي تمثل فيها المصري رؤيته للكون في حالة تكرارية مذهلة، وليس للمصريين ذنب في الأمر، فباللغة الأسطورية أو بالتراث المعرفي الديني

والحضاري، ومن قبلهما المادي، كان الفلاح المصري مختاراً سواء من قبل السماء أو من قبل الطبيعة المادية، كي يرتب فكر العالم ويؤسسه، كان مختاراً كي يكتشف عن الثورة الزراعية، وكان مختاراً ليؤسس للعالم نظرتة إلى الوجود، والكشف عن أسرارته البدئية، وأن يعلو بالإنسان من الموت المطلق والفساد بمفهومه الفلسفي، إلى منظومة الأخلاق الدينية التي تجعل من البعث بعد الموت ثواباً لمن يجعل حياته الدنيا انعكاساً للإيمان بمفهومي الخير والعدالة، وفي هذه الديمومة القائمة على الحق والخير، وجد المصريون القدماء معنى لحياتهم الإنسانية، فراحوا ينشدون الفضيلة، وفضيلة المصريين هي العمل الصالح القائم على المشاركة والتعاون.

هذه الثقافة الإنسانية تطورت فيما بعد وتحولت مع معظم الديانات إلى قوى روحية كلية عليا مفارقة، تنصب في معان ومفاهيم تنحو بصرامة إلى التجريد. وبخاصة في الديانة الإسلامية حيث بلغ التجريد أقصى معانيه بالرفض القاطع للتشبيه.

وفي مفهوم الدين المصري القديم، تستند صورة العالم إلى مبدأ كمال العالم وتمامه، فهو الحق والحقيقة، وهو مؤسس ضد الفوضى والعماء اللذين كانا أصل العالم، فكل شيء قد وُجد؛ الطبيعة والموجودات والبشر. والمخلوقات هو عبارة عن مكونات تعمل في نظام من نسق كلي من التوازن والانسجام، وتهدف إلى إحلال العدالة والخير. هذه النظرة السكونية وجدت في الديمومة معادلاً محركاً

للحظة الآنية، أن الديمومة هي المعلم الأول للمصريين، ولكنها أيضا مقبرتهم.

لكن مصر القديمة اختيرت كي تكون معملاً لأنساق القيم في تاريخ البشرية، ومن ضمن ما أكده المصري القديم عندما خسر. معركته ضد الموت من أجل الخلود، لغيره من الشعوب أن الإنسان مخلوق ناقص، وأن الحفاظ على الجسد الإنساني من التحلل والفناء لا يعيد الحياة إلى الإنسان.

لقد اهتز كل شيء لدى المصريين القدماء، فمن النسق الكوني المغلق على ذاته، انفتح العالم فجأة ليصير الكون حقيقة يعتمدها النقضان، وعندما حاولت الفلسفة الأفلاطونية حل المعضلة، بالقول بأن الكمال موجود فقط في عالم المثال والصور، بينما الوجود الواقعي حالة انعكاس لعالم المثل يعتمدها النقضان، كانت تساهم أيضاً في المفهوم الديني الذي اتخذ مسارات جديدة، وإن كانت هي لم تستطع الصمود، أمام الإمبراطورية المدنية القادمة.

أكثر من خمسمائة عام من عمر الجمهورية الرومانية، تولى القانون الروماني تحويل العالم القديم بأكمله إلى همج، وبرابرة، ووحوش، يعيشون خارج المدنية، في ارتكاسة أعادت بالحضارة الإنسانية إلى الوراء. كانت روما تفرض حقيقة صارمة على الشعوب التي استعبدتها بأن العالم لا يعتمده النقضان فحسب، بل يسيطر عليه الشر. المطلق، وفي ظل هذه الأوضاع جاءت المسيحية استجابة لعالم يئن من الأوجاع، ليكرس مفهوماً جديداً للدين، حيث العالم الأرضي بمجمله عالم عناء وشقاء، وهو ما يتماشى مع النظرة

التوراتية للخلق، وهو أيضا حقيقة واقعة أذاعتها روما لشعوب المتوسط، بينما الإله أب رحيم، يرفع عن كاهل الضعفاء والبؤساء آلامهم.

الغرض

من مبدأ النقص ظهر مبدأ الحركة نحو الكمال، ما يعنى أن هناك غرضا وغائية لم تتحقق بعد، وأن هناك تخطيطاً للأشياء، وأن هذه الغائية أو المخطط لابد وأن تتلاءم معه حياة البشر، فهو يسعى في جوهره وأخلاقياته السامية لتحسين حياة الإنسان. ومن المؤكد أن الإيمان بوجود فرضية غائية للكون ليس ابتداء الديانة المسيحية، ولكنه يضرب بجذوره في أعماق الماضي البعيد. يقول هيوم عن الدور الذي يلعبه الدين في حياة البشر: إنه هو المذهب الوحيد الذي يقدم تصورا معقولا وشاملا لعملية نشأة الكون وخلق الكائنات، (من بين المميزات العظيمة لمبدأ التوحيد أنه يعتبر النظام الوحيد لنشأة الكون الذي يمكن اعتباره معقولا وكاملا)⁽¹³²⁾.

لهذا تأسس جوهر عقيدة السيد المسيح على المفارقة بين عالم دنيوى فاسد، ومملكة سماوية للمؤمنين لدى الأب الراعى في السماء، وهو مبدأ قد يبدو من الوهلة الأولى ينطلق من العقيدة التوراتية والتي ترى أن حياة البشر. مؤسسة على ثنائية الخطيئة والعقاب الذي جاء في التوراة، وأن حياة البشر. سوف تظل تعيسة ويسودها الشقاء، وهو ما كان يؤكد الواقع الحقيقي لشقاء العالم تحت سيطرة روما.

(132) دافيد هيوم - Dialogues Concerning Natural Religion, DAVID HUME - محاورات في الدين الطبيعي - ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى - دار الحداثة للطباعة والنشر - 1956 - صفحة 148.

وتعد إحدى جوانب عبقرية السيد المسيح أنه لم يجعل من القيصر وجيوش الإمبراطورية الرومانية خصماً له، فما كان باستطاعة أحد مناوأة جيوش الإمبراطورية، أو الدعوة لشن حرب جهادية ضد روما التي تملك من القوة سحق أعدائها، وإبادتهم وبيع خصومها رقيقاً في الأسواق، لهذا طرح على أتباعه مكاناً آخر قصبياً لا يمكن لأحد أن يلحق به وبهم هناك، وهو السماء، التي يتم بلوغها بعد الموت، وهذا حاجز آخر يصعب عبوره، لقد منح أتباعه من الضعفاء هبة البعث الأوزورية في عالم سماوى للأبرار، في فردوس الأب الذي يعتنى بأبنائه من الفقراء والمحرومين والتعساء والمظلومين.

وهكذا تصبح التصورات التي يقدمها الدين للحياة، بمثابة سلوى للبشرية تقلل من تأثير المصائب، وتعين على مواجهة البؤس المنتشر. وسط الطبقات الفقيرة، وعثرات الحظ عند انتكاسات الأثرياء، لتجد الأمانى البشرية وسط اليأس المفرط نصيراً ترتكز عليه.

كما يذكر هيوم "تصبح التصورات التي يقدمها الدين للحياة والمصير هي بمثابة سلوى وحيدة لدى البشرية إزاء الآلام التي تصادفها، وهي الدعامة الرئيسية لمواجهة انتكاسات الحظ المعاند، وأنه الأمانى البشرية في التطلع إلى سند لا نهائى ترتكز عليه" (133).

ومثل هذه المفهوم لم يكن ليظراً على المصريين القدماء، لأن العالم موجود ومعلوم بقضه وبقضيضه، بآلهته وكهننته، ودنياه وآخرته، بعالمه الواقعي وفردوسه الأخرى، إنها صورة عادلة خيرة مكتملة،

كما أن الإمبراطورية الرومانية لم تتمكن من تعديل القواعد التراتبية المستقرة بإصدار قانون الإمبراطور كاراكلا الذي عجز عن مداواة الجراح العميقة أو يصلح الانكسارات المهينة لشعوب المتوسط المقهورة.

الشريعة والمحافظة على الذات

للدين دور جوهري في المجتمعات، وذلك بالمحافظة على الذات، فالدين يضيف على الوظائف الضرورية للإنسان، السمو الناجم عن اعتبارها أوامر إلهية وشرائع علوية، وهو يستشرف وجوده على ضوء الشريعة، فيمارس سلوكه الاجتماعي وشأنه الفردي بحساب، وهو يملك بالإيمان بالشريعة وعي لنفسه ولغيره عن العلاقات السلوكية التي وجب عليه اتباعها، والتي يحافظ من خلالها على ذاته. وهو يتضمن القواعد التي تُسير حياة الناس اليومية وترسم علاقاتهم وطقوس حياتهم ونكاحهم، وممارستهم لعملهم ومواريتهم، ومقدار العشور والزكاة ومواقيتهم، وطقوس العبادة والطهارة ومواقيت الأعياد والأضاحي التي ينبغي القيام بها، فيما يسمى الشريعة.

مهمة الدين أن يؤسس العلاقة الإيمانية بين البشر. والآلهة، من خلال نظام من الطقوس قائمة على العبادات والصيام والطهارة، والنذور والذبائح والأضاحي. والناس كي يضبطوا مجتمعاتهم يؤمنون بالقيم الأخلاقية المتمثلة في الشريعة، وهي تمثيل لفضيلة الخير والسلوك الصالح، لهذا يكون الحساب الأخرى تحقيقاً لمفهوم القصاص، أي أن عدالة السماء تحقق القصاص لما فشلت عدالة الأرض في تحقيقه.

الأخلاق

يضمن الإيمان بالدين لدى البشر. اعتقادًا جوهرياً بأن الدين ينظر إلى العالم بوصفه نظامًا أخلاقياً، فالطابع الأخلاقي للكون جزء من ثقافة دينية تتمثل الشريعة في أسمى صورها. وهي مبدأ له حضوراً قوياً وعميقاً، في تاريخ الفكر البشري الروحي والعقلي والقيمي.

ويرى الفيلسوف كانت (أن اللاهوت الأخلاقي يقوم على علة الحرية) حيث نتصور الله بوصفه المشرع الذي أبدعه باختياره وإرادته الحرة، دون وضع غاية أمام نفسه، ونفكر في الله بوصفه الخير الأقصى. الأخلاقي⁽¹³⁴⁾، ويقول هيوم "إن الدين يطرح نظرية مستقبلية قائمة على وضعية جزائية، فهو يقدم دون غيره من المذاهب والفلسفات دعامة قوية لقيام الأخلاق على أساس المفهوم الإلزامي الديني الذي يغذيه الخوف من الجزاء المستقبلي". ويضيف: "إذا كان للجزاء القانوني الدنيوي أثر كبير في سلوك الناس في نطاق الحياة اليومية، فإن الأثر تتضاعف فاعليته إذا ما كان الجزاء أبدياً، ومن ثم توقع الجزاء الأخرى يصبح عاملاً مهماً لانضباط المجتمع أخلاقياً، وفي هذا تكمن ميزة من مميزات الدين⁽¹³⁵⁾".

* * * *

(134) كانت IMMANUEL KANT الدين والسلام ترجمة د. فريال حسن خليفة - الناشر مصر العربية للنشر والتوزيع 2001 - صفحة 12.

(135) DAVID HUME دافيد هيوم، Dialogues Concerning Natural Religion - محاورات في الدين الطبيعي - ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى - دار الحدائق للطباعة والنشر 1956.

الفصل الخامس عشر

العقل المدني

في المقابل كانت الشريعتان اليونانية والرومانية قوامين مدنية، أسستها نظم ديمقراطية، ولسنا في موقف المفاضلة، فإذا كانت العقائد الدينية طبقاً لهيوم تستمد كينونتها من حاجة البشر لأن تكون لديهم نظرة إلى العالم، تفسر قواه غير المنظورة، ولنظام أخلاق يستند على الإيمان بالله كلى القدرة، أو الخوف من الحساب في العالم الأخرى، وغائية تجيب أسئلة الوجود، وشريعة تنظم حياتهم اليومية، فإن الشريعة المدنية تأسست على عدة مبادئ هامة وفاعلة:

مبدأ العقل الإنساني: ويعد ما أنجزته الفلسفة اليونانية من إطلاق قوى العقل الإنساني أحد المسلمات الحضارية في مواجهة الخرافة، ما كان له الدور الأكبر في تطور المجتمعات.

المجتمع هو مجموع لأفراد أحرار: يتمثل هذا في المواطن الحر الذي وعى بذاته كوجود منفصل عن

الكون، وما تأسس على ذلك من نظام سياسي ديمقراطي يقوم على مشاركة الأفراد في صنع كل ما يدور من قرارات هامة تخص شؤون الحرب والسلم وحياته اليومية.

الطبيعة

والتي أصبحت تعد المرجع الفكري للجماعة البشرية التي نما الإنسان بين رحابها وترعرع. وليست قوى ميتافيزيقية مفارقة، حيث تجري المطابقة بين فعل الطبيعة والفعل أو السلوك البشري.

التمييز السلالي الروماني

ومن المهم أن ننتبه إلى أن الرومان في رؤيتهم للدولة المدنية القائمة على مفهوم العقل، حصرها هذه الحقوق داخل إطارها السلالي لعشائر الطروادين واللاتين، وقد انتهجوا مبدأ كان سائدا لدى أثينا من قبل وهو "النفعية التي لا تهتم بأى مفهوم أخلاقي" أن ما يفيدني كروماني يحب أن يكون بالقطع وبالكارثا على الآخرين. ومن صورة مناوئة لابد أن ترى الشعوب المغلوبة أن ما يفيد الرومان هو وفي كل الأحوال يكون مصيبة علينا نحن البؤساء. وهو ما يجعلنا نتساءل إذا ما كان الجانب الأخلاقي حكرا على ما يسمى بالمفاهيم المادية الإنسانية أو الميتافيزيقية، بل ما يجعلنا نفهم خاصة ونحن نعيد قراءة المسيحية في القرون الأولى، وقبل أن تتبنى الإمبراطورية الرومانية العقيدة المسيحية كدين رسمي للإمبراطورية، الطابع الثوري والأخلاقي إزاء بشاعة الدولة الرومانية في ثوبها المدني والديني والتي حكمت شعوب المتوسط أكثر من أحد عشر قرنا.

الفصل السادس عشر

مصر تستر عريها وعارها

كان قد مضى. أكثر من أربعة قرون منذ سيطر البطالمة على مصر، وصناعة دين هجين بين الديانة المصرية القديمة والهلينية، لا بد أن منظومة القيم المصرية المتمثلة في "الماعت" قد أحيطت بشكوك عميقة. وأن علامات استفهام أخذت تتداعى حول الرؤية المصرية للنظام الكوني المغلق عليهم، وأنساق القيم المترتبة عليها، ومع وضع روما قدمها الثقيلة على رقاب المصريين لا بد أن الارتياح راودهم بشدة حول حقيقة وجود "الماعت"، بعد أن أصبحت رمزاً حمله مقصور على الموظف الروماني الجالس على رأس هيئة "الماعت" الأيدولوجوس المنوط به مسئولية المصادرات، وتحصيل المستحقات والمطلوبات، وجباية الضرائب لبيت المال، والتيقن من تنفيذ قواعد الفصل العنصري بشكل صارم وعقاب من يخالفه.

الشيء الوحيد الذي لم ينص عليه الدستور الذي وضعه الرومان لمصر، النص صراحة على ملكية روما لرقاب الفلاحين المصريين، وربما لو فعل لبات الوعي

بحالة الاستلاب الجمعى الذى أصبحت عليه الجماعة المصرية نتيجة الغزو الرومانى يقع فى نطاق الوعى المباشر للجماعة، بدلا من دفنها فى طبقات اللاشعور.

حق وحيد هو العبودية

ومن المؤكد أن القانون المتمثل فى ذاك الدستور، كان أكثر واقعية وأشد تأثيرا على حياة الفلاحين المصريين من معتقداتهم القديمة. بعد أن بات يرسخ مجموعة من الحقائق لعالم جديد من الصعب تجاهله، بعد أن أصبح العالم الكونى المادى والأخلاقى الذى كانوا يظنون أنفسهم هم وآلهتهم جزءا لا يتجزأ من أنساقه الأبدية. لا متناسقا، ولا متوازنا، ولا منسجما، ولا مستقيما، ولا يمثل الحق أو الحقيقة، وأن ريشة "الماعت" التى كانت تمثل رمانة ميزان الفضائل أصبحت معلقة على رقبة الجاني، والمحتسب ورجل الجندرية، أما الميزان نفسه فقد انحرف انحرافا كاملا لصالح الغزاة الفاتحين، وقد ترسخ لدى المصريين بفعل الوقائع المعاشة؛ أن الكفة التى تخصهم تنوء بظلم وعبودية أمة، وقد جنحت بشكل قاس لم يعد بإمكان أى قوة على الأرض أن تعيد استعدادها. وأن لهم حقا وحيدا هو العبودية.

ظهور رسالة السيد المسيح

بعد قرون على ظهور الشكوك فى الماعت، وفى ظل نظام تميزى استأثر فيه الرومانى بالمكانة الإنسانية، تاركا للمصريين حقا وحيدا هو العبودية، أصبحت معه حياتهم ظلم لا مثيل له، لهذا ما أن ظهرت مسيحية السيد المسيح حتى شكلت لهم طوق نجاة من حالة العدم التى أوقعهم فيها قصر الحكم

الروماني، واستعادة لإنسانيتهم، كبشر. لهم الحق في حياة دنيوية وآخروية شريفة تستند على وقائع بسيطة بشر. بها تلاميذ السيد المسيح، أولها المحبة، وثانيها المساواة بين جميع البشر. أمام رب عادل رحيم يشعر بالآلام أبناءه، بل ونزل بنفسه من عليائه ليريهم كيف أن ربهم يسير بقدميه على الشوك ويجلل رأسه به، صاعداً إلى الصليب. وكأنه لا يكتفي بالكلمة، ولكنه يعبر عن ذاته بالفعل والتمثيل، (أنا ربكم منكم، أسير بينكم وأتحمل آلامكم، فتعالوا إلى رحمتي، التي تسع جميع الفقراء والمحرومين، والمهانين والمذلين).

وبينما استندت الأخلاق الرومانية على فضائل الرجولة مثل الشجاعة، وقوة الإرادة والإدارة، والتواضع، واحترام المال العام، والتصرف بمعنى الرجل الكامل، في دولة لا تتوقف عن إنتاج العبيد من الشعوب المقهورة والمضطهدة، قدم السيد المسيح منظومة أخلاقية قائمة على شريعة المحبة، والرحمة، والتسامح، وخطاباً عقائدياً موجهاً تحديداً لهؤلاء المقهورين والمعذبين.

رسالة السيد المسيح عقيدة ثورية

لهذا كان من المنطقي للفلاحين المصريين وقد أصبحوا بلا شريعة أن يتخلصوا من عارهم، ويستروا عريهم بالتغطي بثوب شريعة السيد المسيح، التي أصبحت في تلك الآونة شريعة ثورية، وعندما نظر إلى الأمر من وجهة نظر الفلاحين المصريين المقهورين سوف نجد أنه كان للسيد المسيح خطاب ثوري يصعب للشعوب التي هشمها الرومان وألحقوا بها ضرراً جسيماً أن تتجاهله. ويمكن أن تكون للمقولات المادية التاريخية عن نشوء الوعي الفوقي، وحركته

كانعكاس للواقع المادى، قيمة كبيرة هنا، شرط فهم الزاوية التى تنظر منها الأمور.

كانت روما قد انتزعت من الفلاحين المصريين إمكانات التطور الاجتماعى، الذى يلحقهم بقطار التطور التاريخى الكلاسيكى، وتركتهم عراة بين منعطفات التاريخ، ولهذا وجد المصريون فى عقيدة السيد المسيح والآباء والرسل الأوائل، عقيدة ثورية وسلاحًا ماضيًا يصعب مواجهته. وفى (الموعظة على الجبل- الإصحاح الخامس) من إنجيل متى، والتى جاء ذكرها وأشير إليها فى فصول سابقة، يقول السيد المسيح:

- 3 - طوبى ⁽¹³⁶⁾ للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات.
- 4 - طوبى للحرزاني، لأنهم يعززون.
- 5 - طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض.
- 6 - طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون.
- 7 - طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون.
- 8 - طوبى للأتقياء القلب، لأنهم يعانقون الله.
- 9 - طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون.
- 10 - طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات.

11 - طوبى لكم إذا غيرتكم وطرّدوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة، من أجلّي، كاذبين.

12 - افرحوا وهلّلوا، لأنّ أجركم عظيم في السماوات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

13 - أنتم ملح الأرض، ولكن إن فسّد الملح فبماذا يملح؟ لا يصلح بعد لشيء، إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس.

14 - أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل،

15 - ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت.

16 - فليضيء نوركم هكذا قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة، ويمجدوا أباكم الذي في السماوات.

من منطلق إنساني صريح لمعنى الخطاب، وخارج الخطاب الكهنوتي للكنيسة الجامعة، نجد أن السيد المسيح يوجه خطاباً محدد المعالم إلى الجموع التي تحلقت حوله، وإلى المعنيين بخطابه العقائدي والمتوجه إليهم بالتبشير بجلاء ووضوح؛ وهم المساكين بالروح، والحزاني، والودعاء، والجياع، والعطاش، والرحماء، والأنقياء، وصانعو السلام، والمطرودين من أجل البر.

كما أن خطابه مضمن بالوعد الذي يعدهم به، بما سوف ينالونه في مملكته الواقعة في السماء، فالمساكين بالروح لهم ملكوت السماء، والعزاء للحزاني، والودعاء يرثون الأرض، والجياع والعطاش سيثبعون.

هؤلاء جميعا سيتلقون خطابه بحماسة وإيمان، وخاصة تلاميذه الذين سيفهمون رسالته مثل كوادر سياسية في حزب ثوري، والذين سيأخذون على عاتقهم بوعي وإيمان التبشير والدعوة لخطابه إلى أجزاء المعمورة أو المسكونة بعد موته، وقيامته وصعوده جوار أبيه الذي في السماء، وسوف ينال أغلبهم العذاب والموت من جراء الدفاع عن عقيدتهم والتبشير بها مثل كافة المناضلين الثوريين على طول التاريخ، تباينت مرجعياتهم مادية كانت أو مثالية، تباينت أعراقهم، إنه طريق طويل من أجل تقدم الإنسانية نحو حرية الإنسان وعدالة الحياة.

ويؤكد بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، أن كل من بشر. لهم السيد المسيح هم الشظايا التي انتجتها روما من خلال صلفها وعنفها وافتخارها ويقول في الإصحاح الأول:

"اخْتَارَ اللَّهُ جِهَالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ. وَاخْتَارَ اللَّهُ ضَعْفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْأَقْبِيَاءَ. (28) وَاخْتَارَ اللَّهُ أُذُنِيَاءَ الْعَالَمِ وَالْمُرْدَرِيَّ وَغَيْرَ الْمَوْجُودِ لِيُبْطِلَ الْمَوْجُودَ. (29) لِكَيْ لَا يَفْتَخِرَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَمَامَهُ. (30) وَمِنْهُ أَنْتُمْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ، الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللَّهِ وَبِرًّا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً."

يحدد خطاب بولس الرسول صراحة أن الله اختار غير الموجود ليبطل الموجود ولكيلا يفتخر كل جسد أمامه، ولم يكن موجودا على سقف العالم، ويتحكم في الأرض سوى إمبراطور روما، والمواطن الروماني المتجسد شخصا باسم القانون. ويضيف قائل: الآن لم يعد الفخر مقصوراً على قيصر. بل هو يعلنها: (31) مَنْ افْتَخَرَ فَلْيَفْتَخِرْ بِالرَّبِّ."

عقيدة المقاومة لدى المسيحيين الأوائل

اختار السيد المسيح المنظومة الأخلاقية ميداناً للصراع بينه وبين روما، وطوال عصور الاضطهاد التي شنت ضد المؤمنين الأوائل من شعوب المتوسط، تبين لروما أنها تفتقد المشروعية الأخلاقية أمام الصلابة الإيمانية، التي جعلت الفلاح المصري يجد في الشريعة الجديدة ملاذاً يعيد له كرامته، وشعوراً صلباً بأن لديه ما يموت من أجله. وقد استكمل المسيحيون الأوائل في معاركهم الفلسفية والميتافيزيقية مملكة تتسم بالسمو والرفعة الإنسانية، تركز على عقيدة المحبة، وتهاجم جوهر البناء التمييزي والطبقي الروماني المبني على التمييز العرقي، هذه المفاهيم الثورية التي كانت دعوة مفتوحة لكل إنسان (أيما كانت جنسيته) إلى الانخراط بروحه وجسده للمساهمة في خلاص البشرية. وهذا أمر ربما يحصره اللاهوتيون في العلاقة بين الديانتين اليهودية والمسيحية. لكن ما الذي كان يمكن لداعية أو نبي إبان ذروة الزهو الطاووسي الروماني أن يطلق دعوته في إطار جماعة تمييزية، وأين هي تلك الجماعة أو الشعوب التي يمكن لها أن تضاهي روما في القوة الحربية والاقتصادية، أو المجد أو الثروة أو شرف المعتد والنسب والانتصار..

أن إحدى ملامح عبقرية السيد المسيح هو أنه صارع روما في مقتلها، عندما بشر بدعوة أممية لعالم إنساني جامع، بلا تمييز. لهذا أطلق دعوته وخرج تلاميذه إلى الإنسانية جمعاء يبشرون بعصر المساواة بين البشر.

روما تنفخ الروح في أمتها

وهذا يجعلنا نتساءل من أى شيء كان الخلاص؟ من خطيئة العبرانيين الأولى؟ أم من الجحيم الذي أوقعته روما على شعوب المتوسط. وهو ما وضع اباطرة الرومان وفلاسفتها ومفكريها في مأزق حاد، صحيح أنهم حاولوا أن يعيدوا إنتاج منظومتهم الدينية بالقدر الذي يمكنهم من مواجهة العقيدة الجديدة، وذلك بنفخ الروح في الوثنية. كما حاول الإمبراطور كاراكلا وديقلديانوس، وجوليانوس فيما بعد، لكن دون جدوى، فقد كان الوقت قد فات.

نقض الشريعة الموسوية أم قانون المقاومة الجديد

يعلن السيد المسيح في الآيات التي تلى الآية السابعة عشر، وحتى نهاية الإصحاح الخامس من الموعظة على الجبل ما يشار إليه "نقض الشريعة الموسوية"، لكن الأمر لم يكن ليقصر. على ذلك، فهو وإن بدا في مظهره نقضاً للشريعة الموسوية التوراتية، إلا أنه في حقيقته كان قانون المقاومة الجديد، الذي وضعه السيد المسيح للقصاص من روما التي أذلت العالم، وطريق لقهر قيصرها وجيوشها الظافرة، وهو القانون الذي سيمكن تلاميذه من دخول روما دخول الظافرين وهزيمتها، والقضاء عليها قضاء مبرماً، والتخلي عنها، وعن إرثها الملوث بدماء وأرواح البشر. يقول السيد المسيح للجموع على قمة جبل قرن حطين:

- 38 - سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بَعَيْنٌ وَسِنٌَّ بَسِنٌَّ.
- 39 - وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تَقَاوَمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضًا.
- 40 - وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا.
- 41 - وَمَنْ سَخَّرَكَ مِبْلًا وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ.
- 42 - مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلَا تَرُدَّهُ.
- 43 - سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تَحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ.
- 44 - وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لِأَعْنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ،
- 45 - لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الْأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الْإِبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ.
- 46 - لِأَنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمْ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ، فَمَايُ أَجْرُ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ الْعَشَارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟
- 47 - وَإِنْ سَلَّمْتُمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَقَطْ، فَمَايُ فَضْلُ تَصْنَعُونَ؟ أَلَيْسَ الْعَشَارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ هَكَذَا؟
- 48 - فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ آبَاءَكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ.

دعوة عالمية

يفتح العالم الذي يبشر. به السيد المسيح ذراعه للأبرار، والأخيار، وللأشرار أيضاً، ولو أن خطاب السيد المسيح يقتصر. على نقض الشريعة الموسوية لاكتفى بأن يقصر. دعوته بين أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، واكتفى بعشائر اليهود جمهوراً سياسياً ودينياً له، لكنه

وهو يدعو تلاميذه لنشر رسالته إلى الأمم، لم يكن يتحدث عن الصين أو الهند، إذ كان لا يعلم بوجودهما أصلاً، ولا بلاد تقع وراء البحار، كان عالمه وعالم تلاميذه محصوراً في شعوب المتوسط المعنية برسالته والتي كانت تزرع تحت الحكم الروماني وألحقت بها روما دماراً مادياً ومعنوياً وإنسانياً جسيماً.

لم يكن بإمكان عيسى-ابن مريم أن يضع ثورة المساواة الثانية على المحك الدنيوي الواقعي، وأن يجعل من ثورته ضد روما هدفاً لاستعادة الأراضي والملكيّات والأوطان التي اغتصبتها روما من أصحابها، بالدعوة إلى ثورات وطنية سبق لها وباءت بالفشل، للاستقلال عن الإمبراطورية التي حكمت العالم بالحديد والنار قروناً طويلة.. لهذا صعد السيد المسيح بالصراع ضد الإمبراطورية من الصراع حول العالم المادي والاقتصادي إلى الصراع حول إنسانية الإنسان، وكيونته، وكرامته، وانتقل بمسرح عملياته الثورية والحربية من ميدان الجغرافيا العسكرية التي يمكن للجيوش الرومانية أن تحقق فيها نصراً ساحقاً، إلى مسرح عمليات آخر غير مادي ولا يمكن الإمساك به، أو السيطرة عليه، وهو الروح والمشاعر والمعتقدات، فكما قال القديس متى:

"أن مدينة الله في القلب".

وبينما كان سقوط مصر تحت حكم أغسطس أكتافوس الجائزة الأخيرة للجمهورية، وكأن على روما أن تلبس ثوب الفخار إلى الأبد جاء ميلاد السيد

المسيح كى تكون علامة ذات دلالة على أن لكل بداية نهاية، ولكل مفتخر مذلة.

من المثير للتساؤل أن يتجاهل وكثيراً من المؤرخون، والمفكرون، ورجال الدين، أن روما وأباطرتها والتي لم يكن لأحد قبلاً بمقاومتها؛ كانت الخصم الحقيقي للسيد المسيح وتلامذته، وأن الجراح التي خلفتها هي المعنية برسالته.

الصراع بين القوة المادية والقوة الروحية

ومنذ البداية قرر السيد المسيح أن يزيح من على مسرح النزال، كل عمل يستند إلى القوة المادية، كل نزال له طابع عسكري مع الجيوش الرومانية التي لم تكن لتقهر في ذلك الحين، والتي لم تنهزم في معارك عسكرية سبقت ميلاده، وحتى سقوطها، كل عمل يستند على إراقة الدماء، أو الحقد أو الكراهية، بل اختار لمعركته أن تدور على مسرح إستراتيجى آخر، كان في الحقيقة يمثل كعب أخيلها، وهو مسرح الكرامة الإنسانية والقيم الأخلاقية العليا، التي تعلي من شأن جميع البشر، والتي تستند على أعظم القيم وهي المساواة بين جميع البشر، القائمة على الرحمة والمحبة، ومنظومة أخلاق لا تفرق بين إنسان وآخر، فالجميع أبناء لإله واحد، وهو لا يدعوه بالإله، قدر ما يدعوه بالأب الرؤوف الذي غادر عرشه في السماء، ونزل كى يتحمل الآلام التي خلفها عصر العبودية الروماني بالغ القسوة.

واجهت روما بصرامة النزعة الإنسانية لتحسين أحوال حياة العبيد، (فلم يكن في النظام الإمبراطورى أى ملمح ضعف أو وهن، فالإدارة المركزية كانت

تراقب بعين يقظة، الهيئات البرجوازية في المدن، ولم تكن لتتهاون في التخفيف من شكيمتها على الشرطة، والعقوبات القانونية؛ هذا السيف المسلط فوق الرؤوس بقيت على شدتها ولم تتخفف بشيء، وكان القانون الروماني يكبح بانتظام النزعة الإنسانية، ويؤطرها ولا يجعلها تخل بالنظام العبودي وقواعده غير الإنسانية التي تقلل من المصالح الرومانية⁽¹³⁷⁾.

إن القواعد التي يقوم عليها جدل التاريخ لم يكن لها قواعد ثابتة، وتطور البشرية ظل يتأرجح بين المثالية المفرطة والمادية الرثة، وفي كل الأحوال كانت العصور الذهبية للبشرية لحظات انتقال عليا لعظمة الإنسان، وعندما غالى النظام المدني الروماني الذي يستند إلى نزعة مادية في نزع ستار الشريعة عن الشعوب المقهورة، إلى حد من شأنه أن يصبحوا الوقود الذي سيشتعل الثورة في المتوسط لثلاثة قرون قادمة.

عدم استيعاب نيتشة لرسالة السيد المسيح

المقاومة السلمية هي السلاح الذي قاومت به المسيحية الناشئة روما، وليس الخنوع أو الجبن كما يظن نيتشه⁽¹³⁸⁾، في كتابه عدو المسيح، إذ ينبغى أن نفهم أن السيد المسيح عندما تبين أن الإمبراطورية الرومانية صنعت مجتمعا عالميا، اتضح له عقم

André AYMARD et Jeannine AUBOYER (137) أندرية إيمار -جانين أوبوييه HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS ROME ET SON EMPIRE تاريخ الحضارات العام - المجلد الثاني - روما وإمبراطوريتها - إشراف موريس كروزيه - ترجمة : فريد م. داغر - فؤاد ج. أبو ريحان - منشورات عويدات بيروت - باريس - الطبعة الثانية 1986 صفحة 393.

(138) نيتشه: فيلسوف ألماني هاجم الخنوع المسيحي وتحدث عن الإنسان السوبر. شكل الأساس العقائدي للنازية. (المؤلف).

التبشير بين عشائر بني إسرائيل، وأن عليه أن يقدم دعوته من خلال دين أمي في واقع عالمي، وأن يدعو إلى إله محب رحيم عطوف يشفق على أبنائه من كافة البشر، فقد كان من المتوقع أنه سيدخل صداما مروعا مع روما الإمبراطورية التي جلست على عرش العالم وحدها، روما إذن هي المقصد من دعوة السيد المسيح، روما إذن هي سدوم وعمورة، وهي أورشليم الخاطئة، وبابل المسكونة بالبلبل. في الإصحاح السادس من الموعظة على الجبل، يحدد السيد المسيح عنوان قوته التي سيستعين بها، وسيستعين بها معه المعذبون في الأرض على هزيمة روما، إذ يقول :

9 - فَصَلُّوا أَنْتُمْ هَكَذَا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَّقَدَّسَ اسْمُكَ.

10 - لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لَتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ.

11 - خُزِبَتْنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ.

12 - وَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا.

13 - وَلَا تَدْخُلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشَّرِيرِ. لِأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ، وَالْقُوَّةَ، وَالْمَجْدَ، إِلَى الْأَبَدِ. آمِينَ.

جنود الثورة

19 - لَا تَكْبُرُوا لَكُمْ كُفُوزًا عَلَى الْأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ، وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ.

20 - بَلْ أَكْبُرُوا لَكُمْ كُفُوزًا فِي السَّمَاءِ، حَيْثُ لَا يُفْسِدُ سُّوسٌ وَلَا صَدَأٌ، وَحَيْثُ لَا يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلَا يَسْرِقُونَ؛

21 - لِأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَثْرَتُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا.

22 - سِرَاجُ الْجَسَدِ هُوَ الْعَيْنُ، فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ بَسِيطَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ بَيْرًا.

23 - وَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ شَرِيرَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ مُظْلَمًا، فَإِنْ كَانَ النَّورُ

الَّذِي فِيكَ ظَلَامًا فَالظُّلَامُ كَمَا يَكُونُ!

24 - لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الْآخَرَ، أَوْ يَلْزِمَ الْوَاحِدَ وَيُحْقِرَ الْآخَرَ. لَا يَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدُمُوا اللَّهَ وَالْمَالَ.

25 - لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لَا يَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ؛ وَلَا لِأَحْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتْ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللَّبَاسِ؟

26 - انظُرُوا إِلَى طَيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لَا تَزْرَعُ وَلَا تَحْصِدُ وَلَا تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبْوَكُمُ السَّمَاوِيُّ يَتَوَقَّهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟

27 - وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟

28 - وَلِمَإِذَا هُمُومٌ بِالْبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَايَ الْحَقْلِ كَيْفَ تُثْمَرُ! لَا تَعْبُ وَلَا تَقْزَلْ.

29 - وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلَا سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يُلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا.

30 - فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي الثُّورِ، يُلْبَسُهُ اللَّهُ هَكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جَدًّا يُلْبَسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الْإِيمَانَ؟

31 - فَلَا تَهْتُمُوا قَاتِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟

32 - فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الْأُمَّمُ. لِأَنَّ آبَاكُمْ السَّمَاوِيِّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هَذِهِ كُلَّهَا.

33 - لَكِنْ اطْلُبُوا أَوْلًا مَلَكُوتَ اللَّهِ وَبِرَّةً، وَهَذِهِ كُلَّهَا تَزَادُ لَكُمْ.

34 - فَلَا تَهْتُمُوا لِلْغَدِ، لِأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ.

بين السيد المسيح والقيصر

يريد السيد المسيح أتباعاً خالصين له، لا يهتمون بجمع كنوز الأرض المادية، فسوف يستعوضون عنها بكنوز في السماء، لا يفسدها السوس ولا الصدأ، وكما في المحكمة الأوزورية حيثما يكون الحساب على أعمال البشر. الصالحة والشريرة، يكون صفاء سريرة قلب

المؤمن جواز المرور إلى الفردوس، أما العين فهي سراج الجسد، فإن كانت نقية صار الجسد نورانياً أما إن كانت شريرة صار الجسد مظلماً. ولأن الإنسان المثالي نور خالص، فهو ليس بحاجة للاهتمام بما يأكل، أو يشرب، أو يلبس، وهو يعطي أمثلة يدلل بها على ذلك من الطبيعة كما سيفعل فلاسفة التنوير بعد ثمانية عشر قرناً، عندما تصبح الكنيسة هي الخصم المعادي لأحلام البشر. في عالم إنساني، فالطيور لا تزرع ولا تحصد، والزناجب في الحقول لا تلبس وتنمو دون حاجة لمغزل، ويقول إن الملك سليمان في كل مجده لم يلبس مثل ما تلبسه الطبيعة. والمعنى العميق في هذه الدعوة لا يتوقف عند حد طمأننة المؤمنين بألا يقلقوا، فالله متكفل بهم كما هو متكفل بكل مخلوقاته. ولكنه يمتد إلى القوة النابعة في النفس عندما تتمرس وراء حصون الاستغناء عن العالم المادي.

يَعْلَم السيد المسيح بما لا مرأى فيه أنه ليس لأحد أن يخدم سيدين "الله أو المال"، أو "الله أو القيصر". وبمعنى واضح لا يوجد سوى سيد واحد، ولأن الشعب من المساكين، والفقراء، والمعوزين، والمعذبين، فهو يعلم سلفاً بأن شعوب المتوسط لم يكن لديها الحرية على الاختيار بين عبادة روما وقيصرها؛ أو اتباع طريق السيد المسيح في الخلاص، فجماعات التجار من النخاسين التي تتبع جيوش الإمبراطورية للتجارة في الأسرى، وبيعهم رقيقاً، وهيئات الملتزمين الذين كانوا يعملون بجدية بالغة وفي ظل إدارة رفيعة المستوى على جباية الضرائب، والمكوس؛ لتأمين الغلال، والذهب، والفضة، والمعادن لروما، والقانون الروماني

الذي أخرج أبناء الشعوب المقهورة من عالم البشر. الإنساني إلى عالم الوحوش والحيوانات، لم يتيحوا لأبناء شعوب المتوسط المقهورة القدرة على الاختيار، ولم يكن أمامهم قسراً سوى البحث عن الخلاص على يد السيد المسيح.

بهذا المفهوم يقدم السيد المسيح للشعوب المقهورة سيداً آخر، وقيصراً آخر، وإلهاً آخر، وأباً يهتم بشؤونهم، ويتكفل برعايتهم؛ في نهاية الإصحاح يدعو السيد المسيح مستمعيه إلى عدم الاهتمام بالغد، لأن الغد يهتم به أبوكم الروحي الجالس على عرشه في السماء، ويكفي الأرض ما عليها من شرور. وكأنه يخاطبهم بأن عليهم أن يتفرغوا تماماً من أجل الكفاح القادم.

منظومة يصعب هزيمتها

السيد المسيح يؤسس منظومته من أتباع يصعب هزيمتهم، لأنهم قد تركوا لروما كل ما كانت تريد أن تغتصبه من مكون مادي "شيء منقول؛ (عقار - غلال - مادة أو حيوان أو عبيد) واحتفظوا لأنفسهم بما لا تملكه روما وهو "النور" أو بمعنى آخر "منظومة السمو الأخلاقي الإنساني، التي تميز البشر. عن البرابرة، والإنسان عن الوحوش. لقد قلب المسيح الأمر رأساً على عقب، وخلال صراع تلاميذه من الآباء الرسل وتلاميذهم العظام، ستلقن روما درسا تتعلم من خلاله من هو البربري الذي ينتمي لفصيلة الوحوش السامغة، ومن هم البشر من أبناء الإنسان.

العالم الجديد المبشر به

في الإصحاح السابع من الموعظة على الجبل ينتقل السيد المسيح إلى دعوته مرة ثالثة، حيث ينال الإنسان بمثل ما عمل، في عالم جديد بشر. عنه بملكوت من الوفرة في عالم من الندرة، ملكوت من الرحبة في عالم من الضيق، ملكوت يتسع للمنبوذين أن يسألوا، فيجدوا من يستجيب لسؤالهم، "اسألوا تعطوا، ومن يطلب يجد، ومن يقرع باب الرب يفتح الرب بابه له، فالله في السموات يهب الخيرات لبنيه، وهو يدعوهم لمجاهدة النفس، فالدخول إلى ملكوت السموات هو مشقة وتعب، ذلك أن الطرق التي تؤدي إلى الهلاك لا بد وأن تكون واسعة رحبة. فما أضيق الباب الذي يؤدي إلى الحياة، وقليل من يجده.

ولكنه أيضا وفي ضربة موجعة إلى اليقين الروماني بالعالم الذي شيدته روما على ضفاف المتوسط، يوجه السيد المسيح تحذيرا سيتحول إلى مصدر رعب حقيقي، وسيجعل روما تغير جلدها وتزحف على أقدامها أمام الكنيسة، فالعالم ليس هو العالم الذي نعيشه في الحياة الدنيا، ولكن، هناك عالم أخروي هو العالم الحقيقي الذي يجب على الإنسان البحث عنه، ففي الإصحاح السابع من الموعظة على الجبل، يقول محذرا بجلاء:

- 1- لَا تَدِينُوا لِكَيْ لَا تَدَانُوا،
 - 2- أَنْكُمْ بِالذِّنُونِ الَّتِي بِهَا تَدِينُونَ تَدَانُونَ، وَبِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ تُكَالُ لَكُمْ.
- وهذا خطاب أقرب إلى الخطاب الأوزيري ومحكمته الآخروية، هو خطاب غير عبراني، وخارج الشريعة

الموسوية، ولكنه أيضا رسالة تحذير إلى الأباطرة الرومان.

باب الرحمة والتوبة طريق للسلام العالمى

يفتح السيد المسيح للعالم جميعه باب التوبة والرحمة، وكأنه سيد يدعو إلى سلام العالم، فيقول في موعظة الجبل الإصحاح السابع من إنجيل متى:

7 - " إَسْأَلُوا تَعْطُوا. اَطْلُبُوا تَجِدُوا. اِفْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ".

8 - "لأنَّ كُلَّ مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ، وَمَنْ يَفْرَعُ يُفْتَحُ لَهُ".

11 - "فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تَعْطُوا أَوْلَادَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، يَهَبُ خَيْرَاتٍ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ!"

13 - "أَدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيِّقِ، لِأَنَّهُ وَاسِعُ الْبَابِ وَرَحْبُ الطَّرِيقِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْهَلَاكِ، وَكَثِيرُونَ هُمْ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ مِنْهُ!"

14 - "مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمْ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ!"

* * * *

عصور الاضطهاد الكبير

يطيب لمؤرخى الغرب الإشادة بالتاريخ المصرى القديم، وفي المقابل التقليل من شأن المصريين أنفسهم، وكان هناك جداراً خفياً يصعب إدراكه، أو

هوة غامضة تفصل بينهما، فكما أن المؤرخ الكبير وول ديورانت صاحب الموسوعة الكبرى "قصة الحضارة"، التي دون فيها تاريخ حضارات وشعوب العالم، لم ير حجم الخراب الذي خلفه القانون الروماني للشعوب التي قهرتها روما، وعلى الأخص الشعب المصري والقرطاجي، وتجاهل عن عمد البنية العنصرية للقانون الروماني، والذي كان من أخص خصائصه - ونحن نستخدم تعبيره؛ (الآلة أو الآلية المنتجة لعصر العبودية). ها هو إدوارد جيبتون في كتابه "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" يتحدث بصورة منافية لكل ما هو إنساني، أو علمي عن موقف المصريين من الدعوة المسيحية" إذ يقول:

"وجد هادريان عند زيارته لمصر، كنيسة تتألف من اليهود والإغريق. وظل تقدم المسيحية (في مصر-)، مقصورا على نطاق مدينة واحدة، كانت في حد ذاتها مستعمرة أجنبية، وظل أسلاف ديمتروس حتى نهاية القرن الثاني هم الأحرار الوحيدين في الكنيسة المصرية، ثم رَسَم ديمتريوس بيديه ثلاثة أساقفة، وزاد عددهم لعشرين في أيام خلفه هرقلاس، أما جمهور المواطنين وهم شعب يتميز بالصلابة الكثيبة، فقد استقبلوا الدين الجديد بفتور واشمئزاز، وكان من النادر حتى في أيام أوريجن أن تلتقي بمصري تغلب على تعصبه القديم للحيوانات المقدسة في بلده، والحق أنه حالما اعتلت المسيحية العرش، امتثلت حماسة هؤلاء المتبريرين

للرأى المقنع السائد، وزخرت مدن مصر. بالأساقفة
وعجت صحراء طيبة بالنسك"⁽¹³⁹⁾.

وليس ثمة موقف مجاف للوقائع التاريخية مثل
هذا، فضلاً عن إسقاط تاريخ للاضطهاد وتبرئة روما
من أعمال التنكيل التي أوقعتها لقرنين من الزمان على
المصريين، قاموا خلالها بالدفاع عن عقيدتهم، ها هو
بعد عشرات القرون لا يزال مؤرخ الحضارة البيزنطية
يحمل نفس رؤية روما للشعوب التي قهرتها، فيطلق
على المصريين عبارات من نوع "هؤلاء المتبريرين"
و"الشعب الكئيب" "المتعصب لحيواناته"، وعلى
العكس من ذلك يقول مؤرخ الكنيسة يوسابيوس
القيصري "والحال خرج صوت الإنجيلين، والرسل
الملمهين، إلى كل الأرض، وإلى أقصى المسكونة
كلماتهم." انطلق صيوتهم إلى الأرض كلها وكلامهم إلى أقاصي العالم.
جعل للشمس مسكناً فيها" مزمو (19:4) وسرعان ما تأسست
الكنائس في كل مدينة وقرية، وإملاّت بجماهير الشعب كبيدر ملئ
بالخطة... كانهم تحروا من سادة قساة، وأطلق سراحهم من
أقصى نوزاع العبودية"⁽¹⁴⁰⁾

الحقيقة المتجاهلة أن السيد المسيح لم يكن دون
كيشوت، يقاتل من على ظهر حصان برمح مكسور
طواحين هواء القرون الوسطى، بحثاً عن أخلاق نبيلة
لعصر. الفروسية الضائع، كان يشن معركته على وجه

139 (إدوارد جيبون EDWARD GIBBON'S :DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE
اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - الجزء الأول -
ترجمة محمد على أبو درة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية 1997 صفحة
248.

(140) يوسابيوس القيصري تاريخ الكنيسة ترجمة القمص مرقص داود مكتبة المحبة 1979
صفحة 69.

التحديد ضد روما، وكان هورأس رمح لمعركة قادها تحالف ضم القدس "أورشليم"، ذات التراث العبراني، والإسكندرية، التي جمعت بين التراثين الفرعوني واليوناني القديم، فيما يمكن اعتباره أحد أطوار الحرب الدائرة بين الشرق والغرب.

لقد بدأت عصور الاضطهاد مبكرة، ففي (29 برمودة من عام 68 م) وفي الوقت الذي لم تكن فيه روما مهتمة بالدين الجديد، لاقى المسيحيون صنوف الاضطهاد وبشكل مبكر من جماعات الوثنيين، حيث قامت جماعات من الوثنيين الذين يعبدون الإله سيرابيس، وهو إله لليونانيين والمصريين معاً بالمطالبة برأس القديس مرقس مؤسس الكنيسة القبطية المصرية، وتربصوا له، وربطوا حبالاً في عنقه، وطافوا به في شوارع مدينة الإسكندرية طول النهار، وسحلوه فوق الصخور، حتى تمزق لحمه وتهشمت عظامه حتى أتى الليل، ولما أصبح النهار عاد الوثنيون إلى تمثيلهم الفظيع به، وهم يزأرون و يصيحون قائلين جروا الثور إلى بوكاليا (وهو موقع أول كنيسة قبطية) حتى قتل في 30 برمودة من عام 68 م. وتلا يوم استشهاده أن طارد الوثنيون المسيحيين، وأمعنوا في قتلهم والتنكيل بهم، فملأت جثثهم الطرقات، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً⁽¹⁴¹⁾. تلك كانت البداية التي ستؤسس طبيعة الكنيسة القبطية، والدور الذي سيلعبه أبؤها طوال القرون التالية.

141 (القص منسى- يوحنا تاريخ الكنيسة القبطية مكتبة المحبة الطبعة الثانية- 1983 -
صفحة 16.

"وفي عصر الإمبراطور تراجان الذي تولى سنة 98 م في نهاية القرن الأول الميلادي "نما عدد المسيحيين بالإسكندرية، فامتد إليهم لهيب اضطهاد القيصر. تراجان، واشتد عليهم واستشهد في ذلك الاضطهاد البابا كرزونوس البطريك الرابع. ولما اشتعلت ثورات اليهود على المملكة الرومانية اضطهدت الحكومة المسيحيين؛ لظنها أنهم قسم منهم، فنال المؤمنون في الإسكندرية شداً عظيمة"⁽¹⁴²⁾.

"في عهد كل من البابا أومانيوس البطريك السابع؛ ومركيانوس البطريك الثامن الذي نصب سنة 144 م، اشتد الاضطهاد على المسيحيين، فنال الشهادة كثيرون من الأقباط"⁽¹⁴³⁾، أما في عهد ديمتريوس البطريك الثاني عشر، قام ليخوس والى مصر الروماني بالسطو على البطريكية ونهب أمتعتها وسلب أواني الكنيسة، وقبض على البطريك نفسه، ونفاه إلى أوسيم.

اضطهاد أدريانوس

أما الإمبراطور أدريانوس الذي تولى الحكم في 117 م فقد قام أثناء اضطهاده لليهود بإنزال العسف والاضطهاد على المسيحيين، باعتبارهم فئة من اليهود، وقتل خلقاً كثيراً حتى يخيل أنهم أفنأهم جميعاً، وفي مقاومتهم "أمر بتعميم عبادة الأوثان"⁽¹⁴⁴⁾.

ساويرس

142 (المصدر السابق صفحة 18.

143 (المصدر السابق صفحة 21.

144 (المصدر السابق صفحة 49.

"أما ساويرس الذي تولى عرش روما في عام 193 م فقد هاله انتشار المسيحية في طيبة، وانتشارها في ربوع مصر، فأمر والى مصر. الروماني (للبتوس) بمحو آثار ذلك الدين، ومن شدة هول الاضطهاد الذي استمر طوال حكمه وتركز على مصر. وأفريقيا، مات كثيرون حتى أن المسيحيين ظنوا بظهور المسيح الدجال، وذكر أكليمنس السكندى أن عدداً عظيماً من المسيحيين، كانوا يستشهدون كل يوم، مقاسين أنواع العذاب، و إن كثيرين كانوا يصلبون أو تقطع رؤوسهم أو يحرقون أمام أعيننا"⁽¹⁴⁵⁾.

وتذكر المؤرخة إيرس المصرى "أن المصريين قاسوا بعده واحداً وعشرين اضطهاداً بعد ذلك. وقد سقط في هذا الاضطهاد ليونيداس والد أوريجانوس، واقتحم والى الإسكندرية وجنوده كنيسة القديس مرقس وسلبوها، وقبض على الأبا ديمتريوس ونفى إلى أوسيم. وكان من نتيجة عنف وقسوة الاضطهاد أن أغلقت المدرسة اللاهوتية السكندرية وتشتت تلاميذها، وفر الأساتذة خارج البلاد".

ويقول مؤرخ الكنيسة يوسابيوس القيصرى: "ولما بدأ ساويرس يضطهد الكنائس قدم أبطال المسيحية شهادات مجيدة في كل مكان، كانت هذه هي الحال خاصة في الإسكندرية التي كان يؤتى لها- كما إلى أعظم مسرح - من كل أرجاء مصر. وثيب بأبطال الله حسب استحقاتهم فينالون الأكاليل من الله بصبرهم واحتمالهم التعذيب الشديد وكل أنواع الموت. وهناك

آخرون كثيرون في المدن والقرى مزقهم الوثنيون إربا، غير الذين تجولوا في البراري، والجبال، وهلكوا بسبب الجوع، والعطش، والبرد، والمرض، واللصوص، والوحوش، والذين هربوا إلى جبل العرب، أخذتهم العرب أسرى" (146)

"وهناك مذبحه الإمبراطور كاركلا سنة 211 م الذي يعود إليه إصدار قانون إعطاء حق المواطنة إلى جميع الشعوب الواقعة تحت النير الروماني دون مردود يذكر، فهو الذي قام على مضاعفة الجزية على مسيحي مصر، وهو الذي دعا شعب الإسكندرية إلى احتفال ثم أعمل فيهم القتل، والذبح، فقتلهم في جمع عام في الإسكندرية. واقتحم جنوده الكنائس ومنازل المسيحيين وأهلكوا من فيها" (147).

"وقبض اكويلا والى مصر. بأمر من الإمبراطور كاركلا على خمسة من تلاميذ" أوريغانوس وبعد أن عذبوا عذاباً شديداً حكم عليهم بالموت المريع؛ لأنهم أبوا أن ينكروا إيمانهم وهم بلوتارخوس، وسيرينوس اللذان أجازا وسط النار، وهيراكليس، وميرو وكلاهما قطع رأسه بعد أن عذبا طويلا. أما الخامس وهو ياروكلاس فقد هرب، كما حرقت هيريس التي قبلت معمودية النار، وباسيليس وبوتامينا التي أحرقت بالنار مع أمها مارسيلا" (148).

146) يوسابيوس القيصري تاريخ الكنيسة ترجمة القمص مرقص داود مكتبة المحبة 1979 صفحة (286 / 335).

147) ايريس حبيب المصرى قصة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - مكتبة كنيسة مارجرس باسورتنج- الإسكندرية الطبعة الثامنة 2003 صفحة 61.

148) يوسابيوس القيصري تاريخ الكنيسة ترجمة القمص مرقص داود مكتبة المحبة 1979 صفحة 292.

"يقول اوسابيوس المؤرخ: إن عوامل الاضطهاد كانت تزداد كل يوم، حتى أن أهالي الإسكندرية عن بكرة أبيهم لم يستطيعوا احتمالها ولا الصبر عليه"
(149).

في 235 م قام القيصر. مكسيمينوس حال توليه الملك باضطهاد المسيحيين وقد فعل الأمر نفسه غورديان فيلب العربي عام (244 م).

في عام 249 م بعد جلوس ديسيوس على العرش الإمبراطوري عامل المسيحيين بمنتهى القسوة والشدة، ووصف البابا ديونيسيوس الأول بطريك الإسكندرية هذا الاضطهاد أن الإمبراطور ديسيوس "أذل كثيرا من المسيحيين وأجرهم على الذبح للأوثان، وعبادة أوثانهم، وشياطينهم... هذه العبادة تتم بذبحنا، وتقديم أجسادنا قربانا لاصنامهم، وكان أول شر ارتكبه أن أمسكوا رجلا هرما يدعى (مترا)، وطلبوا منه أن يجدف فرفض الرجل حينئذ انقضوا عليه كالوحوش وأخذوا يضربونه بالعصى، ينخزون وجهه وعينيه بمناخس، فلما يئسوا منه أخرجوه خارج المدينة، ورموه بالحجارة حتى مات، ثم اتفقوا جميعهم وساروا مندفعين إلى منازل المسيحيين، فكانوا يدخلونها بقوة غير مراعين حرمة الجيرة، ولا شروط المروءة، ويخرجون السكان منها، ثم يتلفون كل ما وصلت اليهم أيديهم الأثيمة، فيأخذون الأشياء الثمينة القيمة، أما الأثاث والأمتعة البيتية فيطعمونها للنار على قارعة الطريق" كانوا

يسلبون ويحرقون، وكأنهم جيش ظفر بمدينة ففعل بها فعل الغالب المنتصر. وكان إذا سار الإنسان ليلاً أو نهاراً في الشوارع والأزقة لا يسمع سوى صراخ وضجيج. كانوا يهددون و يعذبون كل من يرفض أن يجحد إيمانه، و ينكر مسيحه، ولا يشاهد المرء غير أناس أتقياء يجرحهم الأشرار على وجوههم، ثم يطرحونهم في النار المتقدة فيحرقون كالهشيم ... والبعض يتمسكون بأذيال الفرار وغيرهم قبض عليهم، وطرحوا في السجن مكبلين بالقيود، والأغلال، ومنهم من أنكروا الديانة الصحيحة بعد أن سجن، وكثيرون بقوا متمسكين بالدين المسيحي معترفين به مع صعوبة العذابات التي ذاقوها مدة طويلة، وكثيرون قواهم الله وأرسل لهم معونة ومن لدنه فبقوا مرتبطين بوحدانية الإيمان الصحيح، ولم يميلوا عنه يمناً أو يسرة، وكان من أمرهم أن صاروا أركاناً متينة في بيت الرب وعليهم بنيت الكنيسة المصرية" (150).

عصر الشهداء

وقد بدأ "الاضطهاد السابع في عام 284 م في عصر الإمبراطور ديوقليانوس، ودام عشر سنوات متتالية، وهو الذي قاد ثورة على جميع المسيحيين في أرجاء الإمبراطورية روعت الجميع، وقد بدأ الأمر بقرار الإمبراطور بطرد كل من لا يقدم القرابين للآلهة الرومانية من البلاط والجيش الروماني"، ثم أصدر أمراً

150 (يوسابيوس القيصري تاريخ الكنيسة ترجمة القمص مرقص داود مكتبة المحبة 1979 صفحة 332-333).

يقضى. بدك الكنائس وإحراق الكتب المقدسة، وحرمان
المسيحيين من الوظائف العامة، وحظر عتق كل من
كان عبداً، وقد صبت من جراء ذلك كؤوس العذاب
على المسيحيين، الذين أبدوا من البسالة والجلد ما
صار مضرب الأمثال، وكان قد شب حريق في قصر.
الإمبراطور دفعه إلى إصدار ثلاثة مراسيم، تضمن
سجن الأساقفة وإذاقتهم صنوف العذاب، والقضاء
على المسيحيين جميعاً، وقد وصف أوسابيوس طبيعة
هذا الاضطهاد في مصر. على وجه التحديد قائلاً:
"استمر التعذيب والقتل يوماً بعد يوم، وشهراً بعد
شهر، وعاماً بعد عام، وكان يستشهد في اليوم الواحد
خمسون، وثمانون، ومائة، حتى لقد كان القتلة
يسأمون أو يسقطون إعياء... كان الهمجيون منهم
يرمون النساء والأطفال في السجون بعد جرهم على
الأرض في الشوارع إلى أن تتجرح أجسامهم وتسيل منها
الدماء... على الرغم من القسوة والوحشية، على الرغم
من أن الوثنيين أنفسهم كان يعرفهم الهلع والاشمئزاز
من بطش حكاهم فعمل بضعمهم على إخفاء
المسيحيين. على الرغم من ذلك اندفع الشعب
المصري الأرثوذكسي. بشجاعة عجيبة وجرأة نادرة، إلى
حيث تنتظره الأهوال في رضى وحبور، وكان المحكوم
عليهم يسرون وسط أناشيد التسبيح والتهليل كما لو
كانوا ذاهبين إلى عرس.. وبعد وصفه آلات التعذيب
وبطولة الشهداء أمامها قال: (إن ما أبداه القبط من
بطولة داخل أوطانهم لم يكن بأقل مما أبدوه خارجها،
ففي قيسارية ذهب خمسة من القبط كي يبثوا روح

الشجاعة في نفوس المواطنين المحكوم عليهم بالعمل أو بالشغل في المناجم" (151) .

"وقد قام الإمبراطور ديوقلديانوس بإحراق الإسكندرية وفتك بأهلها فتكا ذريعا أثناء القضاء على محاولة والى مصر. ويدعى أخيلوس الاستقلال بها. وكان قد ظن أن المسيحيين هم الذين أثاروا هذه الفتنة، وناصروا أخيلوس، فاستعمل معهم القسوة المفرطة وقد تجاوز الظلم والعسف الحدود، وارتكب ما لا يخطر على بال أحد من المآثم والمظالم، وقد اقتفى أثر أخيلوس العاصى الذي هرب إلى داخل البلاد فكان القيصر. أيما حل يوقع بهم، ويقتلهم، ويهدم كنائسهم، ويخرب معابدهم، ويعذب رؤساءهم ويسبي نساءهم وأولادهم، وسبي كثيرين من مدينة الإسكندرية، وأباح لجنوده باقى أهلها ليفعلوا بهم ما يشاؤون، فعاثوا فى الأرض، وأهلكوا الحرث والنسل، وقتلوا، وفتكوا ونهبوا، وسبوا، وأراقوا الدماء، واشتدوا شدة لم يسبق لها مثيل". وروى بعض الآباء أن ديوقلديانوس ركب ظهر فرسه، وأمر جنده أن لا يتركوا القتل حتى تسيل الدماء على الأرض، وتعلو حتى تصل إلى ركبة فرسه، فكان من الألفاظ الإلهية أن سقطت به الفرس على الأرض فتلوثت ركبها بالدم فتم قوله وأبطلوا القتل" (152).

وروى يوسابيوس المؤرخ "إنه يعسر. وصف مقدار ما تجرعه الشهداء فى صعيد مصر. من أعذبة قاسية،

151 (المصدر السابق صفحة 407.
152 (القس منسى- يوحنا تاريخ الكنيسة القبطية مكتبة المحبة الطبعة الثانية - 1983 -
صفحة 177.

وآلام تشيب من ذكرها النواصي فقد كانوا يأتون بهؤلاء الشهداء ويخدشون أجسامهم، ويزعون عنها الجلد إلى أن ينكشف اللحم وهكذا يفعلون بباقي أجزاء الجسم إلى أن يموتوا، أما النساء فكانت تربط إحدهن في إحدى رجليها وترفع في الهواء بواسطة آلة مخصصة لذلك بعد أن يخلعوا عنها ملابسها و يكشفوا كل جسمها وتظهر أمام جمهور المتفرجين بمظهر تنفر منه الإنسانية وتأباه النفوس الأبوية، وكثيرون كانوا يقربون غصنين قويين من شجرتين متقاربتين بآلة وضعت لهذا الغرض، ثم يجيئون بالشهيد و يربطونه بهذين الغصنين، ومن ثم يتركانهما ليعودا إلى أصلهما فهذا يعتدل لجهة اليمين مثلاً، والآخر للشمال، والشهيد تتمزق أضلعه، وتسحق عظامه سحقاً، ويتطاير جسمه في الفضاء... واستمرت هذه الفضائع سنيًا طويلاً، وكثيراً ما كان يصدر حكم بقتل عشرة أشخاص في وقت واحد، وأحياناً عشرين رجلاً مرة واحدة، وأحياناً ثلاثين، وستين، ومرة حكم على مائة رجل بالموت مع زوجاتهم وأولادهم الصغار وذلك بعد أن ذاقوا العذاب ألواناً... وقد روى أوسابيوس أيضاً قائلاً: "وقد شاهدت بعيني بما كنت واقفاً بقرب النطع جمعاً غفيراً من المسيحيين جمعوا لينالوا الشهادة ولكن بطرق مختلفة. فكان بعضهم تجز رؤوسهم، وبعضهم يحرقون في أتون النار المتقدة" (153).

وكان قد قتل أثناء عمليات الاضطهاد أربعة من أساقفة الكنيسة القبطية، وعندما سمع الأنبا بطرس

(153) يوسابيوس القيصري تاريخ الكنيسة ترجمة القمص مرقص داود مكتبة المحبة 1979 صفحة 406-410.

الأمر سجد شكرا لله الذي أهل هؤلاء لهذا المجد". وقد توج الاضطهاد بإصدار الإمبراطور ديوقليانوس أمراً بالقبض على البابا بطرس البطريرك الثامن عشر. بابا الكنيسة القبطية رغم شيخوخته، وقام على إعدامه، وكان دمه آخر دم سفكه الإمبراطور ديوقليانوس، وقد لقب بخاتمة الشهداء، ذلك لأنه صلى قبل قطع رأسه بأن يكون دمه آخر دم يسفك من دماء المسيحيين.

وبلغ المصريين الذين استشهدوا ضحية الإمبراطور ديوقليانوس أعدادا هائلة، حتى أن مؤرخ الكنيسة ترتوليانوس¹⁵⁴ قال: "لو أن شهداء العالم كله وضعوا في كفة ميزان وشهداء مصر في الكفة الأخرى لرجحت كفة المصريين"¹⁵⁵، وقد جعل المصريون القبط هذا التاريخ مبدأ التقويم القبطي، والذي يعد الذكرى الوحيدة التي احتفظ بها القبط لذكرى شهدائهم، متخذين سنة 284 ميلادية التي اعتلى فيها الإمبراطور ديوقليانوس العرش السنة الأولى لسنة الشهداء.

ولم يختلف موقف المسيحيين المصريين خارج الحدود المصرية عن موقفهم داخل الوطن، ويصف الأب بول دورليان كيف رفضت الكتيبة العسكرية المصرية والتي تدعى بكتيبة طيبة المشاركة في اضطهاد المسيحيين في الأراضي الغالية (فرنسا)، بناء على أوامر من قبل الإمبراطور مكسيمانيوس، فقام بصفهم وجلد كل عاشر منهم، ثم قطع رأسه وعندما لم يجد منهم إلا الإصرار قام بإبادة الكتيبة جميعها. فيقول "وهكذا

154) أحد قساوسة قرطانجة.

155) أعمال شهداء مصر مخطوطة قبطية مترجمة إلى الفرنسية. عن تاريخ الكنيسة القبطية أيرس المصرى

استشهد البعض في أجون، والبعض في جوليا، وغيرهم في تريف، وفينتي ميليا وفي برجامو، فكانت مذبحه هائلة تناثرت فيها أشلاء المصريين فوق وادي أجون⁽¹⁵⁶⁾... "وارتوت أرضه بدمائهم، فنالوا أكليل المجد غير المضمحل"⁽¹⁵⁷⁾

بعد ديوقلديانوس، فقد أصدر غاليريوس صهر ديوكلتيانوس أمرا في خريف 308م يقضى بإعادة الاضطهاد للمسيحيين، ثم أشعل مكسيميانوس دازا هذه النار من جديد، وأفرغ كل ما في وسعه لإلحاق كل بلية بمسيحي مصر، فكان يفتك بأغنيائهم، ويسخر فقراءهم في مناجم المعادن، بدلا عن المجرمين الذين كانوا يشتغلون فيها ويحكم عليهم بالأشغال المؤبدة؛ حتى لا يعتقد أحدهم بأنهم سيعتقون من ذلك، وكان منهم كثيرون من الأساقفة والرؤساء الذين افتدوا أنفسهم على توالى الزمن بشروط معلومة، ولم يكف مكسيميانوس دازا عن توجيه شره للمسيحيين، ففاق جميع أعدائهم في القساوة البربرية، وأمطرهم وابلًا من العذاب راح فيه ألوف من الشهداء.

قال أحد المؤرخين "كانت القتل تحمل على عجل وترمي في البحر" وقد دام اضطهاد المسيحيين منذ أيام ديوقلديانوس عشر سنوات متتابعة استشهد فيها الألوف، وقيل إن الذين قطعت أعناقهم سنة 303م أثناء اضطهاد ديوقلديانوس فقط كان نحو مائة

156 (أجون :مدينة سويسرية تدعى الآن "سان موريس" وهو أسم قائد الكتيبة الطيبة المصرية.

157 (قديسوا مصر.. بول دورليان.. عن إيريس حبيب المصرى قصة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - مكتبة كنيسة مارجرس باسپورتنج- الإسكندرية الطبعة الثامنة 2003 صفحة 141.

وأربعين ألفاً، هذا خلاف سبعمائة ألف من النفوس هلكوا بالحبس والنفي، ويذكر بعض المؤرخين أن عدد الشهداء حينئذ بلغ ثمانمائة وأربعين ألف من الأنفس، وكان نتيجة اضطهادات الأباطرة الثلاثة ديوقليديانوس وغاليريوس ومكسيميانوس تناقص عدد الاقباط من عشرين مليوناً إلى عشرة ملايين.

مرسوم ميلان

في عام 311 م أصدر الإمبراطور قسطنطين طبقاً لما جاء في تاريخ الكنيسة ليوسيبوس القيصاري مرسوم التسامح المسمى بمرسوم ميلانو والذي قال فيه: "عندما أتينا ميلانو وتأمّلنا كل ما يجلب الصالح العام ورفاهية الجميع، اعتزمنا أن نصدر من الأوامر ما يعود بالخير على كل نفس، وفي سبيل ذلك بمنح المسيحيين وسائر الناس الحرية فيما ترضاه من الديانة نفوسهم، وأن لا يحرم أى إنسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين، أو فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه"¹⁵⁸.

واعتبر هذا المرسوم الإمبراطورى نهاية عصور الاضطهاد، ذلك أن الإمبراطور قسطنطين قد جعل المسيحية آمنة تحت جناحه، وظل يقرب رجالها منه، وقبل أن يموت تلقى تعميده وهو على فراش المرض.

* * * *

الفصل السابع عشر

الإسكندرية عاصمة المقاومة

مدن البحر المتوسط القديم

خلال الثلاثة القرون الميلادية الأولى تراجع وخف التأثير السياسى والثقافى لمدن كانت مراكز إشعاع الحضارات القديمة، فلم تعد لمنف وطيبة وهيليوبولس، أو لبابل وأكاد وسومر مجدها القديم، كما حلت الظلمة على أثينا وإسبرطة وقرطاجنة، بعد أن أصبحت مدنًا إقليمية تابعة لروما. ومع ميلاد السيد المسيح كانت روما سيدة العالم بلا منازع، تخلت عن الجمهورية وأعلنت من نفسها عاصمة لإمبراطورية عظمى. تحكم المتوسط بالسيف والنار، وبجوار روما كان يوجد عدد من المدن الرئيسية، تقل فى الأهمية عن عاصمة الإمبراطورية، كانت هناك أورشليم

عاصمة العبرانيين التي أقاموا فيها هيكلهم المقدس، وتقع شرق المتوسط، وهي المدينة المقدسة التي بشر منها السيد المسيح إلى شعوب العالم بالديانة الجديدة، وكان العبرانيون قد قاموا بالثورة اليهودية الكبرى، التي استمرت أربع سنوات بين عامي 66 إلى 70 م، وقمعها الرومان بالقوة فأحرقوا المدينة وأسروا كثيراً من اليهود، ودمر الهيكل للمرة الثانية، ثم عاود اليهود التمرد وإعلان العصيان مرتين في عامي 115 و132م، وفي المرة الأخيرة تمكنوا من السيطرة على المدينة، إلا أن الإمبراطور الروماني "هادريان" قام على تدمير المدينة للمرة الثانية، وأخرج اليهود المقيمين فيها، وأصدر مرسوماً يجعل المدينة ذات طابع روماني واشترط ألا يسكنها يهودي. صورة من صور الاجتثاث التي قام به الرومان على مر تاريخهم، وهي ثقافة ليست بعيدة عن تصورات العبرانيين.

ومع ظهور السيد المسيح وتبشيره إلى كل شعوب العالم، سرعان ما تراجعت قيمة أورشليم السياسية وسط الطوفان الهادر، أما قيمتها الدينية فقد انحصرت في كونها مدينة الله المقدسة، والمكان الذي ضم الهيكل المقدس الذي لم يعد له وجود، فقد ارتفع إلى السماء، ليصير رمزا عالميا لكل المؤمنين من شعوب الأرض.

كان هناك مدينة قرطاجنة موطن الفينيقيين المهاجرين من لبنان، والعاصمة التي نافست روما على خطوط التجارة والملاحة، وقد بلغت مجدها مع ظهور القائد العظيم "هانيبال" الذي قاد جيوشه بعبريته العسكرية، عابرا البحر المتوسط عبر أسبانيا

ومخترقا ممرات جبال الألب الشهيرة ليصبح في مفاجأة إستراتيجية على أعتاب روما، دون أن يستطيع دخولها والقضاء عليها، ولقد قرر الرومان سحق المدينة، وإزالتها من على ظهر الوجود، وعندما دخلت الجيوش الرومانية المدينة قتل عشرات الآلاف، وبيع خمسون ألفا رقيقاً، وهدمت المدينة، وأعلنت مكانا غير موجود، وعلى من تبقى من القرطاجيين أن يتخلوا عن التجارة والملاحة ويكتفوا بالزراعة على أن يسكنوا بعيدا عن البحر.

وكانت هناك أثينا التي ظلت على ما هي عليه مدينة إقليمية، خبا عنها في ظل الظروف السياسية والاجتماعية السائدة نور الفلسفة والعلوم.

وكانت هناك مدينة الإسكندرية التي أصبحت بفضل موقعها التجاري والثقافي المدينة الثانية للإمبراطورية الرومانية وقد تغير وتعاضم مع الوقت.

تاريخ الإسكندرية

دخل الإسكندر الأكبر مدينة منف في خريف 332 ق.م. بعد استسلام القوات الفارسية دون مقاومة، وقدم ولاءه للآلهة الوطنية واقام احتفالا لها بوصفه الابن للإله آمون، ثم اتخذ طريقه من منف من خلال الفرع الغربي للنيل، قاصدا "كانوب" حيث قرر تشييد مدينة بأسمه على شريط من الأراضي الرملية يقع بين بحيرة مريوط والبحر، واستدعى الإسكندر أعظم مهندسى العالم "بينوكراتيس" لتصميم المدينة، ثم غادر مصر. لاستكمال حروبه في بلاد فارس، والهند، وعندما مات في مدينة بابل قام قادة جيش الإسكندر الإمبراطورية بوراثا الإمبراطورية وتقسيمها فيما بينهم،

وكانت مصر. من نصيب بطلميوس سوتير، الذي قام بإحضار جثمان الإسكندر المقدوني من بابل ودفنه في ممفيس العاصمة الأولى للبطالمة، وعندما تم الانتهاء من بناء الإسكندرية، قام على نقل جثمان الإسكندر إلى الإسكندرية التي تحولت إلى عاصمة دولة البطالمة.

وأصبحت الإسكندرية أعظم المدن التي أسسها الإسكندر ازدهاراً، ومنذ ذلك الحين وحتى الفتح العربي كانت عاصمة مصر. الرئيسية، وأهم موانئها، وأكبر مدنها التجارية والصناعية، وضمت منذ البداية خليطاً من السكان في مقدمتهم جماعات الإغريق، الذين كانوا يتمتعون بكافة حقوق المواطنة، مكونين طبقة ممتازة تضم قوات الحرس، ورجال البلاط، وكبار الموظفين. وكان يليهم أعداد من المهجنين الذين تجرى في عروقهم دماء إغريقية، وشكل اليهود العنصر. الثاني من الأجانب في المدينة، وكانت المدينة قد قسمت إلى خمسة أحياء سميت (ألفا وبيتا وجاما ودلتا وإبسلون)⁽¹⁵⁹⁾. قطن اليهود منها الحى الرابع دلتا، ثم انتشروا إلى الحى الثاني بيتا، وشهدت الإسكندرية هنوداً وعرباً وسوريين وفرنساً، وفي القسم الغربي من المدينة كانت هناك قرية راكودا القديمة الحى الوطنى للمصريين.

وبلغ تعداد المدينة في عام 200 ق.م. حوالي نصف مليون نسمة طبقاً لول ديورانت، أغلبهم من الوطنيين المصريين بالإضافة إلى جالية كبيرة من اليهود، قدرها

(159) هـ. آيدرس بل H. Idris Bell: أستاذ شرف علم اليردى بجامعة أكسفورد - مصر. من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي - ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - 1973 - صفحة 69.

البعض بخمس السكان، وعلى رأس الهرم جلست طبقة حاكمة قليلة العدد من المقدونيين واليونانيين¹⁶⁰. في ذلك الوقت تحولت الإسكندرية إلى أعجوبة العالم القديم، وقد ضمت رفات الإسكندر الأكبر، ومعبد "السرابيوم" الذي يعد أعجوبة زمانه، وسرابيس هو إله عبده اليونانيون والمصريون وهو صورة مهجنة من أوزوريس، وكان هناك مضممار للسباق "العدو"، وحلبة سباق الخيل.

جامعة الإسكندرية:

تمثل جامعة (أون) القديمة أقدم جامعات ومعاهد العلوم في العالم، وقد تلقى فيها كل من طاليس وفيثاغورث وديمقريطس وأفلاطون العلم، وعندما أصبحت مصر تحت سيطرة البطالمة، كان كل من بطليموس الأول والثاني حريصين على نشر الثقافة اليونانية، فقاما على إنشاء أقدم وأعظم جامعة عالمية عرفها التاريخ، والتي كانت من أهم معالم المدينة، وكانت تدعى "الموسيون" Museum، والتي تعني في اليونانية "معبد ربات المعرفة" Musea أي آلهة الذاكرة، وكن كذلك راعيات العلوم الإنسانية.⁽¹⁶¹⁾

كان الهدف من إنشاء البطالمة جامعة الإسكندرية أن تكون مركزاً لدراسة الآداب والعلوم، وكان من أهم العلماء الذين أسسوا وأرسوا تلك التقاليد رجلاً هما ديمتريوس ألفاليري الذي كان سياسياً وتلميذاً للمدرسة

160 (ول ديورانت - WILL DURANT قصة الحضارة- اليونان- المجلد الثاني- الجزء الثالث- ترجمة محمد بدران- دار الجبل - بيروت 1988 صفحة 74.
161) Bell ه. آيدرس بل أستاذ شرف علم البردي بجامعة أكسفورد - مصر- من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي - ترجمة د. عبد اللطيف أحمد علي - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - 1973 - صفحة 72.

الأرسطية، وستراتون اللامبسكي والذي كان أيضا من تلاميذ أرسطو، وكان متخصصا في فروع المعرفة وخاصة علم الطبيعة، من خلال دراسة الطبيعيات على أسس تجريبية وضعية، وقد ضمت الجامعة حلقات للدرس، وقاعة تشريح معدة لتدريب طلاب الطب، ودراسة علم وظائف الأعضاء، وعدداً من الآلات الفلكية التي يمكن أن تشكل ما يسمى بالمرصد، بالإضافة إلى المكتبة الضخمة التي تحولت إلى منارة للفكر امتدت على ساحل المتوسط.

وشهدت العلوم والرياضة تقدما كبيرا، فقام أريستارخوس باكتشاف دوران الأرض حول الشمس، بينما تمكن أراتوستينيس من قياس قطر الكرة الأرضية على نحو مقبول، كما ألف إقليدس كتاب "الأصول" في علم الهندسة، واخترع هيرون "الآلة البخارية، وذاع صيت مدرسة الطب الإسكندرية في علوم التشريح والجراحة، وفي الإسكندرية ترجمت التوراة إلى اللغة اليونانية وهي الترجمة المعروفة (السبعينية)، كما بين (فيلون) مذهبه عن اللوجس الإلهي⁽¹⁶²⁾.

مكتبة الإسكندرية

"بجوار جامعة (الموسيون) قام بطلميوس الثالث بإنشاء المكتبة التي ذاع صيتها بوصفها أعظم مكتبة في العالم القديم، وروى بها أن تكون ذات طابع موسوعي، وأن تحوي شتى المعارف. وضمت المكتبة نصف مليون لفافة بردية، وكان بطلميوس الثالث قد أمر بأنه على كل مسافر لديه كتاب بحوزته، أن يقدمه

(162) المصدر السابق - صفحة 73.

إلى المكتبة، على أن يعطى نسخة رسمية، كما استعار من أثينا الأصول الرسمية لمؤلفات أسخليوس، وسوفوكليس، ويوريبيديس لنسخها، وجرى تحقيق مؤلفات هوميروس، وابتكرت العلامات الصوتية، وعلامات التعجب والاستفهام، وما إليها من فواصل الكلام" (163).

وانعكس هذا في القرون الأولى لنشأتها على ازدهار دراسات إنسانية ذات طابع علمي موضوعي، وانتشار الدراسات العلمية التجريبية، والإنسانية، والنفسية، والدينية. مما جعلها مركزا ذائع الصيت، دفع علماء كبارا للقدوم إليها والإقامة بها، ويتحدث المؤرخ "تارن" عن مكانة الإسكندرية بقوله:

"كانت الإسكندرية أعظم مدينة في العالم المعروف آنذاك... وإذا كانت أثينا احتفظت لنفسها بالفلسفة، فإن الإسكندرية علت عليها، وحجب بهاؤها بريق أثينا، وقد أصبحت قبلة العلوم والآداب التي يشد إليها الدارسون رحالهم"... كما يصف فاسليف مكانة الإسكندرية وأثرها في ثقافة العصر. بقوله "لقد علت إسكندرية مصر. فوق الجميع كمركز يفيض بوسع الأثر وأعماقه بهاء وعظمة... لقد أصبحت المدينة في نهاية الأمر واسطة عقد تجمع فيه نتاج العالم القديم، من علوم وفلسفات وديانات، وبوتقة انصهرت فيها كل تلك العلوم، والفلسفات،

(163) هـ. آيدرس بل أستاذ شرف علم البردى بجامعة أكسفورد - مصر. من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي - ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - 1973 - صفحة 73.

والديانات، فامتزجت ونتج عنها صورة فريدة ميزت
المدينة" (164).

* * * *

المآزق الفلسفي

كان تحول روما من عصر الجمهورية إلى عصر الإمبراطورية إيذانا بانتهاء حضارات الشرق الأدنى القديم، فالمصريون القدماء وجدوا أنفسهم داخل نفق مظلم، ومنازة الديمقراطية الأثينية التي أضاعت لليونانيين ومن بعدهم الرومان طريقهم إلى السعادة الأرضية التي يستطيع البشر أن يحققوها بأنفسهم، وبواسطة مؤسساتهم المدنية مثل مجالس الشيوخ، ونظم الإدارة والقانون المدني ضربا من جنة لم تعد على ما هي عليه في الماضي، ففي ظل الإمبراطورية تحول المواطن اليوناني الذي يقيم في مدن اليونان، أو في المستعمرات التي أقيمت على شاطئ المتوسط إلى مواطن من الدرجة الثانية، أما العبرانيون فقد غادروا أرض الميعاد، وأقاموا بكثافة في الإسكندرية، ومدن مصرية أخرى، وكأنه خروج ثانٍ ولكن هذه المرة عودة من أرض الميعاد التي وعد بها الرب الأسباط الاثني عشر. لبني إسرائيل، إلى أراضي الشتات، ومن المثير للشفقة أن بني إسرائيل قد عادوا ثانية إلى الأرض التي غادروها تحت قيادة النبي موسى منذ قرون بعيدة، بعد أن أنزل إلههم بالمصريين لعناته العشر، وحضهم على سرقة ذهبها وفضتها وقتل كل بكر بها. وتلقى

164 د. مصطفى النشار مدرسة الإسكندرية الفلسفية : بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية - دار المعارف - الطبعة الأولى- 1995 .

المصريون عودتهم دون أى مظاهر تنم عن الرفض أو العدا، أو الرغبة في الانتقام.

وإذا كانت متوالية التاريخ حطمت الرسوخ اليقيني لدى المصريين القدماء في نسقهم الكوني (الماعت) القائم على عدالة المشاركة في العمل، والإنتاج، والفائض، ثم وضعت بني إسرائيل أمام مأزق وجودي تخلى فيه الرب عن عشائره، التي قدم لها عهده بأرض للميعاد، مدججًا بالانتصار على سكانها الأصليين بعد إبادتهم، مقابل عبوديته، والعمل بوصاياه العشر، سواء بسبب عصيان بني إسرائيل أنفسهم، أو لأسباب أخرى بدت مقنعة بقدوم السيد المسيح، فإن اليونانيين قد فقدوا ومعهم غالبية الرومان بصعود الإمبراطورية الرومانية، مؤسساتهم الديمقراطية، بحيث إن مفهوم "الحرية" في المجتمع المدني الروماني واليوناني من قبله، قد انهار أمام قسوة الواقع الذي جعل العالم ينقسم إلى أقلية محدودة من الأحرار، وأغلبية ساحقة من العبيد.

وقد انعكس هذا لدى الثقافات الأربع؛ الرومانية، واليونانية، والمصرية، والعبرانية، إلى ضرب من عالم مغلق، يصعب فهمه، تتواري فيه الفاعلية الإنسانية لصالح طغيان الأباطرة الرومان، وبدا هذا بوضوح في روح الفلسفة السائدة آنذاك، فكما يتحدث أميل برهبيه عن السمات العامة لفلسفة القرنين الأول والثاني فيقول: "أفلت شمس المذاهب الوثوقية الكبرى اللاحقة على أرسطو، وبُعِثت المذاهب الأفلاطونية والأرسطوطاليسية، والشاهد على ذلك فيلون السكندري (40 ق.م - 40م). وغيره من شراح

أفلاطون وأرسطو... على أن الأمر لم يتجاوز الشروح، فقد انتهت مرحلة الخلق والإبداع، ولم يعد هناك مجال للفضول الفلسفي العميق... وبدا أن العقل الفلسفي ينعطف نحو الخفة، في مقابل تعاضم الاهتمام بالمسائل الأخلاقية، والدينية على نسق واحد في المدارس جميعها، فقد ناب الفيلسوف مناب المرشد، والواعظ، والمعزى، وموجه الضمائر، وآلت الفلسفة إلى مدرسة تبحث عن السلام والطمأنينة وتحض عليهما (165).

الرواقية

اهتمت الرواقية بالبحث في الورع الأخلاقي، وقدم سنيكا في مطلع القرن الأول الميلادي في مؤلفاته (الرسائل) وصفا للرزائل والأمراض السائدة في عصره، فيقول في إحدى رسائله: "إن المجتمع أصبح محتشدا بالوحوش الكاسرة، وهي فيما بينها وديعة لا ينهش بعضها بعضا، أما البشر. فلا شأن لهم غير أن يمزق بعضهم بعضا" وبعجز الفيلسوف الروماني الذي كان مريبا لنيرون، ثم وزيرا له، عن تبصر. الأسباب، أو تقديم الحلول، فأنهاى حياته منتحرا. "فالحكيم لا يسخطه مرأى الرزيلة التي عمت الناس قاطبة". وقد استقر لديه شعور بالهشاشة المطلقة للأشياء البشرية، فلا يتبين فيها أمرا أكيدا محققا غير الموت (166)، وهذا وضع ترسم فيه صورة العالم

165 (اميل برهيهه EMILE BREMIER TOME PREMIERE تاريخ الفلسفة HISTORY DE LA PHILOSOPHIE الجزء الثاني -الفلسفة الهلنستية والرومانية - ترجمة جورج طرابيشي -دار الطليعة بيروت لبنان 1982 -صفحة (197-200).
166 (المصدر السابق - صفحة212.

الروماني حيث يمثل ذروة الانهيار الأخلاقي والمادي،
والياس والبؤس والإحباط.

أبرز الفلاسفة الوثنيين كان أفلوطين، الذي هدف
إلى جعل بلوغ المعرفة أو السعادة ممكنتين، مقدما
نظريتين عن أصل الشر، الأولى متشائمة حول العدالة
الإلهية، لا تجعل هناك علاجاً للشر، سوى بالهرب من
العالم إلى وجود غير المحسوس، والثانية القبول بدواء
رواقى يقول بالتصديق الإرادي، أي القبول بالوضع
العالم، أي الزهد والاستسلام لإرادة الإله الفاطر.

اليهودية

عاش الفيلسوف اليهودي فيلون السكندري في
الإسكندرية في الفترة بين (40 ق.م-40 م)، وقام
بتفسير العهد القديم وفق الفلسفة الأفلاطونية
المحدثة، " فالله متعال مفارق للعالم لا يتصل به إلا
عبر وسطاء، والوسيط لا يتميز بطبيعة معينة، بقدر
ما يتميز بوظيفته، وأن تحديد ماهيته يتحدد بمعاينة
ما يظلم به، و أعطى اللوجوس الذي ينتمي إلى
الفلسفة اليونانية، معنى آخر وهو "الكلمة"، و أعاد
تفسير سفر التكوين وفقاً للمنطق الرمزي، فالله صنع
آدم على مثال العقل، وأعطاه الحس(حواء)، وعن
طريق هذا الحس طواع العقل اللذة (الأفعى)
فأفسدته⁽¹⁶⁷⁾.

الغنوصية

رأت الغنوصية النور من جراء غزو الفلسفة
اليونانية للمسيحية، وهناك ثلاثة من أشهر الفلاسفة

(167) المصدر السابق صفحة 227.

الغنوصيين؛ باسليدس الذي كان داعية أخلاقية، اهتم بمشكلة الشر. ومشكلة العناية الإلهية، وفالنتينوس، ومريقيون الذي أراد استكمال ما فعله القديس بولس من تخليص المسيحية من اليهودية، فقد رأيا عبر تفسير نصوص الكتاب المقدس، أن إله العهد القديم هو إله قاسٍ عنيف، محب للانتقام والحرب، وأن الذي تجلى لموسى ليس هو نفسه الله الذي تجلى عن طريق المسيح؛ الإله الطيب، خالق العالم اللا منظور، على حين أن إله موسى هو خالق العالم المنظور، والتعارض بين الإلهين كالتعارض بين العدل، والطيبة.

اضمحلال روما

في نهاية القرن الثالث الميلادي شرع أباطرة روما في مغادرة المدينة التي حكمت العالم عشرة قرون متواصلة، ثم تحولت إلى مدينة صغيرة يكره الأباطرة أن ينتسبوا إلى تاريخها المغموس بالأشلاء البشرية، وشرعوا يبحثون عن عاصمة جديدة، أكثر قربا من الشرق الدافئ، وأكثر بعدا عن العار الذي ألحقته روما بشعوب البحر المتوسط وبذاتها.

كان أول هذه العواصم هي (نيقوميديا) التي اختارها الإمبراطور ديقليديانوس كعاصمة للإمبراطورية، لكن الإمبراطور قسطنطين كان من اختار بيزنطة عاصمة جديدة للإمبراطورية. وحين كانت الإمبراطورية تقسم بين الأباطرة، رفض كثير من الذين تولوا القسم الغربي أن يجعلوا من روما عاصمتهم، مفضلين عنها مدينة ميلان جنوب إيطاليا، وهكذا تضاءلت روما وأصبحت مدينة أقل شهرة وخاصة من الوجهة السياسية، واكتفت بأن تكون عاصمة ومركزاً للمسيحية الغربية، والتي تحولت فيما بعد مقرا للبابوية الكاثوليكية.

* * * *

الفصل الثامن عشر مؤسسات المقاومة

تمثل كنيسة الإسكندرية فى القرون الأولى
ملحمة للبطولة لا تخص المسيحيين الأقباط
وحدهم، ولكنه جزء أصيل من تاريخ الشعب
المصرى لا ينبغى أن يترك فى الظلام، ولكن علينا أن
نضعه تحت الضوء ليكون نورا ساطعا ونبراسا
يمكن المصريين من استعادة وعيهم المسلوب.

مع مطلع القرن الأول الميلادي، أصبحت الإسكندرية المدينة الثانية على شاطئ المتوسط التي احتضنت المظاهر الثقافية لبقايا الشرائع الثلاث التي هزمت في الصراع على المتوسط؛ مصريون وثنينيون يحملون على أعناقهم نير حضارة تعاني من الاضمحلال والتفسخ اليقيني.

يونانيون تقلصت رؤاهم الفلسفية من الحدود القصوى للقوة البشرية الممثلة في مفهوم الحرية والفاعلية الإنسانية إلى فلسفة أفلوطين الصوفية التي تعلن عن قبولها بالعالم على ما هو عليه.

عبرانيون دفع بهم الرومان مرة ثانية إلى الشتات، إلى أرض العبودية التي سبق وأن فروا منها، وكان عهدا لم يكن بينهم وبين الرب يهوه.

وقد تلقت جماعات واسعة من الثقافات الثلاث الدعوة إلى المسيحية كطوق نجاة من المأزق الفكري الذي بلغته عقائدهم ورؤاهم القديمة، ومن الواقع الحياتي المرير الذي أوقعه بهم القانون الروماني، وطوال القرنين الأول والثاني، وحتى منتصف القرن الثالث، وفي ظل ظروف هادئة نسبية، تخللتها أعمال اضطهاد من قبل الجماعات الوثنية المصرية، سيتمكن التحالف المصري اليوناني للدين الجديد فيما يسمى (الكنيسة الأرثوذكسية) من مفاجأة روما بما لم تتوقعه. وسوف يعطى هذا التحالف للمسيحية والمشكل من البنية النسقية للدين المصري القديم التي تستند على رؤية عميقة للقوى الميتافيزيقية الخالقة

للكون، ومن الفلسفة اليونانية وما تملكه من إنجازات في المعرفة والوعي بالوجود، صلابته العقيدية، ما يمكنهما من الصمود في وجه يقظة روما المتأخرة، التي ما إن أفقت على هذا الانتشار المخيف للعقيدة المسيحية في كافة أرجاء المتوسط، حتى شعرت بالخطر الداهم الذي يحيق بالإمبراطورية الرومانية. ومنذ تلك اللحظة شنت روما حروب استئصال لا هوادة فيها ضد المؤمنين البسطاء والفقراء والمعوزين والتعساء.

أولاً: مدرسة اللاهوت الإسكندرية

في قلب المدينة التي نشأت على ضفاف الحضارة المصرية القديمة، التي ورثت التقاليد الفلسفية اليونانية، وظلت شمسها منارة الفكر اليوناني، وكانت واسطة العقد بين الشرق والغرب، وظلت لقرون خلت مركز وبؤرة الثقافات المختلفة التي نشأت على ضفاف المتوسط.

وفي أروقة الجامعة "مسيون" والمكتبة العريقة، كان من الطبيعي أن تنشأ الاتجاهات العقيدية المسيحية، بغرض محاجة الفلاسفة الوثنيين، مما دفع أحد المؤرخين للقول بأنه: "ليس هناك بلد من البلاد أثر على تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر، بل ليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحي بصورة أشد عمقا من الإسكندرية"⁽¹⁶⁸⁾. وقد قدمت الإسكندرية للعالم المسيحي في القرون الثلاثة

Creed, Egypt and the christian church, (168) (نقلا عن د. رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة - الجزء الثاني) الوثنية والمسيحية [أدار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة- 1999 صفحة 162.

الأولى للميلاد، أشهر آبائه في الفكر اللاهوتي، أولهم بانتاس الذي آمن بالرواقية وأول من أسس مدرسة الإسكندرية للاهوت المسيحي، أما أشهر من تولوا رئاستها، فهم كليمنت السكندري⁽¹⁶⁹⁾، وتلميذه أوريجانوس⁽¹⁷⁰⁾، وديونيسيوس⁽¹⁷¹⁾، وقد تمكنوا من ترسيخ النظرة الفلسفية المسيحية⁽¹⁷²⁾.

”أوريجانوس“ (173)

يعتبر أوريجانوس المؤسس الحقيقي لمدرسة اللاهوت السكندرية، حيث صعد بالفكر اللاهوتي من كونه مجرد سلوى وعزاء، إلى فلسفة تتسم بالنضج والتماسك، والاعتزاز بالعقل، دعامتها الرئيسية الكتاب المقدس، وكان غزير الإنتاج، متنوع المعرفة يعي الثقافة اليونانية، والفلسفة الأفلاطونية، مطلعاً على الفلسفة الرواقية، السائدة في عصره. وحين أصبح رئيس مدرسة اللاهوت وهو في سن مبكرة قام بتنظيم مدرسة الإسكندرية فضمن الدراسة "علوم النحو والمنطق والبلاغة والحساب والهندسة والفلك والموسيقى، وجعلها مقدمة لدراسة الفلسفة وفروعها، كمقدمة لدراسة العلوم الإلهية⁽¹⁷⁴⁾، وقد تحولت المدرسة تحت إدارته إلى محراب العلوم الدينية والمدنية. وقد امتاز بأنه "أول مسيحي أمعن التفكير

(169) كليمنت السكندري CLEMENS (160-215 م).

(170) أوريجانوس ORIGENS (185 - 254 م).

(171) ديونيسيوس DIONYSIUS - (246-265 م).

(172) د. رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة - الجزء الثاني -- الوثنية والمسيحية - [آدار قضاء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة 1999- صفحة 163.

(173) أوريجانوس.. باللغة المصرية القديمة تعنى ابن حورس.

(174) إيريس حبيب المصرى قصة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - مكتبة كنيسة مارجرس باسورتج- الإسكندرية الطبعة الثامنة 2003 صفحة 59.

إلى أقصى. الحدود فتمكن من اكتساب الفلاسفة
الوثنيين والطبقة الأرستقراطية إلى المسيحية" (175).

وكان قد كتب ستة آلاف مخطوطة قاوم فيها
تفسير اليهود والغنوصيين الحرفي للكتاب المقدس،
ودعاهم إلى أن يتركوا الشريعة الموسوية (شريعة
النقص) ليتصلوا بالإنجيل (شريعة الكمال) (176).

ويعد كتاب "المبادئ الأولى" أول عرض منظم
للعقيدة المسيحية. وكان لديه كتاب "ضد كلسوس
الفليسوف الوثني الذي هاجم المسيحية وهجاها. وقد
ترك أوريجن أثرا عميقا في المسيحية ويرى مؤرخو
المسيحية أن أحداً بعد القديس بولس لم يترك أثرا
واضحا في اللاهوت المسيحي مثلما فعل أوريجن، يقول
شدويك: "إنه يقف عملاقاً بين مفكري المسيحية
الأوائل، وقد كان له الفضل في صياغة الكثير من
مشكلات اللاهوت المسيحية، مثل قضية الخلق،
وقضية البعث، والمصير الإنساني، وقضية الحرية
الإنسانية، تلك القضايا التي ستفرض نفسها على الفكر
الفلسفي - الديني لوقت طويل سواء في التراث
المسيحي أو الإسلامي" (177).

رؤيته الفلسفية

أسس أوريجونوس رؤيته الفلسفية ضد الهلينية
وخاصة الأفلاطونية، وهو في معرض حديثه عن ذلك
أوضح كيف أن "جميع أولئك الذين يسلمون بوجود

(175) المصدر السابق. صفحة 60.

(176) المصدر السابق 62.

(177) د. مصطفى النشار مدرسة الإسكندرية الفلسفية : بين التراث الشرقي والفلسفة
اليونانية - دار المعارف - الطبعة الأولى - 1995.

عناية إلهية يقرون بوجود إله غير مخلوق خلق كل شيء، وإذا قالت المسيحية بأن لهذا الله ابناً فليست وحدها من تقول ذلك، فقد سبق وأن قالوا إن كل شيء قد خلقه عقل الله وكلمته، لكن إيماننا يأتي لمذهب أوحى به السماء... لكن وحدها الروح القدس فلم تخطر لأحد غير الذين يعرفون الشريعة، والأنبياء، أو يؤمنون في المسيح⁽¹⁷⁸⁾.

العقل أولاً، والاجتهاد ثانياً، والتأويل ثالثاً

تثير رؤية هذا المفكر المصري العظيم قدراً واسعاً من الاحترام والتقدير، فثمة قضايا كبرى لا تزال مطروحة حتى هذه اللحظة وخاصة في الفكر الديني، اتخذ منها موقفاً تقدمياً ومنفتحاً، ومن هذه القضايا موقفه من التأويل الذي كان أحد أعلامه في الإسكندرية. فهو يرى أنه "حينما تكون العقيدة واضحة صريحة يجب التمسك بها ونظمها في مجموعة متسقة يبرهن على أصولها بالعقل، ولكن "حينما لا تكون كذلك، فالباب مفتوح أمام العقل للمناقشة وللإجتهاد والتحصيل، فالعقيدة قد تحتاج للتأويل المجازي، وقد ظهر هذا في تأويله لسفر التكوين، حين قال "في البدء خلق الله السماء، حيث اعتبر "أن في البدء" لا تعني بدء الزمان، ولكن تعني الكلمة، ذلك أن الله ثابت لا يتغير من خلق إلى خلق"⁽¹⁷⁹⁾

178 (اميل برهيه TOME PREMIERE EMILE BREMIER - تاريخ الفلسفة - HISTORY DE LA PHILOSOPHIE الجزء الثاني -الفلسفة الهلنستية والرومانية - ترجمة جورج طرابيشي -دار الطليعة بيروت لبنان 1982 -صفحة 316
179 د. مصطفى النشار مدرسة الإسكندرية الفلسفية : بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية - دار المعارف - الطبعة الأولى 1995 .

الحرية الإنسانية ومفهوم الاختيار

كان يؤمن بحرية الإنسان فالله خلق النفوس كاملة كما تقتضي العدالة الإلهية، وإذا كان هناك تفاوت فيما بينها فهو يرجع لحرية النفس، ومدى ارتباطها بالجسد. وبهذا يكون في إمكان النفس الخلاص من خطاياها، ذلك أنها تحتفظ بحريتها على الاختيار. وقد بنى أوريجانوس عقيدته على مبدئين هما العناية الإلهية المحسنة، والمخلوقات الحرة، فقد خلق الله الناس أحراراً وما نالوه من حرية عرضهم للسقوط، والخالق سبحانه ولو أنه يحترم هذه الحرية إلا أنه لفرط محبته لبني الإنسان هياً لهم سبيل الخلاص بأن يدع لهم حرية الاختيار"⁽¹⁸⁰⁾.

قضية الشر

وهو يئزه الله عن إتيان الشر. ذلك أن النفس حاصلة على الخير لا بذاتها، ولكن كعرض، يمكن له أن يزول ومن هنا كان الشر.

* * * *

ثانياً: مؤسسة الرهبنة

عندما انهار العالم، لم يعد مفهوم وحدة الوجود المصرية القديمة قادراً على الصمود في وجه حقائق العالم الروماني الجديد، وفي ظل قهر لا مثيل له مال كثير من الفلاحين المصريين للهرب إلى الصحراء، بعيداً عن المعمورة، في حالة من التقشف الشديد، يعلنون زهدهم عن ذلك العالم المادى الذي خربت به روما

(180) إيريس حبيب المصرى قصة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - مكتبة كنيسة مارجرسج باسورتنج- الإسكندرية الطبعة الثامنة 2003 صفحة 63.

البشرية. كانوا يرسون بالفعل والقول مذهب الحياة الروحانية الجديدة أمام المادية المفرطة، ويعلون بذواتهم وشأنهم علواً يصعب على من يملكون السلطة والجاه والثروة أن يدانوه. كانت الرهبنة تعبيراً عن إصرار إيماني بمملكة الرب السماوية هناك، حيث القيصر. أب رحيم يحب أبناءه، ويستر عورتهم، ويصبغ عليهم السلام النفسى.

وفي ظل الصراع الجارى ضد مادية روما الوثنية، ومادية بيزنطة المسيحية، انبعثت الرهبنة من وادى النيل، وإليها حج جميع طلاب الحياة النسكية فى القرون الأولى. وفي صحرائها أسس الرهبان الأوائل الأديرة وقواعدها، التى أمدت المدرسة اللاهوتية برؤسائها وقادة الفكر اللاهوتى المسيحى، برموزه وكرسى البابوية بمن يشغله.

الكفاح السلمى

ها هو مشهد قديم من مشاهد الكفاح السلمى للشعوب، يتخذ طابعا دينيا محضاً، فقد كانت الرهبنة المصرية رمزاً للتخلص عن عالم روما المادى بإجماله، وحيث تبدو المبالغة، والإسراف فى الطهارة الجسدية، والجنسية، تعبيراً عن التحدى فى مواجهة روما وملذاتها الغارقة فى المباحج الدنيوية، وإعلاناً عن انحلالها الأخلاقى.

الأنبا بولا

كان الأنبا بولا أول المتوحدين: تسلل إلى الصحراء وفيافيها زمن دقليديانوس هرباً من عاصفة الاضطهاد

التي قادها، ليقضى حياته مع الله طريدا وحيدا، وكان عمره لا يتجاوز العشرين.

القديس أنطوني

ثاني المترهبين هو القديس أنطوني الذي تخلى عن كل مباحج الدنيا، وقلقها، وماديتها، واندمج في سلوك روحاني تبعه الآلاف، وكان قد ولد في بلدة (قمن)، وعاش سنين طويلة عاكفا على الصوم والعبادة وجدل السلال. مثبتا المؤمنين، هاديا جميع الآتين إليه سبيل السلام، وقضى في حياة الرهبنة 85 عاماً في الصحارى، بعد أن أمضى عشرين سنة قبل دخوله حياة النسك، وعندما نقض الإمبراطور مكسيميانوس عهده مع المسيحيين، وعاود اضطهادهم في عهد البابا أرشيلالوس، هجر الأنبا أنطوني عزلته في البرية، وقصد الإسكندرية "فلأذهب إلى الإسكندرية حيث نيران العذاب"، وهو يطلب الاستشهاد والوقوف بجانب المضطهدين، وعندما انتهى الاضطهاد عاد إلى خلوته في الصحراء، فخرج أهل الإسكندرية عن بكرة أبيهم لتوديعه. وكان يقول لهم: "إني لا أخشى الله ولكني أحبه، والمحبة تزعج الخوف خارجا وتطرده بعيدا" (181).

الأنبا باخوم

أما الأنبا باخوم أبي الشركة فقد كان له أثر بعيد في نهج تلك البلاد لنهج الرهبان المصريين في أنظمتهم وطريقة معيشتهم.

وقد وصف البابا أثناسيوس الرسولي بابا الإسكندرية العشرون حالة الرهينة قائلا: "لقد غصت الصحاري بصوامع الرهبان الذين كرسوا حياتهم لتسبيح الله وتمجيده. وقد ارتبطت قلوبهم بالمحبة الخالصة، فرسموا للناس صورة بارعة تبين لهم كيف يكون المجتمع يسوده السلام والوثام"⁽¹⁸²⁾.

* * * *

ثالثا: الكنيسة المصرية

استمتعت الكنيسة المصرية على مدى القرنين الأولين للميلاد بسلام شامل، إلا من الاضطهاد الذي قام به الوثنيون تجاه الدين الجديد، ثم اندلعت بعدها نيران الاضطهاد بقسوة وعنف لا مثيل لهما في سائر أنحاء العالم. وصف جون نيل هذه الحقبة بقوله: "لقد اقتضت الإرادة الإلهية أن يسود السلام مدى قرنين على كنيسة الإسكندرية التي تعرضت فيما بعد لأقسى أنواع العذاب من الوثنيين، كما اضطرت إلى الإيمان ضد بدعتين هما بدعتا آريوس ونسطورؤيوس"⁽¹⁸³⁾.

وخلال القرون الثلاثة التي تلت ميلاد السيد المسيح حدثت تغيرات كبرى، كان أهمها فشل سياسة الاضطهاد الرومانية، وانتشار المسيحية بين الشعوب على امتداد جغرافيا البحر المتوسط، مصحوبة بقوة عاتية لدى الشعب المسيحي لمقاومة روما التي لا

182 (تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة جون نيل. إيريس حبيب المصرى قصة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - مكتبة كنيسة مارجرس باسبورتنج- الإسكندرية الطبعة الثامنة 2003 صفحة 105.

183 (المصدر السابق صفحة 33.

تقاوم، والتقدم بإصرار المسيحيين الأوائل للسير في ركب الاستشهاد، وهو أمر لم تواجهه روما من قبل، وإزاء تلك الحالة أصبحت روما رويداً رويداً مثقلة بالعبء الأخلاقي، متخمة بذنوبها وآثامها، تائهة في البحث عن معنى للحياة السعيدة، لا تجد لدى مفكراتها وفلاسفتها سوى مذاهب صوفية رثة عاجزة، بين رواقية أو أفلوطينية تقبل بمصير قدرى ليس للإنسان فيه وجود أو فاعلية، ليبقى الموت نهاية مأساوية للبشرية.

ملحمة البيطولة

لكن الأمر لم يكن يتوقف على هذا، فبينما كانت المؤسسة السياسية الرومانية ممثلة في مجلس الشيوخ الروماني العريق صاحب الديمقراطية، تتفسخ تحت سطوة الأباطرة، ويتحول مجلس الشيوخ إلى أداة تلبى أهواءهم وأغراضهم، أعضاؤه معرضون للتكيل بهم كيفما اقتضت الحاجة الإمبراطورية، وتحول الأباطرة إلى سلوك استبدادى تخلى عن أي مرجعية أخلاقية، برزت المؤسسة الكنسية المسيحية في مقدمة شعبها، تعبر عنه بقوة وتماسك يندر حدوثه، وتتحول إلى ركيزة من القوة والصلابة يتمسك به الشعب وسط الأنواء والعواصف الدموية، وقدم قساوسة وأساقفة وبابوات القرون الأولى لشعوبهم صكا من الثقة والإيمان، الذي لا يهتز ولا يضعف ولا يفتر، مشوبا باهتمام لا ينضب، ورعاية للشعب امتدت من الإسكندرية إلى أقاصى جنوب البلاد، وحتى إلى الغرب حيث تقع الأسقفيات الليبية والتي كانت تابعة للكنيسة المصرية.

الأمر الذي ساعد الشعب كثيرا على الإبقاء على شعلة إيمانه، وكان الآباء الأوائل يتقدمون الشهداء جيلاً بعد جيل، ويتعرضون إلى التعذيب والاضطهاد شأنهم شأن رعيتهم، فقتل القديس مرقس بعد أن عذب وسُحل، وقتل كردونوس البابا الرابع وبطرس الأول البابا السابع عشر. على يد دقلديانوس وأعدم، وبينما كانت مهمة الإمبراطور الروماني تهشيم الشعوب المغلوبة وتحويلها إلى عبيد للإمبراطورية، كان الآباء الأوائل يدافعون عن رعيتهم، ويمثلون مقاومتهم، ويستعيدون لهم ومعهم كرامتهم الإنسانية.

وفي القرون الأولى الميلادية، قادت كنيسة الإسكندرية ملحمة للبطولة ضد أباطرة روما، صراعاً بدا في ظاهره دينياً ومذهبياً، لكنه كان في باطنه صراعاً وطنياً، بين الشعب المصري وروما، دفع فيه المصريون تضحيات جسيمة.

هذا النضال جزء أصيل من تاريخ الشعب المصري، لا يخص المسيحيين وحدهم، وإنما جميع المصريين، لهذا لا ينبغي أن يترك في ظلام التاريخ وبين أرفف وملفات تاريخ الطوائف الديني، بل يجب أن يوضع تحت الضوء، ليكون نورا ساطعاً في وعي المصريين المحدثين.

دور الكنيسة المصرية بعد تبني القيصرة العقيدة الجديدة

ومن الجدير بالإشارة أن دور الكنيسة المصرية قد بدأ يعبر بجلاء عن طبيعته الصلبة، في صناعة التاريخ،

بعدها اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية، فقد تغيرت قواعد النضال، حيث لم يعد الصراع يدور بين دولة وثنية، وجماعة من المؤمنين بعقيدة مخالفة، ولكنه تحول إلى صراع مذهبي حول معنى العقيدة بين أصحاب الدين الواحد.

القديس أنثاسيوس الرسولي

ويعد القديس أنثاسيوس الرسولي واحداً من أعظم الشخصيات المصرية على مدار التاريخ، وتصل هامته إلى خوفو الذي بنى الهرم الأكبر، ورمسيس الثاني، وتحتمس الثالث، الذين صنعوا أولى إمبراطوريات التاريخ، وتوت عنخ أمون صاحب رسالة التوحيد، والوالي محمد سعيد وسعد زغلول، وجمال عبد الناصر، صاحبي الثورات المصرية المعاصرة.

فأنثاسيوس الرسولي هو من بنى هرم الكرامة المصرية أمام الإمبراطورية الرومانية، وهزمها وكانت حياته ملحمة من البطولة تتجاوز بما لا يقارن ملاحم أبي زيد الهلالي، والظاهر بيبرس. ذلك أن البطولة وعناصرها الفكرية والأخلاقية والتفاف الناس حول صاحبها، ومحبتهم له ودفاعهم المستميت عنه، بوصفه رمزا لهم، ولكرامتهم، بلغت ذروتها معه كشخصية بطل استمر طول حياته التي تخطت السبعين عاماً، مناضلاً صلباً، وثائراً عنيدا لا يهدأ ولا يستسلم في سبيل ما يؤمن به.

* * * *

الفصل التاسع عشر

دستور الكنيسة المصرية القويم

طوال عشرات القرون كونت ثقافات وحضارات البحر المتوسط خمسة أنساق من الشرائع الدينية والمدنية؛ الماعت المصرية، شرائع بلاد الرافدين، الشريعة التوراتية، الديمقراطية اليونانية، القانون المدني الروماني، جميعها تجاوزت وتصارعت، خصب بعضها البعض، وأخذ بعضها عن الآخر، توالد بعضها من الآخر، وقبل ميلاد السيد المسيح، كانت أغلب تلك الشرائع قد أصابها الوهن والضعف، ودال الأمر في النهاية لسيطرة القانون الروماني.

بعد مرور ثلاثة قرون من ميلاد السيد المسيح، وانتشار دعوته بدا أن الشريعة الجديدة سوف تقوم بمهمة التاريخ، عندما يحكم على عصر. بالغروب وآخر بالشروق. وكانت هذه المهمة من نصيب الكنيسة المصرية، إذ أخذت الإسكندرية على عاتقها القصاص

من روما والانتقام مما أوقعته بشعوب المتوسط. وسوف يتولى آباء الكنيسة المصرية نقض القانون الروماني، وتقديم دستور جديد إلى العالم، ينقض البنية العنصرية في (قانون المواطن الروماني) وينزل الستار على الألواح الاثني عشر.

الخلافا العقائد، بين الكنيسة المصرية والعالم المسيحي

بدأ الأمر في خلاف نشأ حول مسألة طبيعة العلاقة بين الأب والابن. وقد نادى آريوس الذي كان أحد قساوسة المصريين، والذي يبدو أنه تبني مفاهيم الفلسفة اليونانية الشائعة في الإسكندرية أو أنه كان يوناني الأصل، ما سوف يصبح خلافا عقائديا على امتداد العالم المسيحي.

تعاليم الأريوسية⁽¹⁸⁴⁾:

- الأب هو الإله الحق في مقابل الابن الذي ليس إلها حقا، فهما متعارضان على أساس التعارض بين الإله غير المخلوق والمخلوق.
- ليس هناك اثنان غير مخلوقين، إلهان لا متناهيان. والابن غير مولود وليس جزءا من غير المولود. ولا يستمد كيانه من مادة وإنما بالإرادة والقصد وجد قبل كل العالمين، وأنه قبل أن ولد أو خلق أو قصد لم يكن لأنه كان غير مولود.

(184) د. رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة - الجزء الثاني [الوثنية والمسيحية - إدار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة 1999- صفححات(164/165/166/167)].

- الله لم يكن دائما أباً لأنه كان وحيداً. ولم يكن اللوجوس أو الحكمة قد وجدت بعد.
- الله قوة طبيعية ليس كمثلها شيء سمردية، أما المسيح ليس القوة الحقيقية لله، وإنما هو إحدى هذه القوى وهو في علاقته بالمخلوقات يعتبر الخالق، وفي علاقته بالآب فهو مخلوق وآلة الخلق وأداة.
- أن هناك مسافة شاسعة بين الله والمخلوقات.
- أن المسيح ليس إلهاً لأن اللوجوس ليس هو الإله الحق، ومن ثم فإن الخلاص يتم على المستوى الأخلاقي أو بالأحرى على المستوى الإنساني.

وقد رفض إسكندر بابا الإسكندرية عام 324 م. هذه التعاليم التي اعتبرها هرطقة وخروجاً عن الإيمان المستقيم، وقام بتوقيع الحرمان على آريوس وأتباعه. وقد دعم موقفه مجمع عقد في إنطاكية عام (324م) لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فقد وجد الآيروسيون مناصرين كثيرين وخاصة في الكنائس الشرقية، فقام يوسيبوس النيقومندى بالدفاع عن وجهة نظر آريوس قائلاً "لم نسمع بكائنين غير مولودين، وما علمنا بانقسام الواحد إلى اثنين، ولم نع على الإطلاق أن الواحد قد تجسد في صورة بشرية"⁽¹⁸⁵⁾.

وفي المقابل حدد أثناسيوس عقيدة الكنيسة المصرية بقوله: "نؤمن كما تركز الكنيسة الرسولية بالآب الوحيد غير المولود الواجب الوجود، لا يتغير ولا يزول، هو غاية الكمال، لا يتكرر عليه نقصان أو زيادة، معطى الشريعة والأنبياء والأنجيل، رب الأنبياء والرسل والقديسين، ورب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد

المولود، ليس مولوداً من العدم بل من الأب، على نحو لا يدركه عقل، ووجوده غير مدرك عند الكائنات المائنة والأب غير مدرك لأن طبيعة الخلاق العاقلة لا تقوى على فهم هذه الولادة الإلهية من الأب. ولا أحد يعرف الأب إلا الابن، (متى 27: 11) • الابن لا يتغير الابن لا ينقص عن الأب شيئاً سوى أنه ليس غير مولود وهو الابن الكامل وصورة الأب التامة"⁽¹⁸⁶⁾.

مجمع نيقية

كان ليوسيبوس أسقف نيقوميديا مكانة مرموقة في القصر. الإمبراطوري، وقد وجد في التعاليم الآريوسية ما يلائم التصور السياسي للأباطرة البيزنطيين، وعندما حضر. آريوس إلى نيقوميديا قدمه إلى الإمبراطور قسطنطين الكبير، حيث تبين أن كنيسة الإسكندرية تقف في جانب بينما تقف جل كنائس الشرق في جانب آخر. عندها تدخل الإمبراطور قسطنطين وقرر عقد مجمع مسكوني (عالمي)، يضم أساقفة الإمبراطورية جميعها. في مدينة نيقية، وكان مجمع نيقية هو أول مجمع عالمي، أو أمي، شهدته الكنيسة.

في (20 مايو 325م) التأم عقد المجمع. وقد حضره (318 أسقفا) أغلبهم يمثل الكنائس الشرقية، وحضره الكسندروس أسقف الإسكندرية وشماسه أنناسيوس، وستة أساقفة فقط من الغرب، وقد حضر الإمبراطور قسطنطين في خطابه الافتتاحي على لم الشمل، ثم دارت المناقشات لتحديد العقيدة التي تمثل الإيمان القويم، أو المستقيم، والذي ترضى به الكنائس كلها، ودار جدل طويل يعرض كل فريق أسانيده وحججه.

كان الصراع يدور بين الإيمان الشرقي المصري، والفلسفة اليونانية وكان عمل الآباء الغربيين الستة في مجمع نيقية غاية في الضلالة، لضعف ثقافتهم الدينية، وذكر المؤرخون: "كانت الكنيسة الرومانية في معزل عن الاشتغال بالشئون الكنسية الخطرة نزولا على إرادة الإمبراطور، أو نتيجة لرخاوة الأحبار الرومان، ولهذا لم يأت نواب الكنيسة الرومانية في مجمع أرل بفرنسا المنعقد سنة 314 م، ومجمع نيقية عام 325 عملا بارزا".

عودة الماعت

وبفعل منطوق الأمور، وخاصة في أمر يخص عقيدة دينية، انتصرت عقيدة الإيمان المصري والتي تمتلك عراقية أرث يستند على مفهوم الماعت أي (الاستقامة) وحول الخير والعدل، على الفلسفة اليونانية، وقد حاز أثناسيوس الشماس الشاب إعجاب الحضور بثقافته وبراعته الخطابية وفهمه العميق للكتاب المقدس، ويقول المؤرخ الكنسي. سقراط إن الفريق الآريوسي واجه معارضة قوية من أثناسيوس، أما سوزومونوس فيؤكد على نفس الأمر. وفي النهاية أوكل إلى ثلاثة من الحضور هم؛ (الأبنا الكسندروس بابا الإسكندرية التاسع عشر) وشماسه (أثناسيوس الرسولي) الذي خلفه على كرسي البابوية (وليونتيوس أسقف قيسارية الكابودوك) بكتابة دستور الكنيسة الجامعة، وجاء النص كالتالي:

"قانون الإيمان القويم" (187)

"نؤمن بإله واحد، الله الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح. المولود من الآب قبل كل الدهور. نور من نور. إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق. مساو للأب في الجوهر. الذي به كل شيء كان. هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنس وصلب على عهد بيلاطس البنطى، تألم وقبر وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب، وصعد إلى السماوات وجلس على يمين أبيه، وسيأتى أيضا فى مجده ليدين الأحياء والأموات الذي ليس لملكه انقضاء". "نعم نؤمن بالروح القدس"

وقد ذيل هذا الدستور بالحرم الذي جاء نصه "أن جميع الذين يقولون عن الابن أنه جاء عليه حين من الدهر لم يكن موجودا أو أنه لم يكن له أثر فى الوجود قبل أن يولد، أو أنه ولد من العدم، أو أنه من غير جوهر الآب، أو أنه مخلوق ومعرض للتحويل والتبدل، فالكنيسة الجامعة الرسولية المقدسة تعلن وقوعهم تحت طائلة الحرم" (188).

وقع جميع الآباء على الدستور، ومن ثم تقرر توقيع الحرم على أريوس ومريديه ومؤيديه، ومنعه من دخول الإسكندرية، كما بعث أساقفة المجمع رسالة إلى كنيسة الإسكندرية جاء فيها:

"إلى كنيسة الإسكندرية التى حازت بفضل من الله ونعمه كل عظمة وقداسته إلى الإخوة

(187) إيريس حبيب المصرى قصة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - مكتبة كنيسة مارجرس باسورتنج- الإسكندرية الطبعة الثامنة 2003 صفحة 178.
188 (المصدر السابق صفحة 178.

الأحباء فى مصر وليبيا والمدائن الخمس... نرسل نحن أساقفة الجمع العظيم المنعقد فى نيقية تحية من عند الرب... وقد فحصت عقيدة أريوس الدنسة وأجمع الجمع على إدانتها ولعنها سواء بسواء مع لغة التجديف التى روج لها، زاعماً أن ابن الله جاء من عدم. وأنه ما كان قبل أن ولد، وأن هناك وقتاً لم يكن وأن بمقدوره وفق إرادته الحرة أن يتحكم فى الفضيلة والرذيلة... لقد لعن الجمع كل هذه المهاترات... وبناء على ذلك نفذ قسطنطين تهديداته بنفى المخالفين لعقيدة الإيمان القويم.

الصراع بين الدين والفلسفة والسياسة

من الواضح أن الصراع كان يدور فى البداية حول تحديد طبيعة السيد المسيح بين اللاهوت والناسوت، وفيما إذا كان إلهاً أم أقل فى مرتبته الألوهية من الرب، وكان الأمر يجرى تناوله من قبل مرجعيتين؛ الأولى الفلسفة اليونانية، وهو رؤية الأريوسون، والثانى من مرجعية إيمانية معتقديه وهو موقف المصريين، ثم تطور الأمر فيما بعد ليكون صراعاً سياسياً بين الكنيسة المصرية، وأباطرة الإمبراطورية الرومانية.

التصور المصرى القديم والرومانى عن الآلهة

من المعروف أن معتقد المسلمين عن السيد المسيح أنه إنسان، ونبي مرسل من عند الله مثله مثل بقية الأنبياء الذين بعثهم الله رحمة بعبادة، وفكرة أن السيد المسيح هو إنسان تعتبر أكثر معقولية لدى أصحاب الرؤى الواقعية، لكن الأمر ربما لا ينبغى أن يؤخذ داخل حدود هذا المحمل، ففى ظل التصور الرومانى عن الآلهة، سنجد أن الرومان يؤمنون بأن

أبطالهم من البشر. يرفعون إلى السماء بعد موتهم ليصبحوا آلهة، وأنهم هم مجرد بشر، صعدوا إلى السماء ليستقر مقامهم بين الآلهة. وأن صعودهم إلى عالم الخلود والقداسة، كان لأسباب تخص ما قدمه هؤلاء الأبطال للرومان من أعمال عظيمة، وانتصارات وفتوحات عادت على الشعب الروماني بالمجد والخير الوفير. وهو الأمر الذي سيلاقي مقاومة صلبة من قبل أساقفة الكنيسة المصرية، ونعتقد أن مرجع هذا ثلاثة أسباب:

- الأول يتعلق بالثقافة المصرية.
- الثاني يتعلق بنقض القانون الروماني.
- الثالث يتعلق بنفى أى شبهة بين التصور الناسوتي للسيد المسيح الذي هو رب في لاهوته، والأباطرة الرومان الذين هم بشر. صعدوا إلى السماء وجرى تأليههم ليصبحوا آلهة.

المسيحية والثقافة المصرية

مفهوم الثالوث المقدس مفهوم مصري قديم، والآب والابن والروح القدس قريب من الثالوث إوزوريس وإيزيس وحورس، كما أن إيزيس حملت في حورس بعد موت الأب الإله، الذي أصبح إله الحساب وعالم الموتى للبطش والعامه، ومن الواضح أن إصرار رجال الكنيسة المصرية على أن الثالوث (الآب والابن والروح القدس) ثلوث من طبيعة واحدة، وجوهر واحد إلهي، أمر ليس بعيداً عن الثقافة والمعتقدات المصرية الدينية القديمة. وقد سمي دستور الكنيسة الأرثوذكسية بقانون الإيمان المستقيم. ومثل هذا يقربنا كثيراً من مفهوم "الماعت" التي تعنى الاستقامة.

بشر. السيد المسيح بعالم البعث بعد الموت، وهو مفهوم لا يوجد لا في الشريعة التوراتية ولا أى من الشرائع المدنية اليونانية والرومانية، وهو مقصور فقط على الحضارة المصرية القديمة.

الشمس ذات الأجنحة

من الأمثلة الناطقة بهذه الحقيقة الآية القائلة "وَلَكُمْ أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ اسْمِي تَشْرُقُ شَمْسُ الْبَرِّ وَالشَّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا، فَتَخْرُجُونَ وَتَنْشَأُونَ كَعَجُولِ الصَّيْرَةِ" (سفر ملاخي 4: 2) . والشمس ذات الأجنحة صورة ابتكرها الخيال المصرى فى تعبيره عن القوى غير المنظورة". ويضيف هنرى برستيد: يفسر. المسيحيون المصريون رؤية أسلافهم للثالوث المقدس الأوزيرى، بالثالوث المقدس المسيحى بأنه قبس من النور الكامن فى النفس، ينتظر قدوم السيد المسيح كى يخلصه ويخرج به إلى عالم النور.

وكان إيمان المصريين القدماء بثالوث إلهي جعل أميلينو يفسر. أن روح الله القدوس فى دستور الإيمان المسيحى يقوم مقام (الآلهة الأم) فى علم اللاهوت المصرى، مستبدلا بكلمة (رواح) العبرية التى هى معنى (روح) فى العربية كلمة مؤنثة، وأن هذه (الرواح) الإلهية هى التى كانت فى بدء الخليقة تبسط جناحيها على البيض الذى ستخرج منه الكائنات ما تسلل منه ذراريها. أى أنها الأم الأولى، أو الأم البدئية، وإضافة لهذا عبد المصريون الأم إيزيس وهى ترضع طفلها

حورس، وما كانت لتختلف عن مريم العذراء وهي تحمل السيد المسيح"⁽¹⁸⁹⁾.

وضع دستور الكنيسة الجامعة "قانون الإيمان القويم (المستقيم)" "ثلاثة رجال من بينهم اثنان مصريان، وفي هذا الصدد يقول المستشرق الإنجليزي فليندرز بيتري: "أن الصيغة التي وضعها مجمع نيقية لقانون الإيمان الأثناسيوسى تكاد تكون صورة حرفية للصيغة الأولى، فالتعبير المصرى القديم (مولود قبل كل الدهور) لا يزال مستعملاً. وأن معنى الأبدية (قبل الدهور) لم يكن الغرب ليسر غورها، إذ كانت ذات مغزى خاص لدى المصريين، فطبعوها على أذهان المسيحيين على مدى الأجيال، وكان للرهبان المصريين بعيشهم في الصحراء حياة مكرسة للتنسك والعبادة والتأمل، قد قدموا للعالم صورة ملموسة لمعنى الأبدية، حيث قرروا أن بمقدورهم أن يبدأوا حياة الأبدية وهم بعد في الجسد، فتناسوا الزمن، واستهانوا بمجد العالم ومباهجه وقضوا العمر ساعين نحو الكمال المسيحى، ونجحوا في أن يوضحوا للعقل الغربى معنى الأبدية"⁽¹⁹⁰⁾.

نقض قانون الفتح الرومانى

أشرنا سابقا إلى أن قانون الفتح الرومانى ينص على إعطاء المهزوم للمنتصر. كل ما يملك، بما في ذلك ألهته وآلهة الجدود ومعابده، وهو ما يعنى أن القانون للمنتصر. وحده، بينما لا يملك المغلوب قانونا ولا شرعا وعرفا أنهم برابرة، ينزع عنهم ثوب الشرائع، لا

189 (المصدر السابق) 17.

190 (المصدر السابق) 11.

ترقى حياتهم للبشر، وإنما تماثل حياة الوحوش والبرابرة، وهو يحيل الشعوب المقهورة إلى حالة من البدائية عندما لا تحل لهم ملكية الأشياء، أو مصاهرة الغالب.

لكن قانون الإيمان القويم يعيد للبشر. ما سبق للرومان انتزاعه منهم، وهو المساواة:

"نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى".

فالإله واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، وهو الآب لكل البشر. كيفما كانت أعراقهم وسلالاتهم؛ مصريون، سوريون، يونانيون، عبرانيون، أو رومان. وعندما اعتنقت روما وأباطرتها الدين المسيحي، لم تكن تعلن فقط عن تخليها عن آلهتها الوثنية، بل عن خضوعها للسيد المسيح".

ويستطرد القانون: "نؤمن برب واحد يسوع المسيح. المولود من الآب قبل كل الدهور. نور من نور. إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق. مساو للأب في الجوهر. الذي به كل شيء كان هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء".

وإيمان روما بالسيد المسيح إله حق، أب نزل من أجل كافة البشر، ليرفع المعاناه عن كاهل أبنائه التعساء، والمكرمين من قبله، يضع روما وأباطرتها في موضع صعب، وخاصة إذا ما مارسوا رذائلهم القديمة، لهذا كان الإمبراطور قسطنطين يجلس بعيداً عن منصة المجمع.

"نؤمن برب واحد يسوع المسيح تأنس وصلب على عهد بيلاطس البنطى، وتالم مبشرا بين البشر بالحب، ثم صعد إلى السموات وجلس

على يمين أبيه" حيث سيأتي اليوم الذي سيحاسب فيه
البشر يوم الدينونة جميعاً وبلا استثناء.

سلطة الحرمان

كما قامت روما بحرق المدن وتدميرها، وبيع آلاف
الأسرى رقيقاً في الأسواق، وحرمت على شعوب
الاقتراب من شاطئ البحر، وتغير عاداتهم من التجارة
إلى الزراعة، وكما نزعت عن أبناء البلاد التي غزتها
حريتها، وضعت الكنيسة الأباطرة أمام سلطة حساب
وعقاب غير مادية، تثير الرعب في القلوب، فهناك رب
سيحاسب الجميع بعد الانتقال إلى العالم الأخرى،
لكن الكنيسة أيضاً تستطيع أن تحاسب من يعصى.
الرب وهو على قيد الحياة، بأن تنزل عليه عقوبة
الحرمان والطرده من الكنيسة، وكما نزعت روما عن
الشعوب التي قهرتها ثوب الشريعة وجعلت منهم عرايا
في مرتبة الوحوش السامغة⁽¹⁹¹⁾، هددت الكنيسة
أباطرة روما بعقاب من نفس النوع، وهو توقيع
الحرمان من حماية الكنيسة، وتوقيع الطرد من جماعة
المؤمنين على من يعصاها إلى حيث عالم العدم، وهو
ما كان يشكل للمسيحيين الأوائل حتى عصور الأنوار
رعباً شديداً، وخوفاً من الصعب تفاديه. أما الحصول
على التوبة فكان حالة من المذلة والإهانة، عانى منها
بعض ملوك أوروبا مثل الملك شارلمان والملك هنري
الثاني.

المفهوم السياسي لقانون الإيمان القويم

(191) سمغ- سمغته: أطعمه وجرعه كسمغته؛ عن كراخ (المعجم: لسان العرب).

الكفاح المستميت الذي سلكه آباء الكنيسة المصرية دفاعاً عن دستور الكنيسة الجامعة، كان على وجه التحديد السمو بالسيد المسيح عن كونه بشراً، إلى كونه إلهًا مساويًا في طبيعته للآب، وهو ما يقطع الصلة بين المفهوم المسيحي "القويم أي المستقيم" وبين المفهوم الروماني لصعود أبطالهم البشريين إلى السماء ليصيروا آلهة.

ولذا نشب صراع دام بين الكنيسة المصرية، وكنائس العالم، وهو الأمر الذي انتهى بفراق بين الكنيسة المصرية، وبقيّة الكنائس العالمية سيمتد إلى قرون، سيصبح آباء الكنيسة المصرية محل غضب أباطرة الرومان، وسيصبحون هم مصدر قلق عميق للأباطرة. وسوف يدفع آباء الكنيسة المصرية ورعتهم من الفلاحين المصريين ثمنًا باهظًا تعود فيه عصور اضطهاد وتعذيب لن تختلف كثيرًا عن روما الوثنية.

وتاريخ الكنيسة المصرية حافل بالدفاع عن طبيعة وجوهر الأقانيم الثلاثة، في عصر البابا ديونيسيوس، الذي نصب على كرسي الباباوية عام 148 م وكان في البداية من الصابئة والمتبحرين في علوم الفلسفة واللاهوت؛ قام كاهن روماني يدعى سابيلْيوس بالقول بأن "الله بما أنه جوهر واحد فالأقانيم الثلاثة لا تكون إلا خيالية، أو أنها تعبيرات مختلفة لشخصية واحدة"، وقد وصف البابا ديونيسيوس هذه البدعة بأنها تجديف على الله ضابط الكل، وعلى ابنه الوحيد بكر الخلاق، وعلى الروح القدس، وقام على دحضها، وكتب رسالة إلى رومية في ذلك، وفي روما رأى بعض رجال الكنيسة الرومانيين أن ديونيسيوس غالى في

كلامه عن تثليث الأقانيم، حتى أنه يكاد يجعل كل أقنوم قائما بذلك، فلم يتردد البابا ديونيسيوس في إثبات أرثوذكسية تعاليمه، وبعث برسالة إلى رومية ثبت فيها أن أقنوم الأب جوهر إلهي، وأقنوم الابن جمع بين اللاهوت والناسوت، وأقنوم الروح القدس لاهوت بحت ولكنه منبثق من الآب⁽¹⁹²⁾. وقد اقتنع معارضوه بالأمر.

وفيما بعد نادى بولس الساموساطي أسقف اللاذقية وكان من أهالي الإسكندرية، "أن أقنومي الابن والروح القدس شيء واحد، وأن "كلمة الله" أتت إلى الأرض وحلت في إنسان اسمه يسوع المسيح، وأن ابن الإنسان لم ينحدر من السماء بل أخذ مبدأ وجوده من مريم على الأرض "ونادى" أن المسيح مجرد إنسان بلغ درجة الألوهية بكماله الخلقى (تقارب هذه الرؤية رؤية روما لأباطرتها الذين أصعدت إلى السماء وعاملتهم معاملة الآلهة). وقد أنكر بولس أقنومي الابن والروح القدس. معتبرا إيهما مجرد قوتين في الله، كقوتي العقل والتفكير في الإنسان. وقد انعقد مجمع مسكوني في انطاكية في 262 م، وأرسل البابا ديونيسيوس برسالة إلى المجمع فند مقولات بولس الساموساطي، وهو ما استند المجمع عليه في تجريده من درجة الكهنوت.

وفي مطلع القرن الخامس الميلادي، رأى نسطور أسقف القسطنطينية، أن المسيح شخصان متباينان يعمل كل منهما مستقلا عن الآخر؛ أحدهما إلهي وثانيهما إنساني، ولما كانت السيدة العذراء والدة

192 (إيريس حبيب المصرى قصة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - مكتبة كنيسة مارجرس باسورتج- الإسكندرية الطبعة الثامنة 2003 صفحة 90.

المسيح الإنساني فهي ليست أما للمسيح الإلهي. وفي مواجهة هذا المفهوم، ودفاعا عن المفهوم المصري لطبيعة السيد المسيح قام الأنبا كيرلس الأول بابا الإسكندرية الرابع والعشرين وأعلن "أن المسيح شخصية متكاملة جمع فيها اللاهوت والانسوت جمعا لا اختلاط فيه ولا امتزاج ولا تغير، وقد انعكس ذلك على تقديس المسيحيين للسيدة العذراء التي جمعت بين البتولة والأمومة في آن واحد. ودعتها الكنيسة المصرية بأنها السيدة "والدة الإله" (193).

قال فليندرز بيتري "لو أننا حاولنا أن نستعين بخيالنا لإدراك الحقائق التاريخية فتصورنا أن الإيمان بالثالوث المقدس لم يمحص، وأن الرهبنة لم يقم لها أثر، وأن الطفل يسوع المحمول على ذراع أمه العذراء ظل مجهولا في العبادة والفن، لو تخيلنا هذا كله لأدركنا ما أحدثته مصر. من أثر في المسيحية، وكيف أن هذا الأثر بعيد البعد كله عن التعاليم اليهودية" (194).

وقد بشر. الحكماء المصريون القدماء بقدم (ابن الإنسان) وهو اسم يطلق على السيد المسيح، ففي بردية بمتحف ليننجراد، يتنبأ الكاهن (نفرو وهو) بعد مقدمة يحكى فيها أحوال عصره السيئة من خراب وفوضى، التي لا تختلف كثيرا عن الأوضاع التي بشر. فيها السيد المسيح بدعوته، قائلا (سيأتي ملك من الجنوب سيتسلم التاج الأبيض، ويلبس التاج الأحمر..).

193 (المصدر السابق صفحات 389-390).

194 (فليندرز بيتري - مصر- وإسرائيل صفحات (137-138) إيريس حبيب المصري قصة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - مكتبة كنيسة مارجرس باسبورتنج- الإسكندرية الطبعة الثامنة 2003 صفحة 14.

سينشر. السلام في الأرضين على الوجه الذي تحبه أهلها. وسيُفرح أهل زمانه، وسيجعل ابن الإنسان اسمه باقيا أبدأ الأبدين⁽¹⁹⁵⁾.

"يفسر- المسيحيون المصريون رؤية أسلافهم للثالوث المقدس الأوزيري، بالثالوث المقدس المسيحي بأنه قبس من النور الكامن في النفس، ينتظر قدوم السيد المسيح كي يخلصه ويخرج به إلى عالم النور"⁽¹⁹⁶⁾.

كان الصراع بين الكنيستين المصرية والبيزنطية الغربية صراعاً بين ثقافتين، فالدين لدى المصريين القدماء كان أساس فكرتهم عن الكون والوجود، وكانت علاقتهم به عميقة، وحينما ينحصر. حول اللاهوت والناسوت أو الموقف من السيدة العذراء والدة الإله، سيكون مقبولا لدى المصريين تفسير آباءهم الكنسيين، بينما الرومان لم يعرفوا الآلهة بالعمق المصري، وناسوت الإله الروماني شائع للغاية في الثقافة الرومانية، قبل صعوده إلى السماء وتنصيبه إلهاً.

وهناك أمر آخر، أن الكنيسة المصرية لم تكن لتجد سلاحاً في صراعها ضد روما أو بيزنطة، اللتين جعلتا من مصر. سلة غلالها، سوى التعظيم من مكانة السيد المسيح والاستعلاء والسمو بوجوده وكيونوته ليكون أعلى مكانة من أباطرة روما، فبواسطة هذه التعاليم

195 (جيمس هنري بريستيد- فجر الضمير H.Breaste Dawn of conscience ترجمة : د. سليم حسن -الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000 -صفحة216.

196 (هنري بريستيد - فجر الضمير - إيريس حبيب المصري قصة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - مكتبة كنيسة مارجرس باسبورتنج- الإسكندرية الطبعة الثامنة - 2003 صفحة 16.

تمكنت الكنيسة المصرية من المقاومة التي استعادت عبرها كرامتها، وأصبح لها بواسطته سلطة على الإمبراطورية، ورأسها الإمبراطور، وقد تصرف في هذه السلطة بحكمة وكرامة، ووقف خلفها الشعب المصري كله، في المقابل كان الأساقفة الغربيون في قلب الدولة أو الإمبراطورية، يقيمون ويقضون أيامهم محلقيين حول الإمبراطور وفي قصره، وقرب غرفة نومه، ويقتادون على موائده وينهلون من خزائنه، ما جعلهم يُراءون سياسة الأباطرة وينافقونهم. كانوا يعيشون داخل بيئة سياسية تشكلت من الترغيب والترهيب، مما دفع كثيرًا منهم للدفاع عن مصالح الإمبراطور السياسية، ومصالحهم الذاتية.

لم يكن لدي الكنيسة المصرية ما تخسره، أو ما تكسبه من ممالأة الأباطرة، فقد كانوا ينظرون إلى المصريين كرابرة، ولهذا تمسكت بدستور الإيمان القويم، ومغزاه الإنساني العظيم، والذي كان تاريخًا سياسيًا من تحدى الإمبراطورية في إطار لاهوتي. مما أضفى هالة لاهوتية على كنيسة الإسكندرية جعلها تعلق عن بقية الكنائس وقد ساعدهم التراث الديني المصري القديم وبزوغ الرهينة كأسلوب حياة، في مواجهة بذخ وقوة وعنف ونفوذ واستعلاء روما، وهو ما أسبغ عليها وعلى آبائها لقب "المدافعون الأوائل عن الإيمان القويم أو الأرثوذكسى".

لهذا لم يفهم الأساقفة الغربيون التشدد المصري ونظروا مع الوقت إلى الإسكندرية وباباواتها بوصفهم مغالين في العقيدة، عنيدون في السلوك، ثم أطلقوا عليهم أخيرا لقب فراعنة. وهو أمر لم يأت من فراغ،

ليس بسبب التشبه ولكن بسبب ميل وارتباط الكنيسة المصرية إلى الوطنية، والدفاع عن الشعب المسيحي المصري أمام الطاغوت الروماني القديم والجديد.

في عبارة ذات دلالة موحية ، يقول القس منسى. يوحنا في كتابه تاريخ الكنيسة القبطية "و بالجملة فلم يكد ينتهى القرن السادس حتى بلغت العداوة بين المصريين والرومانيين أشدها خصوصا عندما أنفذ القيصر. أمرا إلى نائبه، بمصر. بطرد جميع الأقباط من خدمة الحكومة وعدم قبول أحد منهم في مصالحتها قصدا منه إذلالهم، فكان ذلك من أقوى البواعث على قنوط الأقباط واعتزالهم الروم بالكلية، وقطع كل العلاقات معهم، وكان كلما اشتد الضيق بالأقباط، كلما ازدادوا تسمكا بديانتهم طمعا في نوال الاستقلال الدينى، الذي اشتروه بسفك دماء المؤمنين منهم"⁽¹⁹⁷⁾

الطبقات العرقية الوسيطة

كان هذا كان سبباً كافياً في انبعاث الكراهية والاضطرابات المستمرة بين الفلاحين المصريين والطبقات العرقية الوسيطة من يونانيين ويهود. فمن دونهم سيحل محلهم في أرزاقهم، لقد لعبوا دوراً شائناً تجاه الفلاحين المصريين، حيث استخدمتهم الإمبراطورية الرومانية الغربية، والشرقية، للقيام بدور (الخولى) أو الوسيط الذي أوكل إليه استعبادهم وإذلالهم، وجمع ثروتهم من فائض قيمة عملهم.

* * * *

(197) القس منسى- يوحنا تاريخ الكنيسة القبطية مكتبة المحبة الطبعة الثانية 1983-
صفحة 280.

خاتمة

في البدء بنى المصريون القدمات عقديتهم على أساس كونهم جزءاً من النسق الكوني المادى محصوراً بين الوادى والشمس المتعامدة عليه، ولم يفهموا كيف أن الخلود الذي طلبوه أمر عسير عليهم، وعندما ظهرت اليونان في الأفق وتفاعلت مع الحضارة المصرية وهى توشك على الأفول، كانت قد اكتشفت تهافت الرؤية المصرية في البحث عن ما وراء الطبيعية فنفض اليونانيون عنهم تلك التصورات السكونية، ليجعلوا من العالم الواقعى مبحثهم، وحرية البشر. إزاء الوجود معركة مصير، يرتفع فيها البشر. في مواجهة أقدارهم، على عكس التصور المصرى الذى لا يرى وجوداً خارج النسق والنظام الكونى المنتظم.

لكن روما دفعت بالمفهوم المادى اليونانى عن الحرية والفاعلية الإنسانيتين، في ظل تطور المجتمع العبودى إلى عالم من التميز العرقى، يقصر قيم الحرية الإنسانية وأدواتها الديمقراطية، وما تستتبعه حقوق الملكية والتجارة والاحتكار على المواطن الرومانى، بينما بقية البشر. عبيد يقودهم والى (خولى) أو مواطنون من الدرجة الثانية.

المشالية والمادية

لقد هيأت روما الشروط الموضوعية لقدم السيد المسيح، ولم تقتصر. عظمة المسيحية على كونها ديناً من أجل الإنسانية، أو أنها أعادت للرقيق والعبيد والمستضعفين من شعوب الأرض غطاء شرعيتهم، أو أنها تخلت عن الإله الضيق الأفق العنصرى الذي كان لبني إسرائيل، متبنية كما يعتقد البعض صورة جمعت من شمل الديانتين الأوزورية والأتونية القديمة، لكنها ستكون واحدة من أكبر العمليات التخيلية في تاريخ الوعي الإنسانى، والتي تعبر عن قدرته على التخيل والتجريد، وهو يحاول أن يمسك بالواقع الموضوعى والعالم المادى العيانى، فإذا فشل فإنه يلجأ إلى عالم تخيلى بديل، يقع فيما وراء الواقع. كأن التاريخ في صيرورة جدلية بين البنية التحتية المادية، والبنية الفوقية للوعي الجمعى العام، ظهر من خلال الجدل الدائر بين ثقافات تتفاعل، وتتصارع، وتسيطر، وتنتقم، حين يحين الوقت.

منذ القديم قاد عربة الإنسانية جوادان جامحان، للخروج بالبشرية من عالم (الإنسان جامع الرمة) إلى الحيوان الاجتماعى القادر على العمل، واستخدام الأدوات، الجواد الأول كان تلك الخبرات المادية التى اكتسبها من خلال عمله الشاق لترويض الطبيعة. الجواد الثانى كان (المخيلة الإنسانية) أى القدرة على الابتكار والإبداع في مواجهة المجهول، بتخيل حلول مادية أو ميتافيزيقية له، وقد تجاهلت مسيحية السيد المسيح ورسله الأوائل الجواد الأول الذى برعت فيه روما وقبضت عليه بقبضة حديدية صارمة، فإذا

انفلت الواقع المادى، وجعلت روما من الأرض جهنم الحمراء، أطلق العنان للمقود الثانى، وهو المخيلة والابتكار العظيمين (ذوي الشأن)، كى يقود البشرية من هذا الجحيم إلى جنة ومملكة فيما وراء الحياة. يجلس على عرشها إله عادل رحيم وأيضاً منتقم، يحاسب الأشرار على شرورهم، ويحيلهم إلى جحيمه.

وفى المقابل فإذا كانت المسيحية رداً على شرور وهلاك وابتلاءات المجتمع العبودى، إذ إنها لم تكن لتملك رفض قواعد العبودية ولا قوانينها، فهى لم تكن واحدة من الثورات الوطنية التى انتشرت تحت الحكم الرومانى، أو ذات أبعاداً اجتماعية محددة تدور حول قوانين الملكية، كما أنها لم تكن نظرية ثورية فى الاقتصاد أو السياسة، بل ربما كانت ولفرط عظمتها قصيدة شعرية من المحبة والتسامح والرحمة فى استعادة ما هو إنسانى لكل من فقد إنسانيته ولم يعد يملكها. وبالتالي ظلت قوانين العبودية المادية كما هى على الأرض، لم تتغير كثيراً، كما ظل الأباطرة والخلفاء والسلاطين يملكون الأرض والريع يكتزونها فى خزائنهم، ويحتكرون الحياة الاقتصادية ويفرضون الضرائب والمكوس يعصرون بها الفلاحين المصريين بلا شفقة أو رحمة، ودون فروق تذكر بين مسيحيين كانوا أو مسلمين، بينما ارتقت المثالية بجوهرها إلى عبودية رب متعال فى السماء دينه (المحبة)، ينظر إلى البشر لا بكونهم عبيداً أو رقيقاً ولكن كأبناء يحبهم ويشفق عليهم، ويمنيهم برحمته الواسعة. عبودية قائمة على الرحمة والطاعة والثواب بالخير والإحسان للمؤمنين. إله لا يكتفى بالجلوس على عرشه فى السماء، بل وكأنه

يعتذر عن طرد البشر. من جنته، يقوم بقدو البشر،
بالنزول من عليائه في السماء إلى الأرض الخراب، كي
يتحمل عنهم خطيئتهم.

من الضروري أن نذكر أن هذا التاريخ من المقاومة
شكل واحداً من معالم الهوية المصرية، وأن تفهم الأمر
يعد قضية جوهرية لاستعادة طبقات الوعي والمعرفة
بالذات، وأن المقاومة البطولية "لشعب أعزل" وجد
في المسيحية هويته الضائعة والتائهة بين تقلبات
التاريخ والجغرافيا، لهو مدعاة لفخر كل مصري، كي
يفهم أن ما لا يتم الحصول عليه بالسيف فبالروح
يقتنى.

ولكن من الضروري الاعتراف أيضاً أن الكنيسة
المصرية اكتفت من المصريين بالروح، ولم تخرج عن
النطاق الروحي لخوض معارك الفلاحين على النطاق
الاجتماعي، فطوال عقود متوالية وحتى دخول العرب
مصر، لم تتطرق الكنيسة إلى المطالب الاجتماعية
للفلاحين المصريين على أجندة المقاومة، وفي قلب
وخضم الأحداث، لم تطالب الكنيسة بتخفيف قبضة
ملكية الإمبراطورية الرومانية غربية أو شرقية على
الأراضي، وضروة تملكها للفلاحين، أو الوقوف ضد
احتكار الإمبراطورية للموارد الوطنية، وثرواتها
الطبيعية والزراعية، ولو فعلت ربما تغير التاريخ، أو
لتغيرت الفلسفات التي تفسر التاريخ الشرقي بالضرورة.

الفلاحون بين الروح والجسد

ولقد ساهم هذا الموقف الذي اتخذته الكنيسة إلى
انقسام الذات لدى الفلاحين المصريين إلى جسد وروح؛
روح تملكه الكنيسة المسيحية، وجسد هو ملك

السلطة الزمنية، سواء أكانوا أباطرة، أم خلفاء، أو سلاطين، أو ملوك... وبين السلطين غاب المصريون عن الوعي بالتاريخ.

الفتح العربي

في منتصف القرن السابع الميلادي وبعد سبعة قرون من احتلال الرومان لمصر. تبلغ دلالات المشهد ذروته، عندما تطرق سنابك خيل القبائل العربية أبواب مصر، سوف يطرح الفاتح (عمرو بن العاص) على أهلها ثلاثة خيارات، فيكتب عمرو إلى المقوقس (والي مصر):

"أن ليس له ولجماعته ما رب سوى أمر من ثلاثة؛ الجزية أو الإسلام أو استمرار القتال، حتى يقضى الله بما يريد".

فجمع المقوقس أهل حكومته وما زال بهم حتى وافقوه على طلب الصلح، على شروط تقرر برضى واتفاق الطرفين، فأرسل يطلب من ابن العاص أن يرسل رسلا من عنده ليتداول معهم، فيما عساه يكون فيه صلاح له ولهم، فبعث عشرة من رجاله على رأسهم عبادة بن الصامت... وبعد مداوات ومحاجات كثيرة لم يتحول فيها رسول بن العاص عما أوصاه سيده، التفت المقوقس إلى أصحابه وكلمهم قائلا:

"أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلته من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة، ولئن لم نجبهم إليها طائعين لنجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين".

فقالوا: وأيہ خصلتہ نجيبہم إليها؟

قال: "أما دخولکم فی غیر دینکم فلا یُسلم أحدکم بہ، وأما قتالہم فأنا أعلم أنکم لن تقدروا علیہم، ولن تصبروا صبرہم، ولا بد من الثالثة".

قالوا: "سنكون لهم عبيدا".

قال: "نعم تكونون عبيدا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذرائعكم، فأطعوني قبل أن تندموا".

وكان أن تقرر الصلح في وثيقة يُعطى الأمان للأقباط (أى المصريين) على أنفسهم وأموالهم، وفي نظير ذلك يدفع كل قبطنى دينارين، ما عدا الشيخ والولد والمرأة، فأحصى عدد الأقباط فقليل ستة ملايين وقليل ثمانية⁽¹⁹⁸⁾.

هذه هي الوثيقة التي حددت العلاقة بين المصريين والفاطحيين، والتي ستتحول إلى عقد غير معلن سيظل يعبر عن العلاقة بين الفلاحين المصريين والجالسين على سدة الحكم، سواء في روما أو بيزنطة، أو دمشق أو بغداد أو حتى في القاهرة وإسطنبول فيما بعد. وكانت النتيجة خروج الفلاحين المصريين للمرة الثانية من التاريخ، والسقوط في كهف الاستلاب التاريخي.

وبذلك أسس القانون الروماني ما يمكن تسميته أخطر الجرائم التاريخية، والذي كان من شأنه سحق الشعوب المقهورة، وخاصة مصر. لقد مارست

(198) يعقوب نخلة روفيله - تاريخ الأمة القبطية - مطبعة متروبول - الطبعة الثانية 2000
صفحة (44-42).

الإمبراطورية الرومانية في مصر. سياسات تميز عرقية متشددة، تفوق ما هدفت النازية الهتلرية من تحقيقه تجاه اليهود في النصف الأول من القرن العشرين، لكن النازية التي صعدت عرش الريخ الثالث في (1939م) حكمت ست سنوات فقط، ثم اجتمع العالم على الإطاحة بها في (1945م)، بينما حكم الرومان المصريين سبعة قرون كاملة كانت كافية لإهدار وجود أبنائها من الفلاحين.

* * * *

الفهرس

7

مقدمة :سؤال الهوية

الباب الأول: شرائع البحر المتوسط القديم

17

الفصل الأول: المصريون القدماء

النظام من قلب الفوضى.. الحياة من قلب العماء/ العمل الشاق طريق التعلم/ جوهر العلاقات الاجتماعية/ عنخ: مفتاح الحياة/ الديمومة / الأصول/ المادية للشريعة المصرية وأسطورة الخلق/ أسطورة الخلق / الفعل والمفهوم/ الماعت/ الدولة.. الملوك الآلهة/ النظام الأخلاقي/ أول ثورة مساواة / إعلان (البراءة).

39

الفصل الثاني: وادى الرافدين

ملحمة التكوين البابلية/ مخطوطات أور-نامو /مخطوطات لبت عشتار / مجموعة قوانين إشنويا / شريعة حمورابي.

49

الفصل الثالث: اليهودية

التوراة / العهد / مدونة السلوك والأخلاق/ تابوت العهد/ الشريعة الشفوية/ التلمود.

67

الفصل الرابع: اليونان

من السكون الأبدي إلى الصيرورة الأزلية التغيير/ العلية والسببية / الفكر الفلسفى الأخلاقي/ المنطق الأرسطى وعلم اللغة / عالم مغاير من المفاهيم/ اضمحلال

تأثير الدين والآلهة / الطبيعة تمثل الأساس المادى للحياة/
قيمة المواطن فى الأنساق القيمية / النظام السياسى
للمجتمع هو انعكاس للمبادئ السابقين/ القانون/
الديموقراطية اليونانية.

85

الفصل الخامس : روما

الأسطورة والتاريخ/ نشأة روما/ مجلس الآباء المؤسسين/ تاريخ
روما/ روما الملكية/الجمهورية الرومانية/النظام السياسى الرومانى/
ديمقراطية **الأقلية**/ مؤسسات الحكم/ القانون الرومانى/ الأصول
الدينية / القانون الرومانى المدنى والمساواة التمييزية/ الألواح الاثني عشر-
/من الشريعة الدينية إلى القانون المدنى/ إمبراطورية العبيد/ تشريع
التمييز العرقى/ -المواطنة الرومانية / حقوق العبيد/ حقوق الشعوب
المغلوبة / الدوائر القانونية الثلاث للإمبراطورية الرومانية/ قانون الفتح/
قانون الأمم/ القانون الطبيعى.

133

الفصل السادس : المسيحية

مقدمة/ لعنة التيه/ الشريعة الجديدة/ (العظة على الجبل)/
المسيحية دين البشرية العالمى/ شريعتي المحبة.

147

الفصل السابع : جوهر الشرائع

نظرة سريعة على شرائع الشرق الأدنى القديم أو القانون قبل الرومانى/ الإيمان
بالآلهة/ الحماية والمساندة/ الشرائع/ منظومة الأخلاق/ مغزى الشريعة/ الجانب
الميتافيزيقى/ الجانب الموضوعى/ الجانب الحياتى/ الجانب الرمضى.

الباب الثانى: الخروج من التاريخ

- 123 **مقدمة:** الوعي بالهوية/ مظاهر بجليات الصراع.
- 161 **الفصل الثامن: جدل التاريخ**
- حرب من أجل الخلود/ أفول الماعت / من النظام إلى الفوضى/
العبرانيون/ الحضارة اليونانية حرب من أجل المعرفة.
- 183 **الفصل التاسع: أنماط العبودية**
- الإنتاج وبزوغ الطبقات/ ظهور الملكية الخاصة / المجتمع العبودي/
الدولة/ مهمة الدولة التاريخية/ الإمبراطوريات/ أنماط العبودية/ النمط
الكلاسيكي/ عبودية الأمم (مصر).
- 157 **الفصل العاشر: قانون الفتح الروماني**
- قانون الفتح الروماني/ مصر- ملكية خاصة
بالإمبراطور/ الإدارة الرومانية/ نظام الالتزام/ قانون
الملكية الرومانية / قواعد اكتساب الملكية الرومانية/ صور
الملكية.
- 167 **الفصل الحادي عشر: الدستور الذي وضعه الرومان**
- لمصر**
وثيقة (الجمانومون) / غايات الدستور ونصوصه.
- 173 **الفصل الثاني عشر: الاغتصاب المادي**
- التطور المكبوح/فلاحون بلا ملكية / مجتمع بلا قوى اجتماعية /
وشعب بلا قوى عسكرية/ شعب في المرتبة الأدنى عرقيا.
- 183 **الفصل الثالث عشر: الاستلاب الروحي**
- السياسة الدينية للرومان/ الكهنوت/ عبادة الأباطرة في
مصر- المؤسسة الكهنوتية/ الاستلاب الروحي/ الاستلاب
الجمعي/ شعب بلا ملكية مادية / مصر- بلا قوى اجتماعية/
وبلا قوى عسكرية.

الباب الثالث: تطور الصراع

بين المفهومين المادى والدينى

- 201 **مقدمة:**
- 203 **الفصل الرابع عشر: المعنى الاجتماعى للمدين**
صورة العالم بين الكمال والنقصان/ الغرض/ الشريعة والمحافظة على الذات/ الأخلاق.
- 209 **الفصل الخامس عشر: العقل المدنى**
مبدأ العقل الإنسانى/ المجتمع هو مجموع لأفراد أحرار/ الطبيعة/ التميز السلالى الرومانى.
- 267 **الفصل السادس عشر: مصر تستر عريها وعارها**
مسيحية السيد المسيح عقيدة ثورية/ عقيدة المقاومة لدى المسيحيين الأوائل/ جنود الثورة من الأتباع والمريدين والمبشرين / بين السيد المسيح والقيصر- العالم الجديد، المبشر به / عصور الاضطهاد الكبرى / مرسوم ميلان.
- 301 **الفصل السابع عشر: الإسكندرية عاصمة المقاومة**
مدن البحر المتوسط القديم/ تاريخ الإسكندرية/ جامعة الإسكندرية/ مكتبة الإسكندرية/ المآزق الفلسفى فى القرنين الأول والثانى الميلادى/ الرواقية/ اليهودية/ الغنوصية / اضمحلال روما.

313 **الفصل الثامن عشر: مؤسسات المقاومة**

مدرسة اللاهوت السكندرية/ مؤسسة الرهبنة/ أسقفية الكنيسة
المصرية.

327 **الفصل التاسع عشر: دستور الكنيسة المصرية القيوم**

الخلاف العقائدى بين الكنيسة المصرية والعالم المسيح/
تعاليم الأريوسية/ مجمع نيقية/ قانون الإيمان القويم /
الصراع بين الدين والفلسفة والسياسة /التصور المصرى
القديم والتصور الرومانى عن الآلهة/ المسيحية والثقافة
المصرية/ نقض قانون الفتح الرومانى/ المفهوم السياسى
لقانون الإيمان القويم

345

خاتمة

السيرة الذاتية

فتحي إمبابي: روائي وكاتب

خبير تنفيذ أنفاق

الأعمال الإبداعية

- | | | |
|----------------|-------|--|
| العرس | رواية | 1980 طبعة أولى |
| | | 2000 طبعة ثانية - الناشر دار ميريت |
| نهر السماء | رواية | 1987 طبعة أولى - الناشر دار الفكر المعاصر |
| | | 2007 طبعة ثانية - الناشر مكتبة الأسرة |
| مراعى القتل | رواية | 1994 طبعة أولى - الناشر دار النهر جائزة الدولة التشجيعية |
| | | 2006 طبعة ثانية جزء أول - الناشر 3/15 |
| | | 2018 طبعة ثالثة |
| أفئعة الصحراء | رواية | 2002 - الناشر دار ميريت نفذت |
| شرف الله | رواية | 2005 - الناشر - المؤلف |
| العَلَم | رواية | 2008 - الناشر دار الهلال |
| عتبات الجنة | رواية | 2014 - الناشر الهيئة العامة للكتاب |
| السبعينيون | | 2010 قصص قصيرة - الناشر 3/15 |
| مستعمرة الجزام | | 2018 قصص قصيرة - دار ابن رشد |

دراسات اجتماعية وتاريخية وسياسية

- جواهر الدساتير المؤل 2012 الناشر دار الطناني
ف
شرائع البحر الأبيض المؤل كتاب في الإنسانيات-
المتوسط القديم ف 2018 - الناشر مجاز للترجمة
والنشر
سهام صبري زهرة الحركة المحرر 2004 الناشر دار ميريت
الطلابية
الروافد الاجتماعية لجيل مدير 2000 مركز الفسطاط عدد من
السبعينيات- الندوة المثقفين

مسلسلات دراما

- طيور الشمس تأليف
نهر السماء تأليف
2002 - قطاع الإنتاج
لم يتم إنتاجه بعد

المؤهل: بكالوريوس هندسة مدنية-كلية الهندسة-جامعة عين
شمس

دبلوم تخطيط نقل-المعهد القومي للنقل -1986

دبلوم تخطيط أنفاق-ألمانيا الاتحادية -1988

العمل: (1982 - 2010) تنفيذ أنفاق مترو القاهرة (الخط الأول
والثاني والثالث) / نفق جمال عبد الناصر ونفق الثلاثيني
بمدينة الإسماعلية.

(2014-2016) رئيس تحرير مجلة الفيلم

(2015-2017) رئيس تحرير مجلة المهندسين

التوق إلى الحرية:

يتناول كتاب شرائع البحر الأبيض المتوسط القديم مبادئ الشرائع الدينية والقانون المدني التي أسستها الحضارات التي تشكلت على ضفاف المتوسط منذ مطلع التاريخ، وحتى القرن الرابع الميلادي، والذي نكتشف من خلالها كيف حول الدستور الذي وضعه الرومان لمصر في منتصف القرن الثاني الميلادي إلى أمة من عبيد، أودعها عالم الظلام، وحنطها في كهف الاستلاب الجمعي وأخرجها من التاريخ.

هذا البحث في جزء منه قراءة في التماثلات والتباينات والتناقضات الكامنة في المفاهيم الثقافية والأخلاقية لشرائع وقوانين الحضارات التي نمت وازدهرت وتلاقحت وتفاعلت على ضفاف البحر الأبيض المتوسط.

وهو في جزء آخر محاولة استشرافية للإجابة عن سؤال لماذا خرجت الجماعة المصرية من التاريخ، وسقطت في غياهب الاستلاب الجمعي.

وهو في جزء ثالث مساهمة في تأسيس نوعي قانوني وتشريعي يساهم في كتابة دستور مصر في المستقبل، وكانت الوقائع التاريخية قد أظهرت خلال المائتي عام الأخيرة، أن النظام الملكي أو الرئاسي بغض النظر عن تبني الجائس على سدة الحكم آمال الجماعة الشعبية وطموحاتها، وإقراره العدالة والحرية من عدمه، أو سقوطه في مصيدة التبعية للقوى الإمبراطورية أو الإمبريالية العالمية، قد انتهى في كل الأحوال تقريبا إلى كوارث ونكبات مهلكة دفع الشعب المصري ثمنا باهظا...
ليبق السؤال قيد البحث؛ لماذا لا يكون للنظام الديمقراطي (في صورة الجمهورية البرلمانية) نصيب من مستقبل الحياة السياسية في مصر؟

